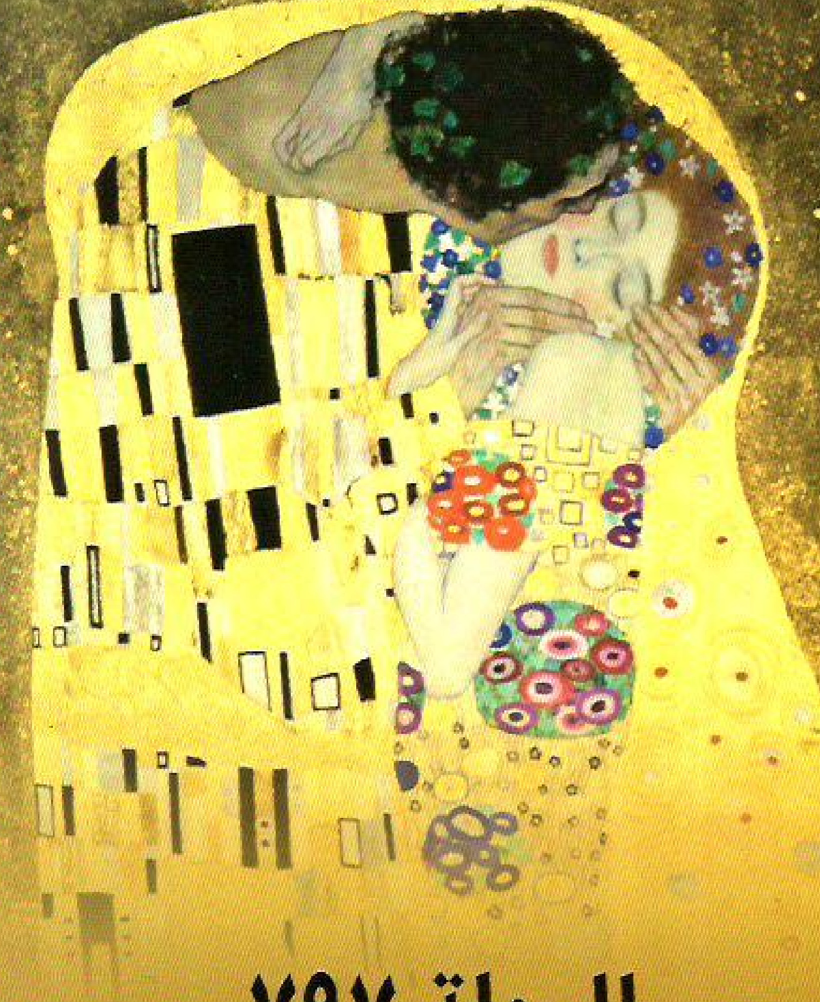


الرحلة ٧٩٧

المتجهة إلى فيينا

رواية

طارق الطيب

دار العين للنشر

الرحلة ٧٩٧
المتجهة إلى فيينا

الرحلة ٧٩٧ المتجهة إلى فيينا

(رواية)

Trip 797 to Vienna

طارق الطيب

Tarek Eltayeb

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس:٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail . com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

خالد فهمي

فتح الله الشيخ

فيصل يونس

مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

فاطمة البودي

لوحة الغلاف: جوستاف كليمت

تصميم الغلاف: بسمة صلاح

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٦٥٤٦ /٢٠١٣

.B.N 978 - 977 - 490 - - 3

الرحلة ٧٩٧

المتجهة إلى فيينا

روايـــة

طارق الطيب

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الطيب، طارق.

الرحلة ٧٩٧ المتجهة إلى فيينا: رواية/ طارق الطيب.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤

ص؛ سم.

تدمك: ٣ ٢٤٦ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية.

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ١٦٥٤٦ / ٢٠١٣

لن أتقاسم معك الأحلام

لا أحب أنصاف الأحلام

سأهديك الحلم كاملا

لا تفسريه

عيشيه!

1

ليلى عارية مستلقية على ظهرها على السجادة الفارسية الوثيرة في شبه غفوة نادرة لم تشعر بها منذ مراهقتها. هي الآن بين النوم والصحو أو بين شرفات الحلم ومشارف اليقظة. لا تعرف لأي منهما تستسلم أو إلى أيهما ترتقي. عارية، دون أن تشعر بأدنى خجل. لم يحدث مرة وهي في عريها طوال عمرها أن تجاوزها هذا الخجل المزمن حتى وهي بمفردها؛ فما إن يصدر حس أيّ ذكر غريب أو طرقات على الباب إلا وتتلمس شعرها المسفر بهلع وتتأكد من حزم ملابسها، أو تركض لمكان خفي كطريدة.

للمرة الأولى في حياتها تتأمل جسمها العاري بارتياح وفرح طاغيين. هو إلى جوارها مسترخ وادع وقد انتظمت أنفاسه الصاهدة وهدأت.

كفها معشوقة في كفه. ترفعهما لتتأكد أن هذه كفها وأنها في كف رجل يشاركها العري والفراش، رجل يزلزل كيانها فتشعر بالسكينة. أساورها تصلصل برنين يثير شهوة الأذن. تشعر بابتسامته الراضية على وجهه الناعس. تشد كفه نحوها فيلامس ساعده الدافئ ثديها بلذة. تقبّل كفه بمسرة غامرة، وتترك نفسها في سكرة ممتدة.

لا تدري السر الذي جعلها تفتح هذه الغرفة البعيدة المغلقة في بيت آدم. لم تكن فضولية و لم تفعل هذا من قبل حتى في بيت أعز صديقاتها. هو أيضا لا يدري لماذا لم ينطق بحرف واحد ليوقفها أو حتى يومئ ليمنعها برفق، وهو يعرف أن هذه الغرفة هي الوحيدة في بيته التي يغلقها ولا يسمح بدخول أي كائن إليها سوى "إيزيس" قطته الوديعة. تدخل ليلى وتقف منبهرة في حجرة تبدو لها غير عادية، حجرة حية ذات روح، يدخلها المرء فتحتضنه بحنان، وتشعره بإحساس طمأنينة وأمان ونسيان لكل العالم خارجها. الحجرة قد تبدو لكثيرين حجرة عادية، فهي شبه خالية من الأثاث، فيها سجادة تبدو سميكة للغاية، مما جعلها تبدو عالية عن الأرض أو كأنها بساط الريح. في الركن شمعة حمراء مشتعلة يفوح منها عطر أخاذ لم يسبق لها أن شمت مثله، عطر من الجنة يجتاحها فيرتعش جسدها. تعود خطوة للخلف، فتصطدم بصدره؛ فيعتذران معا في آن.

ترى خلفه شالها الأزرق الذي نسيَته قبل ثلاثة أعوام وثلاثة أسابيع ويومين بالضبط في فيينا، مسدلا على الحائط بلمسات فنان. كما لو كان خلفية لإحدى ليالي قصص ألف ليلة وليلة. تمسها حالة من السرور كلمسة

نسيم في عصر صيف حار. هي مستقرة في قلبه إذن منذ زمن طويل. الآن البسمة التي في قلبها وروحها والتي انطبعت على وجهها وكل جسمها لا تضاهيها أي بسمة في العالم. يلتف ناظرا معها للشال، فيولي ظهره لها. تلتصق به في حنو فيشعر بحلماتها تمس ظهره مسا مهيبا مخدرا. تتحرك نحو الشال، فيصير خلفها. يمسها بصدره من ظهرها ويضع ذقنه في ثقة على كتفها فتشعر بشعر ذقنه يشوكها بلذة وبأنفاسه تلفحها بوداعة على جيدها. تروح عبر أزرق شالها إلى السماء. تلوّح للحلم المنتظر، تنظر وتنتظر!

تهمس لنفسها:

"هل يتحقق الحلم الآن؟ هل آدم هو رجل الحلم؟

عندما يتحقق الحلم يتبدل لواقع أعذب وأشهى، وأنا الآن أستعذب هذا الواقع وأشتهي هذا الرجل بلا حدود ولا قيودا"

تلتوي يمينا نحو الشمعة، يغمرها العطر من جديد بثوب الرجفة. تتقدم نحو الشمعة. يضيء وجهها كأن نورا يخرج منه. ضوء الحجرة يتسربل لونا فضيا كضوء القمر لا تعرف من أين يأتي؛ هل من نافذة بعيدة أم من مصباح خافت أم الشمعة وحدها كانت كفيلة بكل هذا.

الآن للشمعة سطوة الضوء وللرائحة سطوة السكينة. السكون ينبئ بعاصفة في الحس لا ريب آتية! تقرأ خلفه – جوار الشال المعلق – في خط ديواني جميل مزخرف على الحائط:

"أنَا لَكْ؛ فَكُنْ أرْضِي وأَرْضِ قَلْبِي وَكْنْ سَمَائِي وَٱسْمُ بِرُوحِي،
حَتَّى أنَالَكْ فأنَا لَكْ"

كأن المكتوب كان لها وعنها. للمرة الأولى تتخلص في لحظة من ثقل ماضيها ومن قلق مستقبلها، تشعر أنها تلملم روحها من الماضي وتؤمِّن عليها في المستقبل، لتكون بروحها ووجودها ووجدانها في حاضر يبدأ الآن.

للمرة الأولى تطيل النظر في عيني رجل وترى لونهما وعمقهما، فتشعر أن النظرة تروي عطشا بعيدا مزمنا لم تنتبه له، وأنها تريد المزيد. للمرة الأولى يقترب منها رجل فيقشعر جسمها ويرتجف ويزلزلها دون أن يلمسها. يجذبها إليه بسحر غامض فتستجيب بغريزة مسحورة. كم مرة انكمشت كقطة بائسة كلما تركها زوجها وراءه ككتلة طين بلا ملامح، كلما اعتلاها بقسوة في ظلام الغرفة؛ فلم تعرف هل هو من ضاجعها أم وحش خرافي جاء من دغل خلف الجدار! للمرة الأولى يشعر هو أنه مسيَّر ولأول مرة تشعر هي أنها مخيَّرة. في لهفة يخلع كل منهما للآخر ملابسه. كأن كليهما يخلِّص أحدهما الآخر من أسر ما.

أنفاسها تتهدج مع اقتراب وجهه. يقطف القبلة الأولى، هكذا هي القبلة التي سمعت عنها ورأتها، القبلة البكر الحسية الناعمة القوية التي تمنتها. يتبادلان شهد الرضاب. صهد رائحتها يغلفه فيشدها نحوه برفق، تروح إليه. جبهته على جبهتها. أنفه على أنفها، يتبادلان الشهيق والزفير الخافت، وصدره يلامس نهديها الدافئين. جسمه يتغير، يتمدد فيها. كفها

تتحسس جسمه حتى تصل إلى كفه، فتتعاشق الكفان. تحس بشعر ذقنه يدغدغ وجنتها، رقبتها، كتفها، ثديها. تقبله بلهفة في كل موضع من وجهه وصدره بشفتين محرومتين. يقبلها بشفتين من نار في كل موضع استطاع إليه سبيلا، ويتحرر حسها للمرة الأولى في حياتها عاليا منفلتا طبيعيا في هذه الغرفة الهادئة؛ حروف قليلة تتكرر لصوت امرأة تحرر جسمها بأنين مبتهج، تفك به أسر روحها من سجن بعيد وتنسى قسوة العالم للحظات. تترك العنان الأزلي الراقد فيها للوحش المتمرد الذي يخرج من قمقمه صاعدا لأقصى مراتب الوله. تدور معه في رقصة تمنتها طوال عمرها. رقصة يضمها فيها المحبوب فلا تعرف جسمها من جسمه؛ صوتها من صوته، اسمها من اسمه، يعتصرها، يدوخها، فتصعد معه أو تهبط. لا يهم؛ خفيفة هي الآن كريشة تتهادى مع نسيم الوجد.

مثل ملابسهما التى انسابت على الأرض، انسابا هما أيضا فوق السجادة العالية، كتمثالين من الشمع يذوبان ثم يتشكلان في جسم واحد وروح واحد. يلتهم شفتيها بعضات شبقة تخرج من غريزة طبيعية دفينة. لطعم رضابها مذاق مذهل. تصطك الأسنان بالأسنان في صوت أكثر إثارة. تشعر به يشمها بشوق ومتعة. كلما استنشقها تشعر أنها تتحول لعطر يضيع في صدره ليعيدها مجددا ويستنشقها مرات. في رائحة صهد العشق عبق تتعرف عليه الآن. ها هو بفيضان مشاعره يساعدها على الوصول إلى معارف أخرى مغايرة، وبيده التي تتحرك بوعي فطري يعيد تشكيل تضاريس جسمها، يمس شفتيها فيمنحهما لونا ورديا، وكلما مصهما بشفتيه أعاد تشكيلهما ليأخذا هيئتهما المنتصبة المتوهجة. ينحدر

بيديه على كتفيها فينحتهما كما لو كان نحاتا مصريا قديما موهوبا، ثم تنزلق كفاه ليضمها فيَلين خصرها كأنه من صلصال لين، يضم كفيه فيضيق الخصر تحتهما، وتنفرج كفَّاهُ ليرسم معالم ردفيها الممتلئين. لسانه أينما وقع على جسمها يقرأ بشرتها بارتواء، يمنحها مذاقا ورائحة وهوية، وهي كمادة خام غفل طيعة، تنتظر انتهاءه واثقة من قدرته على الخلق.

ينزلق بجسمه بين فخذيها ويرفع كفيها المتعاشقتين في كفيه عند رأسها. وينظر في عينيها. تميل بوجهها في غنج مثير وعيناها لا تفارقان عينيه. شعرها هالة مجنونة من سواد أسطوري. تبتسم بينما وجهه غارق في عبوس الشهوة. يلحس أذنيها وجيدها ووجنتها ويمر معضعضا شفتيها نازلا لكتفها، لثديها، لصدرها، لبطنها، تتأوه وهي ترفعه بأصابعها المعشوقة في أصابعه.

يلتحم الجسم في الجسم، يستكين توتره الساخن المشدود داخل توترها النديّ الطيّع. تتفتح كل مسامها كوردة تغتسل بمزيد من الندى وعيناها تشهقان في عينيه أن يتوقف؛ بل أن يستمر؛ أن يستمر إلى الأبد، تضرب صدره ضربات دلال؛ ضربات زجر مريد، وهو يشد شعرها شدا يلذًّها بالألم. تفتح كل جيوبها السرية ليغوص أينما وكيفما أراد، فيهتز كيانها، تعاتبه بنظرة عشق ممزوجة بامتنان، فيرد العتاب بحرث لأرض بكر تستقبل مطرا بإحساس جديد للمرة الأولى في الحياة!

يتعالى صوتها تدريجيا، فينتشي بحسها حين تنطق اسمه ببحة الأنين:

"آدم.. آه دم.. آاه دم!"

تتحشرج أنفاسهما والجسمان ينتفضان. تخربش ظهره بأظافرها بلا شعور. يعض شفتها السفلى. تلتوي تحته كأنها ستهرب، يجذبها بعافية لتجد نفسها فوقه تمارس رقصة الجسم على الجسم، مع الجسم، في الجسم. رأسها يرتفع وعنقها يتمدد كهرة متلذذة وينفلت شعرها ويسعى. أسنانها تجز على لذة؛ على جنة تتراءى لها في أفق غاف داخلها، مستسلمة هي الآن بكل حنو الأنثى الراضية، وعيناها بنظرة ولهٍ بعينيه معلقتان.

متعاشقين حجْرا في حجْر ينظران لالتصاق يفكانه لإمتاع العين ويردانه لإمتاع الجسد، شعرها الفوضوي الهائج يغطيهما. يتبادلان المواقع دون أن يدريا، يرفعها فتشعر بخفتها. ترتمي للخلف ببطء وإغراء، وهو يريحها على راحتي كفيه، فيسقط شعرها الغزير مدغدغا قدميه، بينما يغوص بوجهه في صدرها. حلمتاها البضتان كحبتي عنب داخل فمه تنتصبان فيقرأ سورة انتصابهما بلسانه الساخن. يخرج اسمه منها فيخرج اسمها منه:

"ليلى.. ليله.. ليلاه!"

"آدم.. آه دم.. آاه دم!"

ترد عليه وحرف الهاء يخرج من لسانيهما معا هامسا هائما هائجا هادرا، بهيام لا كابح له.

جسمها الآن ليس ملكا لها؛ بل هو – على العكس – ملك لها تماما للمرة الأولى، حتى شَعرها يقرأ عليها حالة قدميه الغارقتين في نشوة

اللمس الهامس. جلستها المتربعة في حجْره تتيح لهما شم عبق الالتصاق والالتحام، كرائحة لوز مهروس في ندى الصباح، تعصر جسمها في جسمه، وتتمنى أن تروح داخله للروح التي تاقت إليها.

بصوت أنثوي مرتو وعطشان في آن تضحك ببحة كأنها تنتحب. تبتسم ثم يقطب جبينها كأنها تتألم. ينطقان معاً بكلام وحروف عتيقة لم ينطقا بها في حياتهما؛ كلام مبهم مفعم بحروف اللذة والاشتهاء. يخرج البوح ولهان. يتناجيان. مواقع اللذة تداهم كل ما تقع عليه عيناه منها، تلتذ من طاقة لا تعرف مصدرها، يصير لحاسّة النظر حسية ستعرفها من الآن، معه، مثلما عرفت نعمة شم عبير الجسم؛ مثلما عرف لسانها طعم الحياة وأدرك السر المكنون، فصار يلهج بكلام أول الخليقة.

لقاء مؤجل منذ بداية البشرية، تعذب من غيابه الكثيرون، وهاهما الآن يربطان حبلا سريا أزليا ويصححان مسارا مؤجلا. يريدان الغور أبعد، فلا مناص إلا من الانزلاق في غريزة وحشية قديمة هي منبع الحياة وأصلها. لا شبع ولا ارتواء. يهرسان الجسم في الجسم. تشعر به في أقصى أفق في جسمها. لم تشعر في حياتها بهذا الامتلاء والانتماء، يغوص فيها ويتأمل عينيها؛ عينا أنثى من ملايين الأعوام تدوران من اللذة في بياض يجعل حشرجة صوته تتعالى وتوتره يزداد شبقا. يعاين بطنها الناعم المُندّى المتماوج برقصة شوق، وتشعر هي بخربشة داخلية ملتذة تعلّم الإدمان، تخرجها عن شعورها وتسكرها فتهيم في غنج. يتماوجان بانسجام حتى يصعد صوتهما عاليا لأعلى مكان في السماء. صوتان يصرخان بالتناوب،

ثم بالتوافق، ثم بالخفوت، وتخور كل القوى كهبوط طائر السمان من رحلته الطويلة على أول شط، ويفيض الجسدان بنشوة مرهَقة بلذة فوق الاحتمال، يستسلمان للوهن المخلِّص بعد العافية المنفلتة. جسمه على جسمها يغطيها، يحتويها، يعشقها، يذوب فيها ولا يريد أن ينفصل عنها. ثقله عليها يثبَت عشقه على بدنها وروحها كوشم يخلب لبها ويزيدها ثقة بوجودها، بجمالها، ببهائها، ببقية جسمها المنسي وروحها الغائبة.

ينعس هو مستكينا هادئا. كفها معشوقة في كفه. تقبِّل كفه مرات، كأنها تتلمس بشفتيها حقيقة وجوده، تقاوم النعاس والصحو وتدع نفسها في السكرة التي بينهما.

بعينيها شبه الناعستين تلاحظ ليلى وجود وشم واضح على كتف آدم الأيمن مرسوم بخط جميل يحمل كلمة "فيروز" تخمن أن صاحبة هذا الاسم شخصية ذات وضع خاص مرت في حياته، حتى يَشمها على جسمه بهذا الوضوح وفي هذا المكان. تخنق فضولها فورا، لا تريد أن تعود من السموات التي تسري معه الآن فيها بسؤال يعيدها إلى الأرض، هل تقوم بتصرف عجيب لم يتوقعه آدم الذي ينظر لها في هذه اللحظة ويقرأ فضولها الخجول. تُقبِّل موضع الوشم بمحبة كأنه اسمه أو اسمها، فيحتويها غامسا أصابعه في شعرها الأسود الكثيف ويقبلها قبلة ندية طرية بطيئة حارة تحمر فيها شفتاها وبرعشان طلبا للمزيد؛ فتسرى معه مجددا إلى النجوم!

يسكنان الآن جنبا إلى جنب لزمن استثنائي خارج الزمن. ليلى بعد هذه الساعات الهائلة لن تحس بأي ندم لو غادرتها الحياة فجأة. لكنها – في الوقت نفسه – لم تشعر في حياتها برغبة ملحة في الحياة مثل هذه اللحظة. يا الله! تشعر أنها تستمد سعادتها من سعادته. أخيرا بعد هذا العمر الطويل البطيء الثقيل الذي كانت تجره خلفها، أصبح لها رجل يخفف عنها، رجل سيكون مرآة روحها، وأصبح الزمن منذ تلك اللحظة ينبض بعمر جديد.

يفتح عينيه يجدها تتأمله بعينين تفيضان بِشْرا وعشقا. يقترب ويلثم شفتيها فتغمض. يعتدلان في جلستيهما وجها لوجه فتتلامس ركبتاهما وتتشابك أصابعهما مجددا. عاريان يتأملان جسميهما بلا خجل، بانتشاء، بارتواء، بفرح. أنفاسهما الهادئة بفرحة غامرة كأنها تهز لهب الشمعة في ركن الغرفة. الشمعة الحمراء القرمزية في زجاجها الشفاف. اللهب يتراقص والضوء خافت ومريح، مخدر ومنعش. من على هذه السجادة الفارسية الوثيرة يتشكلان وقوفا من جديد في مشهد إلهي بطيء. تدخل القطة "إيزيس في هذه اللحظة. تقف تحتهما وتظل تدور حولهما بين أقدامهما مرات، كأنها تربطهما بشريط غير مرئي وتؤكد هذا الارتباط بدورانها في شكل العلامة اللانهائية في الرياضيات. يقفان متقابلين وينطق لسان ليلى بما لم يكن مخططا له في هذا اللقاء:

> **"زوَّجتُكَ نفسي إلى الأبد على سنة كل آلهة المحبة الأزلية، وكل رسلهم، وعلى صداق المحبة المسمى بيننا!"**

تقول ليلى هذه الجملة لآدم في صوت واثق عميق وهي تنظر في عينيه

بعشق لا يغيب، بعد فناء جسمها في جسمه، ذلك اللقاء الذي لم يكن مخططا له إلا لترى مخطوطاته، ويعلّمها - كما قال - كيف تقتل شبح الخوف الساكن فيها بالحرف والخط والفن والجمال.

"قبلت زواجك إلى الأبد ورضيت بكِ امرأة لما تبقّى من عمري على صداق المحبة المسمى بيننا!"

يرد آدم بصوت قادم من أعماق روحه.

كأن لهب الشمعة شاهد لهما وعليهما. اللهب في ركنه يحتفي ويهتز راقصا. فتذهب القطة إلى جوار الشمعة وتستلقي في وداعَة بعد أن أدت مهمة قدرية أوكلت إليها. كل شيء ساكن في خشوع؛ الجدران، الثريا المُطفأة المدلاة من السقف، وقطع الأثاث خارج الغرفة. كانت ليلى تتساءل بصمت:

"هل مارسا الجنس؟ أم مارسا الحياة في فعل الجنس؟"

لم تنشغل كثيرا بالسؤال، قالت لنفسها بما يشبه الهمس:

"ممارسة الحاضر بعيدا عن فلسفته أجمل في هذه الحالة."

كانا ينظران معا للشمعة وإلى إيزيس ويداهما متعاشقتان. ترتمي ليلى في حضنه فيتعانق الظلان على الجدار في ظل واحد.

حتما قام آدم وحواء بالطقس نفسه في لقائهما الأول على أرض الله!

2

بسم الله الرحمن الرحيم

فيينا في 30 مارس 2012

أختي العزيزة ليلى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرجو من الله العلي القدير أن تكوني في أحسن صحة وأسعد حال

نحن بخير وكل شيء يسير على أحسن ما يكون بإرادة الله

أشكرك على الإيميل الذي وصلني قبل أسابيع قليلة بمباركتك بمولد ابني البكر عبد الله ونحن في غاية السعادة بالمولود الجديد

وفاطمة ترسل لك أطيب التحيات وتتمنى أن تراك قريبا

كيف حالك أرجو أن تكوني مرتاحة في عملك بالمدرسة الألمانية وكيف حال زوجك فاروق لعله بخير. لم نتواصل منذ زمن طويل وهل ما زال يسافر كثيرا إلى المنيا كيف أحوال حاتم ورانيا بارك الله لك فيهم وربنا يسهل لهم الأمور كما علمت من إيميلك أن الأولاد سوف يذهبوا كالعادة في الصيف لجدهم في الإسكندرية وفاروق تعوّد على السفر إلى المنيا مثل كل سنة والبقاء هناك لبعض الأسابيع وأنت لا ترتاحي في المنيا وتتضايقي من دوشة الأهل في اسكندرية والنميمة رغم انك تحبي المكان، لدي اقتراح وحل جميل متأكد من أنك ستوافقي عليه بإذن الله

فاطمة كانت قد تقدمت لتحضير درجة الدكتوراه في جامعة جراتس كما تعرفين وقررت الانتهاء منها هذا العام بإذن الله وعليها أن تزور كثيرا من المكتبات في الصيف وتعكف على الرسالة في البيت بجهد كبير وأنا كما تعلمي كثير العمل والأسفار وإجازتي دائما متقطعة وقصيرة وابننا عبد الله جاء في وقت لم نرتب له لكنها إرادة الله ولا راد لقضائه

أتمنى أن توافقي على الحضور في شهور الصيف الثلاثة للبقاء معنا في هذه الفترة وسأقولها لك صراحة أننا نتمنى أنا وفاطمة أن تتمكني من الحضور إلى فيينا لرعاية عبد الله خلال هذه الفترة بسبب تحضيرها للرسالة وأيضا حتى تقضي معنا هنا بعض الوقت فرحلتك السابقة لفيينا قبل ثلاث سنوات كانت قصيرة جدا لم تستطيعي فيها رؤية كل ما تمنيت

انتهزيها فرصة واهربي من صيف القاهرة الحار واستمتعي بالوقت معنا

مرسل لك كل الأوراق اللازمة للحصول على فيزا وعليك بالإسراع بالذهاب إلى السفارة النمساوية في القاهرة وسوف تسير الإجراءات على ما يرام إن شاء الله بلغي فاروق وحاتم ورانيا أطيب تحية وألف سلام وأتمنى من الله العلي القدير أن يناسبك العرض وتكوني عونا لنا ونكون عونا لك تقبلي تحيات فاطمة وعبد الله وأرسل لك آخر صور السبوع وسأتابع معك من هنا أمور الفيزا إن شاء الله

والسلام من رب العالمين ختام
أخوك
ياسين

* * *

عرجت ليلى على مكتب البريد في طريق عودتها من المدرسة وتسلمت هذه الرسالة، بعد أن ترك ساعي البريد إشعار الاستلام لدى جارتها منال في الدور الأول. حين تسلمت المظروف الأصفر السميك، تنهدت ارتياحا أن الرسالة من أخيها. تحسستها فخمنت أن بداخلها بعض الصور. فكرت أن تقرأها في البيت في هدوء، فالجو حار خانق والطريق مزعج والضجيج مستمر بلا معنى، وهي مرهَقة من يوم عمل طويل وترغب في العودة للبيت بأسرع ما يمكن.

لم تنتظر وصولها إلى البيت، بلهفتها المعتادة فضت المظروف في الميكروباص. كانت هناك رسالة وبضعة أوراق باللغة الألمانية عليها أختام، أعادتها للمظروف وسحبت مجموعة الصور تتأملها بفرح أمومي، وهي تبحث في ملامح الطفل عبد الله عن ملامح ياسين أخيها الأكبر أو حتى عن أشباه له في العائلة.

سرحت مع الصور طويلا. ثم أخرجت الرسالة لتقرأها، لكنها وجدت أن جارها في الميكروباص يشبّ برأسه بفضول وقح يريد أن يقرأ معها. أحست به حين كانت تتأمل الصور. قرأت الرسالة على عجل وهي تخفيها بمواربة عن عين هذا المتطفل. ثم أعادت كل شيء للمظروف وهي تتأمل أربعة طوابع كبيرة الحجم تشكل في مجموعها منظرا بديعا لقصر الشونبرون الرائع في فيينا. سرحت بذهنها إلى ذكريات رحلتها الأولى لهذه المدينة الساحرة! حتى أعادها جارها من فيينا إلى الميكروباص، كان يتزحزح ليلصق فخذه بفخذها. نظرت إليه فأشاح بوجهه عبر الزجاج بسماجة غبية، فاضطرت لوضع حقيبتها بينهما.

* *

قبل ما يقرب من ثلاث سنوات سافرت العائلة كلها إلى فيينا، هي وزوجها فاروق وابنها حاتم وابنتها رانيا في زيارة لمدة أسبوعين، لكن حاتم أصيب بتسمم من أكلة تونة في اليوم الرابع في أحد المطاعم. خضع بعدها لعلاج طال لأيام واستهلك بقية أيام الزيارة، وعندما شفي عادوا إلى مصر. لكنها تتذكر تماما يوم زيارتهم لهذا القصر مع آدم سراج الدين

الذي كان موسوعة في شرحه المستفيض الواضح لزمن القياصرة ولغرف القصر وتاريخه وحديقته الكبيرة والمائة ألف وردة التي تُزرع كل عام في بهوه الواسع.

كان آدم يختار بلباقة المعلومات البسيطة الواضحة لترجمها ليلى للعائلة. أشعرها وقتها بثقة لم تتوقعها أو تتخيلها. صارت ممتنة له؛ خاصة وهو يتوقف عن الحديث عندما يتكلم حاتم أو رانيا لينتبه لسؤالهما، على عكس ما يفعل فاروق أبوهما أو تفعل هي أيضا في أغلب الأحيان. تتذكر جيدا أنه علمها الدرس الأول في كيفية الإنصات للطفل، وأنه يومئذ أصر على دعوة الجميع لأقدم حديقة حيوان في أوروبا داخل القصر الكبير، من أجل حاتم ورانيا!

دعاهم يومئذ إلى "جلوريت"، المقهى البعيد في الطرف العالي من ساحة القصر الذي كان يجلس فيه القيصر وقت الأصيل لتناول القهوة. لن تنسى ليلى روعة المكان والمنظر وهدوء آدم وطريقته وهو يكمل شرحه وردوده على كل الاستفسارات، بينما فاروق مهتم بالسؤال عن أسعار كل شيء ومقارنتها بالأسعار في مصر، مستغربا من قدرة الناس على العيش في هذا الغلاء! لم تنس ليلى مذاق القهوة وقطعة الجاتوه "صاخر تورته" اللذيذة الممزوجة بحديث واثق وصوت مميز من آدم سراج الدين.

نسيت ليلى وجودها داخل الميكروباص وهي منسجمة مع متعة الذكريات. لسنوات شعرت أنها بعيدة وقريبة في آن، حدقت في طابع البريد وكأنها دخلت فيه بسحر، واستطاعت بسهولةٍ أن تستعيد تفاصيل

أيام فاتنة وتتسلل عائدة إلى القصر. استغربت أنها تعرف لون عيني آدم بوضوح تام. شعرت بالتباس حين أرادت أن تتذكر لون عيني فاروق. التبس الأمر عليها وتشوَّش تفكيرها. أصابها عبوس مفاجئ بينما السائق ينادي على اسم المحطة التالية.

قفزت ليلى سريعا من الميكروباص. كانت في سرحانها قد ابتعدت حوالي خمس محطات على الأقل عن محطة نزولها. لكنها ابتسمت بانتشاء أنها عاشت لحظات في عالم آخر رغم انحشارها في الميكروباص ورغم فضول بعض ركابه.

* * *

الحر الشديد جعلها تركن إلى مقهى يجلس فيه رجال ونساء وشباب وشابات. أرادت أن تقرأ الرسالة مرة أخرى في هدوء وتطلع على بقية المحتويات. طلبت عصير ليمون وتمنت لو أنها استطاعت تدخين سيجارة في هذا المكان، لكنها تتوقع رد فعل الموجودين إذا تجرأت. تنازلت عن الفكرة واستبدلت التدخين بقطعة لبان، ثم فتحت المظروف. أعادت المرور على الصور بسرعة وقرأت الرسالة، فصدرت منها ضحكة مسموعة. لم تنظر لأحد من المحيطين حتى تَئد بنفسها فضيحة ضحكتها.

ما أضحكها هو أسلوب رسالة أخيها. لقد تغيرت لغته. صار ياسين آخر. لم تعد له الشخصية المتمردة التي قاتل من أُجلها في مصر، وسافر إلى دولة في شمال الكرة الأرضية ليعيش فيها بحرية. هذا الشاب الذي كانت له معارك مضنيه مع والدنا بسبب قمصانه الضيقة وبنطلوناته الشارلستون

وشعره الطويل وسوالفه الممتدة. ياسين الذي لم يكن يذهب أبدا للمسجد لا في رمضان ولا في عيد ولا حتى في يوم جمعة، من كان يسخر من الشيوخ ويكره طريقة حديثهم ووعظهم، وكان يردد دوما:

"إذا بدأت نبرة الموعظة تظهر فاعلم أن الناطق بها قد بدأ في الكذب!"

"ماذا حدث لك؟ ما كل هذا التغيير والورع يا شيخ ياسين!"

قالت في سرها وهي تتعجب من تحوله للنقيض في بلد جديد بعيد لن يحاسبه على حريته، بينما كان يتمرد في بلد كان يحصي عليه أنفاسه! ثم تساءلت مجددا:

"رسالة تبدأ بذكر الله وتنتهي بالدعاء كرسائل الناس العاديين كما كان يقول. ليس فيها لا نقطة ولا فاصلة، وما كل هذه الأخطاء الإملائية والنحوية في رسالة واحدة؟ لقد كنت توبخني على أخطائي الصغيرة حتى لم أعد أستطيع القراءة أمامك أبدا!"

جاءها عصير الليمون، شربت نصف الكوب دفعة واحدة. طعم الليمون وأسلوب الرسالة الورع أعادا إليها ذاكرتها كأنها قلبت صفحة كتاب؛ أيام بعيدة وغائرة لكنها تبرز الآن في وقتها المناسب بكل نصاعة.

استعرضت شخصية ياسين، لم يمنعه تحرره الذي ارتضاه لنفسه من محاربتها في ما تحبه، كأنه يخلع شخصيته المتمردة التي يتمتع بها على عتباتها ويكون شخصا آخر، تذكر تماما يوم أن دخل إليها بهدوء فلم

تشعر به ككل مرة، لأن أمها لسوء حظها أسقطت قطرات من الزيت في مفاصل باب الشقة كي يتوقف صريره. تقوم عادة بهذا الفعل كل حين، لأن أصوات الأبواب تقلقها في نومها، لكنها لم تعرف أن أمها أيضا أوقفت بذلك علامة الإنذار التي تنبهها لوصول أحد إلى الشقة. دخل ياسين غرفتها فجأة، في الوقت الذي كانت فيه منكوشة الشعر، تربط شال أمها حول خصرها بعقدة على جانب جسمها الأيسر. ذراعاها تتماوجان في رشاقة، وساقاها منفرجتان وجسمها يهتز مع النغمات ويصل إلى حد الجنون، كانت منهمكة تماما في الرقص، الهواية الأحب إلى نفسها آنذاك، وتجد في حركاتها تماهيا تاما مع الوجود، تختار شريط كاسيت لموسيقاها المفضلة، التي تساعد عضلات جسمها على الانسجام مع النغمات. كان الرقص على موسيقى مقدمة أغنية ألف ليلة وليلة لأم كلثوم، كافيا لأن تقضي بقية اليوم مسترخية، متمتعة بسلام نفسي نادر، وكأنها نفضت عنها هواجسها المقلقة مع كل حركة.

قصة ليلى مع الرقص لم تكن جديدة على ياسين، عندما اكتشفت أمها موهبتها في الرقص كانت في الصف السادس الابتدائي، لم يكن صدرها نهض من مكمنه بعد، و لم تبرز لها مؤخرة، مع ذلك كانت تجيد تطويع جسمها بما يتلاءم مع تواتر النغمات، في هذه المرحلة، وفي الصباحات العديدة التي زخرت بها الإجازات، كانت أمها تقف لتتأملها مندهشة من موهبتها العجيبة، فرحة ومنبهرة بها وتخشى عليها في آن. مها أختها كانت تطبل على سطح الترابيزة المتوسطة الصالة، والتي يتناولون عليها الطعام، بعد أن تزيح المفرش الكروشيه جانبا. بينما كان ياسين ينضم في

هذه الأوقات إليهم دون أن يشي مظهره بتحول سيحدث بعد سنوات، بل كان أحيانا ينضم إلى أخته، يخلع العصا من المقشة، ويدخل مندمجا راقصا ببراعة في الدائرة التي ترسمها ليلى لنفسها، كأنها حدود، أو مجال غير مرئي لأحد آخر غير عيون حواسها. تنسى الأم نفسها وأعمالها المنزلية وتنجذب لهذا الفريق السعيد وقلبها يرقص معهم فرحا.

ليلى لا تذكر متى بدأ ياسين يُضيّق عليها الخناق. بدأ بالكف عن الانضمام إلى جمعهم ثم بدأ انتقاده، لكن أمه لم تلتفت في هذه الأثناء إلى تذمره، مما جعل حفلات الرقص الصباحية تستمر حتى انتهاء ليلى من المرحلة الإعدادية، لكن وربما لأسباب عديدة منها جدية ووسامة الرجولة التي بدا عليها في مرحلة لاحقة، ونفوره التدريجي من هذا النوع من البهجة، هو ما جعل الأم تنهي متعتها بهذه الأوقات وتتناساها، مكتفية باجترارها كذكريات ماجنة، ثم انحازت تماما فيما بعد لياسين في رفضه النهائي لرقص ليلى دون تبريرات.

عندما دخل ياسين كانت ليلى في ذروة الانتشاء، تنفض بحركاتها ولفاتها حول نفسها كل ما من شأنه أن يضايقها، تسمرت فجأة محملقة في أخيها، وهو يكبت غيظا يكاد يفتك به، اتصلت نظرتهما وامتدت، توقعت أنه سيزجرها بصوته ويخرج كالعادة، لكنه طوّر غضبه بما لم تتوقعه هذه المرة، امتدت يده عليها للمرة الأولى؛ صفعها بشدة، ونزع سلك التسجيل فصمت فجأة، ثم خرج من الغرفة، وصفَقَ الباب خلفه.

* * *

شعرت ليلى بسكينة تسري كالنسغ في عروقها بعد أن شربت عصير الليمون. نظرت إلى ساعتها فوجدت أن الوقت يسمح لها بالبقاء لنصف ساعة أخرى. اجتاحها ارتياح غامض خمنت أن مصدره يكمن في الرسالة، فطلبت كوبا آخر من عصير الليمون. تنبهت أن جسدها منذ أن جلست قد بقي في وضع استعداد وقلق غير مريحين، يحثانها على الوقوف والإسراع بالعودة إلى البيت دون سبب مقنع؛ فزوجها اليوم ذاهب للفرجة على مباراة – يعتبرها مصيرية كما يقول – في استاد القاهرة بين الأهلي والزمالك واصطحب معه حاتم الذي يحاول أن يربيه ليكون نسخة منه. رانيا عند خالتها منذ ثلاثة أيام بعد أن أغلقوا مدرستها عقب تصدع في بعض المباني والفصول، حتى يأتي الخبير لمعاينة المدرسة والسماح بعودة الدراسة مرة أخرى؛ إذن لا داعي لهذا الاستنفار المزمن في كل تأخير، هذا الإحساس المقلق لتلميذة تأخرت في العودة من المدرسة أو من عند صديقتها.

أعادت جسدها تدريجيا من حالة الاستنفار إلى ارتياح في الجلوس والبال. مرت نسمة نادرة في هذا الجو الخانق تهادت معها ريشة وسقطت على مائدتها. أمسكت الريشة تتأملها، واستسلمت لخواطر تتنزّل عليها مثلما تهادت هذه الريشة. قدَر ما مبهم يرتب أحداثا لا حول لها فيها ولا قوة. أحداث تجر الذهن نحو أفكار بعينها؛ نحو مكان بعينه؛ وربما نحو شخص بعينه، فقبل سنوات حين كانت في فيينا، دخل حاتم عليها المقهى يطير من السعادة بعد أن اقتني مجموعة من ريشات الطيور النادرة مثبته بشكل جميل على خلفية من الورق المقوى، كتب تحتها أسماء هذه

الطيور. يومها جرى حاتم من حضنها - بعد أن تفرجت معه عليها - إلى آدم الذي ترجم له معظم أسماء الطيور من الألمانية إلى العربية وأماكن تواجدها في القارات، لكنه اعتذر أن معلوماته عن الطيور ضعيفة لكن لديه موسوعة مصورة لطيور العالم كلها، سيحملها معه في مرة قادمة ليشرح له التفاصيل التي يريدها. تعجبت ليلى من سكون وفرحة حاتم في حضن آدم وهو يكلمه كأنه يتحادث مع شخص كبير دون أن يخفي حنينه كأب. لم تر من فاروق تعاملا مشابها مع حاتم. يسرق منه طفولته بحجة أنه رجل. هذا المنظر هز قلبها و لم يذهب عن بالها أبدا.

الريشة أعادتها لتلك اللحظة الموشومة في الذاكرة. استعادت تفاصيل اللحظة بانشراح وامتنان. قبّلت الريشة وفتحت حقيبتها ووضعتها داخل دفتر التليفون الصغير بعناية. وقالت:

"هذا فأل خير!"

في حسها الداخلي لمع فرح ما من مكان بعيد وزمان أبعد، رغبت أن تسبر أغواره بصدق، فمصدره لم يكن حتما هذا الفرح بالطفل الجديد عبد الله، ولا بتوقع زيارة أخيها ياسين الذي لم تره منذ زيارته الأخيرة قبل عامين وبضعة أشهر، بل السبب الذي يجعلها متخففة هكذا هو فعلا فكرة العودة مرة أخرى إلى فيينا؛ العودة إلى مكان شعرت فيه بطيف سكينة! مكان يشبه روحها.

فيينا؛ هذه المدينة التي هزت مشاعرها وسحرتها. تذكرتها مرات وحاولت ألف مرة أن تتجنب بعض تفاصيلها أو تمحوها من ذاكرتها،

دون جدوى، بل اكتشفت أنها كانت تستدعيها لتهرب – عبر ذكرياتها القليلة النادرة فيها – من حالات الكآبة وما أكثرها في حياتها.

في استعاداتها المتكررة لأحداث فيينا، لم تقدر أن تفصل روح المدينة العتيقة بعمارتها المميزة وعبق تراثها وهدوء أهلها عن صورة آدم، هذا الشخص العجيب الذي أثر فيها بعصف أسئلته المباغتة وأفكاره العميقة وذوقه المختلف. لم تكتشف في آدم ما يؤكد قناعاتها عن نمطية الرجال وأنهم كلهم في النهاية رجل واحد منسوخ إلى ملايين. لم يمهلها فيضان أسئلته وقتذاك لتسأله: "هل هي عادته أن يلقي أسئلته الحائرة –كما قال– على كل من يلتقيه فيحيره، أم وجد فيما ينبعث منها من موجات أثناء بقائه قربها ما جعل غريزة الفضول تنشط لديه دون سابق إنذار. هز هذا الإحساس المخالف من مسلماتها وأعاد إليها صفحة من الطمأنينة والأمنيات.

في ملل حياتها الطويل تمنت أن تلتقي بشخصية مثل آدم. سئمَتْ حياتها الرتيبة دون مبالاة من فاروق زوجها الذي تستغرب كيف وافقت على الزواج منه بهذه السرعة، ولم تعترض على قرار أخيها ياسين قبل ست عشرة سنة، ليكون فاروق رفيق حياتها. هي لا تكرهه ولا تحبه. إحساس مؤلم أن تعيش دون أن يكون للأيام مذاق مميز؛ تتشابه الأيام معها كأنها تعيش نسخة مكررة من يوم واحد بلا طعم وبلا روح، ولا أمل في أضعف الأمنيات التي قد تقود إلى نوع من التغيير ولو حتى إلى الأسوأ! أما أن تستمر مع شريك دائم في حالة حياد عاطفي وفكري،

فستؤدي هذه الحالة مع الوقت إلى كارثة الخواء الروحي. كل ما خرجت به من دراستها لشخصية فاروق طوال الفترة السابقة أنها حفظت عاداته جيدا، متى ينام ومتى يوقظه صياح ديكه الداخلي، ومتى يكذب ودوافع اتهامه للآخرين بالنفعية دون استثناء، وحالته عندما يستغرق في تنظيف أنفه بإدخال إصبعه بالتناوب في منخاريه أو التجشؤ بفجاجة أثناء تناول الطعام. يفكر في نفسه أكثر من تفكيره في الآخرين، ويبالغ في الاهتمام بمظهره أمام الناس ويترك لها أسوأ مناظره في البيت. رجل لا يعرف أن التجمل للمرأة من دواعي سرورها وغبطة قلبها، وأن التودد لها يشحن نفسها وروحها بالقبول على الحياة. فشلت ليلى في إرضائه وفي إراحة بالها برضاه. تغبش في ذهنها مغزى الزواج، وتنبهت لفداحة الارتباط المتعجل في مؤسسة الزواج وفي التزام البقاء المؤبد دون محبة. لم ينتبه مرة إلى زينتها وملبسها، بل لم يلتفت إن أطالت شعرها أو قصرته. لا يثني على طعام أو شراب جهزته ولا حتى عطر فاح من مشارفها. كل شيء يسير بشكل روتيني قصير الأجل، حتى حين يمدحها الضيوف لمائدتها اللذيذة العامرة، يزداد فخره كأنهم يتحدثون عن مطعم يمتلكه.

* *

باغتتها فجأة حالة استنفار، ذاك الإحساس المقلق وفكرة العودة إلى البيت. تغير حال المقهى إلى ضجيج لأن المباراة كانت على وشك البدء، دفعت حسابها سريعا وحين تأخر عليها النادل، لم تنتظر بقية الحساب وانصرفت. بدا الشارع شبه خال من الناس. رفعت يدها فوقف التاكسي

تحت يدها المرفوعة قبل أن تنزلها، ذكّرها الحال بالأفلام القديمة، حين كان الشخص يغادر بيته وينادي: "تاكسي!" فيقف أمامه التاكسي في ثوان كأنه خرج من قمقم. فرحت بأنها ستكون في البيت بضع ساعات وحدها. تتوق لهذه الوحدة التي نادرا ما تتوافر لها.

الطريق كان هادئا إلا من صيحات استحسان أو استنكار من المقاهي المنتشرة على الأرصفة. السائق أوقف شريط القرآن وحوّل مؤشر الراديو ليستمع لوصف المباراة وعينه على الناس بانتظار زبائن آخرين يتلقفهم في الطريق.

وصلت للبيت، اتجهت فورا لتأخذ حماما ساخنا تهرب به من أفكارها المشوشة، أو بالأصح لتغسل عنها كل هذه الأفكار التي تراودها منذ أن فتحت المظروف: هل تسافر؛ هل تبقى؛ وهل تسافر مع العائلة أم وحدها كما ذكر أخوها؟ في حقيقة الأمر كانت ترغب في أن تصفي أفكارها من شوائب الطريق واليوم والسأم، وتستسلم لحلم يقظة آخر هي في أشد الحاجة إليه الآن.

حين انزلقت بخفة إلى ماء البانيو الساخن شعرت بارتياح وانسجام. كان الراديو الصغير في الحمام يبث بعض الأغنيات. قديما كانت الأغنيات تشكل لها مجرد حاجز رومانسي ضد ضجيج الخارج، منذ زمن ليس قصيرا تعودت على وضع الراديو هكذا، حتى أنها لا تغلقه أثناء وجودها بالخارج، إن لم يطربها انتشر شدوه في الأركان أثناء غيابها، علّ روح المكان تستكين أو على الأقل يطرد شبح الكآبة الجاثم في البيت. مر موجز

الأنباء دون أن تنتبه له، بعده جاءت أغنية أم كلثوم (عودت عيني على رؤياك) انسجمت مع الأغنية التي لم تسمعها من زمن طويل:

زرعت في ظل ودادي غصن الأمل وانت رويته
وكل شيء في الدنيا دي وافق هواه أنا حبيته

هذه الأغنية بالذات تعيدها إلى طفولة بعيدة، بل تتذكر صيفا بعينه أرسلتها أمها لتحضر "عيش محمَّص من فرن حَنّا. كان بعيدا والطريق هادئ والعربات قليلة والأغنية تنبعث كشعاع من نور من المحال والبيوت عبر إذاعة أم كلثوم. طوال الطريق كانت هذه الأغنية تصاحبها كلما عبرت على دكان سمعت المقاطع تتكرر إلى أن وصلت حتى فرن حَنّا. كانت الأغنية تصدر من راديو بعيد من داخل المخبز رغم الضجيج. كانت في العاشرة، وقفت في الزحام. وقف جوارها صبي له رائحة صابون معطر، جنبه في جنبها ملتصقا بها من شدة الزحام ويحاول بصوته المسرسع لفت نظر البائع ليأخذ منه النقود، هي تصرخ مثله. كان البائع يوزع الخبز على الكبار ويختار من الصغار من يعرف أهاليهم. التصاقها الجانبي بهذا الصبي النظيف أسرى فيها رعشة خفيفة جديدة عليها تماما. رعشة داخل جذع جسمها سرت كموجة هادئة حتى انتهت من الأطراف. ابتعدت عنه لكنه بسبب الزحام عاد والتصق بها جانبيا دون قصد. رائحته ودفء جسمه أثارا فيها شعورا لذيذا لم تفهمه. لم تعد تنادي مثله على العيش. صارت تتأمله بخفر ووجهه قريب جدا منها حتى لا تكاد ترى ملامحه من هذه المسافة. كانت تمد يدها بلا صوت. حين استلم الصبي الخبز، وقبل

أن يستدير، تنبه إلى أنها لم تأخذ خبزها. أعطاها خبزه لتحمله وتقف بعيدا وسألها بكم تريد. أمسك النقود منها وعاد يسرسع بصوت أقوى حتى حصل لها على خبزها. هذه البطولة الصغيرة التي قام بها شادي – وهذا اسمه – جعلتها تشعر بامتنان لن تنساه. مشيا معا لمسافة طويلة تجاه بيتها، ترددت في أن تسأله عن محل سكنه، واكتفت بتأمله والاقتراب منه واستنشاق رائحته بعمق. رافقها حتى بيتها البعيد، ثم قال لها إن عليه أن يعود فهو يسكن في درب الشمس، خلف الفرن. حكى لها عن هوايته في جمع الطوابع. وصف لها مكان بيته فأوهمته أنها تعرف المكان. عاد وهو يلوح لها. ظلت تنظر له ورائحته العاطرة لا تفارق أنفها رغم ابتعاده. في تلك الليلة حلمت به.

ظلت لأيام تتمنى قدومه بألبوم الطوابع. تمنت أن تقول لأهلها إنه صديقها الذي تعرفت عليه في الفرن، وتخبر أخاها أنه وسيم ورائحته عاطرة وأنه اشترى الخبز لها بنفسه وأنها تريد أن تتزوجه في المستقبل. صارت تشم الصابون الموجود في البيت بحثا عن رائحته. سألت أمها مرة عن أنواع الصابون المعطر، فاستغربت الأم من مغزى هذا السؤال. منذ ذاك الوقت وصارت ليلى كل ليلة تستحضر رائحة عطر الصابون. تحلم بشادي أحلاما وردية وتتذكر أولى دغدغات روحها عند الفرن، ولا تفهم معنى أن تسخن وجنتاها هكذا حين تتذكر هذه اللحظات.

تتذكر هذه الأحداث الصغيرة كحفنة من الرمل، كلما أوغلت في التجربة وأضيفت الأعوام إلى عمرها ازدادت، حتى أصبحت خبرتها

كجبل رابض، وكلما داهمتها الليالي القابضة تتساءل:

"هل تصل النساء جميعا إلى النتيجة نفسها التي وصلت إليها أنا في النهاية؟ وإذا وصلن إلى ما وصلت إليه: كيف يواصلن الحياة مستمتعات؟ أم يخدعن أنفسهن؟ أم ترى أن جميع النساء مثلها مجرد جسد فارقته روحه؟"

وهي في الثانية عشرة جاءها الحيض للمرة الأولى، كانت يومئذ في حصة التاريخ. شعرت أولا بمغص يكاد يفتك بالمنطقة أسفل سرتها، ثم بشيء ساخن يتسرب منها، هلعت ولم تعرف ماذا تفعل، خشيت أن تكون قد فقدت سيطرتها على نفسها وأنها تتبول بلا إرادة. رفعت يدها للمعلمة تستأذنها أن تخرج للحمام، لكن المعلمة وبختها، وقالت إنها تتهرب من الدرس وصارت تنهال عليها بكل الأسئلة، عليها فقط، وهي لا تعرف ماذا يحدث لجسدها، ولماذا هذا الكابوس، ولماذا تحولت المدرّسة إلى ما يشبه الشيطان أمامها. بعد الحصة دخلت مُدرّسة أخرى استلمت من الأولى، ولما طلبت باستعطاف مذلول من المدرسة التالية أن تذهب للحمام، لم تسمح لها أيضا. ظلت جالسة مكانها يتسرب منها شيء ساخن، يبرد تحتها، وهي في قمة الخجل والانزعاج والحيرة. انتهت الحصة. جرى الجميع، بقيت هي لوقت طويل متخشبة في دكتها. رفعت مريلتها فوجدت بقعة دم صغيرة بقّعت سروالها الأبيض ونشعت على المريلة من الخلف. ذهبت لحمام المدرسة متخفية عن عيون أي أحد، حين دخلت انهارت في بكاء ونشيج مؤلم. خلعت سروالها وبدأت تغسله من

صنبور الماء البارد وهي تنتحب، ثم خلعت المريلة وظلت لوقت طويل تحاول إزالة البقعة بماء بارد ودموع حارة. لبست سروالها وخرجت وهي تشعر بقشعريرة.

أحست أنه أطول زمن في تاريخها استغرقته في العودة إلى البيت، رغم أن أحدا ربما لم يشعر بها، إلا أنه تهيأ لها أن كل من يمر بها ينظر لمريلتها ويكاد يكتم تهكما ما.

في البيت أرادت أن تتخفف من أحمالها، تمنت حضنا يلملم ما تناثر من روحها، سمعت عن العادة الشهرية، وعن الدم المتدفق دافئا بين الفخذين، لكنها لم تعرف السبب، و لم يشرح لها أحد ما قد يعينها إن حدث الأمر معها. أمها لم تخفض صوتها وهي تحكي لجارتهم عن هذا الحدث الذي لا يستثني بنتا، لكن رعبا أصابها بسبب تناقض المعلومات، رعب جعلها تصدق أمها عندما أخبرتها:

> **"لابد أنك كذبت عليَّ في شيء ولم تقولي الحقيقة، وهذا عقاب ربنا، وكلما كذبت سينزف دمك حتى تجفّي وتصيري مثل أم نوال المسلولة!"**

وأم نوال هي جارتهم العجوز المصابة بالسل. تسير بوهن وبانحناءة جانبية ولها سعال غريب الصوت يقبض النفس.

هكذا تربت ليلى منذ ذلك التاريخ على أن أي كذبة هي السبب فيما سيصيبها من نزيف كل شهر، نزيف يمتص حياتها ويسحبها تدريجيا للموت. لكنها كانت تستغرب، كيف يكذب أخوها كل هذا الكذب

البيّن – الذي تعرفه – و لم يُصبْهُ يوما ما أصابها. كانت تذهب مرات إلى "سَبَتْ" الغسيل، بعد كل كذبة تكتشفها له، تريد أن ترى مرة سرواله ملوثا بالدم مثلها، لتستريح من خلال هذه المؤازرة الضمنية الأخوية!

وصلت لحالة نشيج من البكاء المكتوم وهي تستدعي هذه الأحداث. انتبهت إلى أن ماء البانيو قد برد، مستعيدا إحساسها يوم أن برد عليها سروالها المبلول والذي مرضت بعده بالتهاب مثانتها. فتحت صنبور الماء الساخن فشعرت بارتياح وانتقال مؤقت لدفء من نوع آخر، يأتيها مع وصول صوتِ أمّ كلثوم البديع يكرر المقطع الذي يقول:

قربك نعيم الروح والعين — ونظْرِتك سحر وإلهام
وبسمتك فرحة قلبين — عايشين على الأمل البَسّام

تذكرت هذه الأيام البعيدة: الفرن ودغدغة روحها الأولى وشادي ورائحة الصابون، لكنها تأملت كلمات الأغنية من جديد. فابتسمت ابتسامة عريضة:

"تُرَى.. أين أنت الآن يا آدم؟ يجب أن أعود إلى فيينا. لابد أن أوافق على السفر!"

هكذا قالت في سرها.

* * *

خرجت ليلى من الحمام منتعشة، لكنها بقيت مشوشة فكريا؛ فذكرياتها تتداعى دائما بفوضوية حين تكون وحيدة. لا تستطيع أن

تتحكم في مسارها. تستسلم كل مرة على أمل أن فتح الباب لبعض الذكريات قد يسهم في التخلص من الموجع فيها، وأنها قد تتمكن من الإمساك بالأبهى منها والإبقاء عليه، لكنها تفشل دائما، ويبرهن لها الزمن أن الذكرى السيئة ما زالت قادرة على طرد الذكرى الطيبة من الذهن أو على الأقل تشويهها.

الأغنية نفسها التي ذكّرتها بالزمن الجميل نغصت عليها بذكرى أخرى أليمة، اعتقدت أنها تجنبتها وهي في البانيو وأزاحتها لمكان بعيد. أغنية أم كلثوم نفسها التي كانت تملأ الشوارع والحارات والبيوت وتخرج من كل نافذة وباب في هذا اليوم البعيد. تتذكر الآن ذاك اليوم الخريفي الذي عادت فيه من المدرسة، كانت في الثالثة عشرة، وفي أسبوعها الأول في المدرسة الإعدادية، سعيدة بمريلتها الزرقاء الجديدة وبلوزتها البيضاء وضفيرتها السميكة السوداء ذات الشرائط الحمراء، كانت تردد كلمات الأغنية بشكل خاطئ لكنها سعيدة ومنسجمة باللحن، كان الشيخ عزوز جالسا أمام بقالته والراديو يلعلع بالأغنية نفسها لأم كلثوم، متربعا على مقعدة الواطئ يتأمل المارة ويقوم لتلبية احتياجات المشترين ببطء ولامبالاة. ينشط دوما بمجرد سماع الأذان، يقوم بطقوس الوضوء باستعراض يعرفه أهل الشارع. يصب من إبريقه على كفيه وقدميه أمام المحل متمتما بأصوات عالية يعقبها تمخضات وبصق، ليذهب بعدها إلى الزاوية القريبة تحت إحدى العمارات الحديثة لأداء الصلاة، ثم يعود بعدها ليفر مسبحته مغمضا عينيه عائشا داخل أوراده في عالم آخر. نعته الناس بـ"الراجل البركة". حتى أبوها وأمها يبجلانه باستمرار بالصفة

نفسها ولا تسمع منهما اسمه إلا بهذه الصورة.

هذه الصورة التي رسمها لنفسه في عقول الجميع جعلتها تتردد في إخبار أحد بما فعله معها ذات ظهيرة، فمن ذا الذي سيصدقها! هي لم تفهم وقتذاك أسباب تلك الأنفاس الساخنة والارتباك الذي شمل حركته، فبدا كما لو كان شخصية مذعورة تهرب من أسد داخل فيلم كرتوني. حدث كل شيء بعد أن عرجت على دكانه لتشتري "فُنْضام"، الحلوى التي تعشقها. سألت الشيخ إن كان عنده "فُنْضام"، فأكمل أوراده وهو يربش لها بعينيه بما معناه: "نعم وقفت خلف الفترينة تشب بحثا عنه. قام ودخل المحل وطلب منها أن تدخل لتساعده، ووضع لها سلما قديما مربوطا بدوبارة. دخلت وصعدت وهو يدّعي أنه يسند لها السلم حتى لا تقع. سندها في الصعود وأوحى لها أن الحلوى هناك، كلما صعدت درجة أشار إلى رف أعلى، لكنها لم تجد شيئا، داهمها إحساس غريب لم تعرف ما هو توجست، أحست بغرابة نظرته، ثم شعرت بأن إصبعه الغليظ ينغرز في فلق مؤخرتها بالتحديد. نزلت من السلم مهرولة بينما كان يقترب منها ويزنقها في الحائط وسط المعلبات والجوالات، ويده تسحب يدها الصغيرة لتتحسس قضيبه، الذي كان في هذه اللحظة يتورم من تحت جلبابه بشكل غير مفهوم لها، بينما يده الأخرى تعصر صدرها وتفرك حلمتها. قبل أن يسحبها بقبضته الغليظة من رقبتها ليقرب وجهها من الكائن العابث في الظلام، أفلتت وعبرت كعادتها من تحت "البنك" وخرجت إلى الشارع، محاولة استنشاق أكبر قدر من الهواء تنسى به رائحة كريهة تزكم الأنف تشبه رائحة الغراء.

اختلط في ذهنها ما حدث لها مع شادي قبل عامين من هذا التاريخ. اختلطت رائحة الصابون مع رائحة غراء كريهة، وذكرى دغدغة التلامس الطفولي مع الإصبع الغليظ المنغرس في مؤخرتها؛ ملامح شادي وملامح الشيخ عزوز؛ إضافة إلى خوفها من التصريح بما حدث لأحد. هل كان عليها أن تخبر ياسين، أو أختها، أم أن ما حدث لها عيب لا يجب أن تصرح به، هل كانت مخطئة لأنها تعشق الحلوى أم لأنها دخلت الدكان أم لأنها وافقت وصعدت السلم، أم لأن الشيخ عزوز وجد في جسمها ما أثار شهيته. هذه الحكاية تحديدا تمددت في وعيها أكثر من حجمها الطبيعي، أعادت إنتاجها عشرات المرات، وساهمت دون قصد في إنضاجها قبل الأوان، لم يكن لها التأثير السلبي كما يقول علم النفس، هذا ما أدركته بعد عشر سنوات من حدوثها، لكنها ساعدتها على أن تضع كل لفتة يقوم بها أي رجل على لوح التشريح، وجعل لقصص التحرش أولوية عند الحكي مع صديقات المدرسة، وأصبحت هوايتها الإنصات للموضوعات الجنسية التي تحكيها البنات للتعرف على هذا العالم، حتى في مبالغاتهن عن قياس قضبان الرجال والأولاد ووضعيتها أسفل الملابس.

"لا بأس!"

قالتها لنفسها – لأن كثيرا من الوقائع التي مرت تحت بصرها أوصلتها إلى حقيقة مهمة فيما بعد – إن عقل الإنسان عضو معطل عند الغالبية، وأنها كي تخرج من دائرة الناس العاديين يجب أن تستخدمه، واكتشفت أنها في أوقات الضيق والضجر بالحياة، تغور إلى ذكرى بعيدة تثير فيها

أحاسيس ضاعت منها طويلا: البحث عن هذا العقل الذي يشاركها ولو جزءا يسيرا من أفكارها المهملة. تنقب عن هذا العصف المباغت اللذيذ الذي يدغدغ الفكر عبر أسئلة تعيد ترميم ما ضاع في رتابة الحياة. لقد سئمت عبر سنوات طويلة سماع الأجوبة السطحية المكررة المتخاذلة المخدرة. تحتاج الآن إلى من يفهم روحها ويرمم ما أصابها من عطب.

لا تدري لماذا أصبحت تربط فيينا منذ أن زارتها، بمكان أقدم في خيالها يطلق جموح التحدي في الحياة؟ يطلق أسئلة بلا هوادة تشكك في كل شيء وتعيد ترميم الأعمدة البالية، أو تدميرها وإنشاء غيرها.

بهذا الإحساس المخدر، أرادت أن تقترب من فيينا عمليا؛ أن تبحث عن السبيل إلى النسيم الذي يخفف من تنهداتها. راحت إلى اللاب توب فتحته وبحثت عن الرحلات المتجهة إلى فيينا. أرادت أن تستعلم عن مواعيد السفر، أن تتخذ خطوة واضحة للشروع في التنفيذ. وجدت رحلة يومية تتجه من القاهرة إلى فيينا بعد الظهر، لفت انتباهها أن الرحلة تحمل رقم 797. تأملت الرقم وأوقفت الشاشة عنده، لا تدري ما السبب الذي جعلها تستريح له، وجدت فيه سحرًا ما يجذبها. كأن هذا الرقم هو مفتاح لباب جنة قريبة قادمة أو بعيدة آتية؛ إلى جنة آدم، رقم سيحملها إليه لتشعر بأمان تفتقده. أراحها أكثر غيبوبتها السريعة مع رقم الرحلة 797. أحست أن الرقم 7 يمثل آدم وأن الرقم 9 يمثلها هي، تهيأ لها رمزا يحوطها به آدم. أراحها هذا، اكتفت به شعورا يغمرها بطمأنينة. نسيت بقية المعلومات التي كانت تبحث عنها.

على المائدة استقر المظروف الأصفر السميك بالصور وأوراق الدعوة إلى فيينا، رفعته لتتأمل الطابع المتلألئ مرة أخرى، الطابع العريض الذي يصور قصر "الشونبرون" قربت الطابع تدريجيا حتى أنفها، كأنها أرادت أن تشم عطر هذه الحديقة - الجنة ذات المائة ألف وردة التي تغطي فناء القصر كل عام، ربما أرادت عبر خيالها أن تمحو برائحة هذه الزهور، ولو للحظات، ذكريات الروائح الكريهة العالقة التي لا تتخلص منها الذاكرة بسهولة!

3

يَا وَيْلِي لَوْ لَيْلِي لاَحَ بِلاَ لَيْلَى فَمَا جَدْوَى الْفُؤَاد وَالْهُيَامُ سَرَابْ

تأمل آدم هذا النص المنسوخ بالخط الثلث البديع على رقعة جلدية عتيقة بيد خطاط متمكن. الحروف بدت باهتة والرقعة متهرئة، كان واضحا أنه قد أُسيءَ حفظها. قدمها إليه مدير المكتبة ذاك الصباح، وقال له إنه حصل عليها من مكتبة "خسرو بك" في البوسنة، التي تحوي الآلاف من المخطوطات القيّمة النادرة بالخط العربي والتي يرجو أن يكفّر بترميمه لها – وإعادتها لهم بعد ذلك – عن سيئات الغزوات النمساوية قبل أربعة قرون، تلك التي أتلفت واستولت على الكثير من المخطوطات قبل أن

تتعرض مجددا للعدوان الصربي على سرايفو في الفترة من 1992 إلى 1995 حيث وُجِّهت فوهات المدافع نحو المكتبة وأحرقت مجددا أكثر من ثلاثة آلاف مخطوطة.

استفسر المدير عن معنى النص. قرأ آدم النص بصوت مسموع ثم ترجمه له. فسأله:

"هل تعتقد أنه بإمكاننا أن نرمم هذه المخطوطة؟"

ابتسم آدم وقال دون أن يفكر كثيرا:

"من أجل ليلى لابد أن ننقذها!"

استغرب المدير:

"ومن تكون ليلى؟"

"هي صاحبة هذه المخطوطة!"

رَدَّ آدم وهو يبتسم تلك الابتسامة الهادئة، و لم يفهم المدير الذي كان متعجلا، فسأله:

"كم من الوقت ستحتاج لترميمها؟"

"ليس أقل من أسبوعين. ستحتاج لتحليل وفك دقيق، وسنحتاج لمواد ليست كلها بحوزتنا الآن."

"اُطلب كل ما تحتاج. سنوفره لك.

خرج المدير مختالا؛ فهو يعلم أن لديه أفضل مرمم عربي في أوروبا كلها.

عاد آدم يتأمل النص بروية، فالخط منسوخ بشكل بديع لا يُضاهَى، لوحة فنية تجذب الأنظار. أحسَّ بانشراح خفي يراوده ويعيده لسنوات قليلة ولّت. أعاد القراءة مرة أخرى بتأنٍ:

يَا وَيْلِي لَوْ لَيْلِي لاَحَ بِلاَ لَيْلَى فَمَا جَدْوَى الْفُؤَاد وَالْهُيَامُ سَرَابْ

انتبه إلى اسم ليلى. قرّب وجهه كثيرا من الاسم الذي بدا باهتا وبقِي لحظات كأن سحرا مسه. تساءل:

"تُرَى كيف حالك يا ليلى الآن؟ وهل سأراك مرة أخرى؟"

سرح بذاكرته عبر المخطوطة المتهرئة راغبا في ترميم مقطع من ذاكرته. تذكر الحوار الطويل الأول مع ليلى قبل سنوات، حين رافقها لُمتحف تاريخ الفنون في فيينا. كانت مفتونة بشكل المتحف ومعماره الداخلي، وظلت تتوقف كثيرا وتدور حول نفسها، تنظر لأعلى وهو ينظر إليها وإلى ما تنظر إليه، ويشرح من تلقاء نفسه ما يلمحه تساؤلا في عينيها. أخذها أولا لقسم المصريات في الدور الأرضي. تعجبت ليلى من كمية المقتنيات من التماثيل والمومياوات المصرية في هذا القسم من المتحف. سألته:

"كيف تم نقل كل هذا إلى هنا؟ ومن سمح بهذا؟"

"هذا حديث يطول، لكن ليس هناك حاكم واحد في مصر احترم تاريخ القدماء كما يليق بهم أو كما يجب، الكل تاجَرَ بالتاريخ

العريق مقابل تاريخ قصير الأجل لا يدوم! كل من حكم تنازل عن بهاء تاريخ يخص كل الناس لمصلحة نخبة من الحمقى!"

لما رأى دهشتها تفيض من وجهها ممزوجة بأسى، تابع:

"لا عليك! فمن يعلم؟ ربما هذا النزيف من الآثار إلى أوروبا رحمة لها من الضياع والإتلاف، فمن أدراك، ربما يأتي يوم يطالبون بتدمير هذه 'الأصنام' ومحو هذا التاريخ من الوجود!"

ضحكت ليلى وقالت:

"فعلا! لا كرامة لصنم في وطنه!"

صعدا بعدها للدور الثاني من المتحف، اختار لها البدء بأهم القاعات من وجهة نظره، وبدأ يشرح لها اللوحات الشهيرة بالتفصيل لوحات "روبنْز و"بروِيْجل" و"بُوش و"فيرمير" وغيرهم من رسامي أهم حقب الفن. كان يتركها تقرأ بنفسها المعلومات الواردة تحت كل لوحة. ثم يضيف أهم ما يتعلق باللوحة من تفاصيل نادرة أو منسية.

يومئذ أرادت عائلة ليلى أن تشاهد متحف التاريخ الطبيعي على الجانب الآخر من ساحة الإمبراطورة ماريا تيريزيا، والذي يحوي أيضا كمية نادرة من الحيوانات والطيور المحنطة ويبين مسار الحياة الطبيعية منذ أول التاريخ، ولمّا كانت ليلى لا تتحمل رؤية هذه الكائنات المحنطة وترى في تحنيطها شططا، اتفقوا على أن يذهب زوجها فاروق مع حاتم ورانيا لمتحف التاريخ الطبيعي، وهي ستذهب مع آدم لمتحف تاريخ الفنون

ويلتقون جميعا في كافيه متحف الفنون الداخلي.

"هل راق لك المتحف ومقتنياته؟"

سألها آدم بعد أن انتهيا من مشاهدة لوحات نادرة في ست صالات كبيرة، فردت:

"متحف تَجاوَز الروعة، لكنه تاريخ ميت!"

تعجب هو من المباغتة:

"هذا صحيح، لكن من التاريخ الميت نستعيد الحياة.

ثم باغتها بسؤال بدا كأنه لا علاقة له بأي حديث:

"ما الأهم بالنسبة لك في حياتك شخصيا: الماضي أم الحاضر أم المستقبل؟"

صمتت ليلى طويلا، حتى تخيل أنها استثقلت سؤاله أو أنه تجاوز بفضوله منطقة شخصية، فدعاها للذهاب إلى كافيه المتحف المستدير الذي ستلتقي فيه العائلة فيما بعد. المقهى هو أيضا قطعة فنية داخل المتحف بتصميمه المعماري البديع. كان الضوء ينساب من طاقات عالية على الأرضية المرمرية ذات الرسومات البديعة بالأسود والأبيض المتناقضة والمنسجمة بإدهاش مثير في آن.

اختار ركنا هادئا وسألها عمّا تشرب، قالت:

"قهوة."

ضحك وقال:

"لا تثيري غضب النادلة النمساوية، فهي ستسألك: أي قهوة تريدين؟ وستسرد عليك أكثر من عشرة أنواع في جملة واحدة لا تستغرق عشر ثوانٍ، ستجعلك من الحرج تطلبين أي نوع احتفظت به ذاكرتك من جملتها وربما يكون آخر ما نطقتْ به!"

"اختر لي أنت!"

أتت النادلة فعابثها بمزحة سريعة بالعامية الفييناوية، لم تفهم منها ليلى شيئا، وطلب قهوة "دوبل اسبريسو   راق لليلى هذا الاختيار؛ فهذه بالفعل قهوتها المفضلة. فجأة ردت قائلة كأنها تقرأ من كتاب:

"الماضي هو الأهم! لا يمكننا أن نتخلص منه، وهو في الغالب ما يحدد المستقبل.

ارتاح وجه آدم لردها المؤجل؛ ومحا فورا فكرة تجاوزه خطا أحمر عندها، فتابع دون مقدمات:

"جميل، لكن هذا تصريح لا يجيب على سؤالي صراحة!"

هزتها مباغتته للمرة الثانية، فهو يسأل بذكاء أو بدهاء ويضرب على وتر حساس بعاصفة من أسئلة مقلقة لا تشغل كثيرين. فكرت في هدنة من الرد بأن ترمي إليه بسؤال:

"ما رأيك أنت: ما الأهم بالنسبة لك في حياتك شخصيا: الماضي أم الحاضر أم المستقبل؟"

"الحاضر طبعا!"

رده أتى واثقا. أحست ليلى أنها أمام شخص مختلف، تفكيره مختلف، حديثه مختلف، وبالتأكيد لديه ماض مختلف. فضولها انتعش، فقررت أن ترمي له بحزمة أسئلة متوالية، قالت:

"كيف يكون الحاضر هو الأهم؟"

"الحاضر وهْم الماضي والمستقبل معا، ومن يعش في الماضي فقط فسينسى حاضره، ومن يعش مربوطا بالمستقبل المجهول فقط فلن يعيش حاضره، سيظل في محطة ترانزيت منتظرا الانتقال إلى وجهة ما، ومهما طال الانتظار فسيكون طوال الوقت مستعدا للمغادرة غير آبه بحاضره الذي يمر. الحاضر هو الأهم!"

هكذا انساب رده جاهزا حاسما. قالت ليلى في سرها:

"تبا لك يا آدم، وما أصدق كلامك! لقد ضربت على الوتر الموجع، أنا فعلا لا أعيش حاضري، فاروق – إضافة لكل ما مر بي قبله – هو الماضي الثقيل الذي أجرجره، وحاتم ورانيا هما المستقبل الذي أدفعه أمامي وأنظر إليه برهبة خوفا ألا يصير كما أتمنى. وأنا الحاضر، نعم أنا الحاضر المائع الراكد. حاولت ألف مرة أن أعيشه لكنه أرهقني وهدّني أكثر مما هداني. كلما أردت أن أعيش حاضري فرارا من ثقل الماضي، وجدت نفسي أنساق إلى حماقات مؤقتة، تتجمع في رصيد الماضي الثقيل وتصب أحمالها

على عتبات المستقبل. أتناسى نفسي ووجودي ولا طاقة لي على التفكير فيهما إلا بما يؤمّن تسيير حياة من هم حولي!"

كأن آدم قد تنبه إلى ارتباكها، لكنه لمح ارتياحا على محياها، أنزل سؤالا صريحا، كأنه يقرأ وجهها:

"هل خنت نفسك من قبل؟"

"الخيانة أمر نسبي والصدق أيضا!"

"نعم لكننا نتعلم من الخيانة أكثر مما نتعلم من الصدق، والصدق ليس عكس الخيانة."

"كيف؟"

"لأن الخيانة تمرين يهز الروح حتى تستقيم وتغفر وتصحح المسار فترتاح، الصدق يثبّت القلب!"

نظرت له طويلا وهي تراجع كلامه في ذهنها وترتبه، لكنه أكمل:

"ألم تفعلي أشياء تمقتينها، لكنك كنت شبه مجبرة عليها؟"

ضحكت ليلى بصوت عال:

"نعم. كثيرا!"

"هذه خيانة للروح، ويسميها البعض بالخطأ: تضحية من أجل الآخرين!"

صمتت ليلى وعادت للنظر في عينيه بعمق، فتابع:

"ألم يتهور قلبك ويتقلب، فسرْت خلفه حتى آخر باب مغلق وعدت منكسرة؛ رجعت ربما بخبرة التجربة، ولكن بانكسار القلب، ألم تجربي هذا؟"

أحست ليلى بأن كلاما هزها من أعماق وجدانها، كلاما على خلاف خواء الحديث مع الآخرين. أحست أن شخصا بدأ يحرك ساكن البحيرة الغافية بداخلها. أحست بأنها تريد أن تنصت للمزيد وأنها تخشى في آنٍ أن يزيد.

وكأنه شعر باضطرابها، وبأن جرعة مشاهدة مقتنيات المتحف وما تلاها من جرعة الغوص في أعماق العقل والقلب والروح قد صارت مكثفة. أراد أن يخفف عنها؛ فغير دفة الأسئلة:

"هل تلعبين الشطرنج؟"

"علمني أخي قواعد اللعبة وأنا صغيرة. ولما أحسنتها، كان يضايقه أنني أفوز عليه، فكان يلجأ للغش ومحاولة تغيير قواعد اللعب لصالحه.

"طيب، تخيلي نفسك تجلسين الآن داخل أحد مربعات الشطرنج. لو سألتك ماذا تختارين أن تكوني من قطع الشطرنج؟ فما ردك؟"

ضحكت ليلى ضحكتها الأخاذة:

"ألا تلاحظ أن لعبة الشطرنج عنصرية؟"

"لماذا؟ كيف؟"

"يحيرني هذا السؤال: لماذا دائما تكون أول حركة للأبيض؟"

ابتسم آدم ابتسامة بطيئة ومد يده لفنجان الإسبريسو و لم يرد. ساد الصمت لحظات لكنها أعادت الحديث لمجراه:

"على كل حال، لو كنت جالسة داخل أحد مربعات الشطرنج، فلن أقبل إلا أن أكون الوزير الذي له حرية الحركة في كل الاتجاهات. لقد لعبت طوال حياتي دور البيدق وتقدمت نادرا ومت كثيرا، وأحيانا مت في موقعي قبل أن أتحرك. اضطررت مرتين أو ثلاثا أن أكون حصانا يقفز للأمام وللخلف دون خطة محكمة، لكنني أيضا كنت أغادر الساحة مبكرا، ولم أحب الفيل لأنه أحادي الحركة!"

أنصت آدم لها بانبهار، ثم سألها:

"وما رأيك في الملك؟"

"بسببه يموت الجميع على الدوام، ويبقى هو. والغريب أنه يعتبر نفسه فائزا، حتى لو تعرّى عن كل شعبه!"

"سأقول لك معلومة ربما تفرح المرأة في داخلك يا ليلى. نحن لا نسميه الوزير هنا في النمسا، بل نقول الملكة!"

"صحيح؟ هذا تغيير منطقي، لعله نابع من الحركات التحررية النسوية!"

"لا أعتقد، والملكة هي الأهم والأقوى في الساحة، خروجها يعجل غالبا بموت الملك!"

"إذن أُفضّل أن أكون ملكة لبعض الوقت. لكن أي قطعة تختار أنت؟"

"رغم أنه ظالم في أغلب الأحيان، لكني لن أكون سوى الملك!"

رد آدم بعفوية كأنه كان يتوقع السؤال.

القهوة كانت ألذ قهوة، وكلام آدم كان وقعه على ليلى مربكا مدهشا ومثيرا. بدا لها شخصا استثنائيا في مكان استثنائي وزمن استثنائي. هذا الشعور يجعلها تتوتر، فكل ساعة تمر معه تكشف عن سلوك رجل يجذبها إليه برفق دون أن يشعر. عادت ترقبه أثناء شرب القهوة والضوء يتسرب من طاقة بعيدة على رأسه، فيجعله مثل ملاك هبط من لوحة من لوحات "روبنز" التي شاهدتها قبل قليل. كان انغماسه في قراءة بعض البيانات من كتالوج في يده فرصة لها لتتأمله بشغف غير محرج وتسمع صوته وهو يعيد إليها زمن مراهقة الأذن الجميل. كانت تصمت كثيرا لتنصت لصوته المخدر والمنبه في آن. نغمة الصوت التي فعلت فيها تغييرا لم تدركه و لم تستطع التهرب منه.

تذكرت في هذه اللحظة أخاها ياسين المقيم في المدينة نفسها؛ في فيينا. اضطرت للمقارنة العفوية، فياسين حين يتكلم لا يترك فرصة للآخر ليعبر عن رأيه، بل كثيرا ما يسأل هو ويرد على سؤاله، والأكثر غرابة هو تحوله إلى النقيض بعد أن انمحت منه تماما فكرة المساواة بين الرجل والمرأة التي تبناها لسنوات ونادى بها في شبابه طويلا، ثم تذكرت فاروق الذي لا يناقشها بأي حال من الأحوال في أي أمر فكري، بل أموره كلها مادية وجافة وفقيرة. ولعه بكرة القدم أفسد معظم الساعات الهنية في البيت. هي قارئة نهمة لا تستطيع أن تناقشه فيما تقرأ، فهو لا يقرأ كتبا، بل الجرائد فقط ويتبنى كثيرا من أفكار الأخبار الطائشة ويتحمس لها في نقاشات كأنه في معارك، أخبار كرة القدم والحوادث والجرائم والإشاعات والفضائح هي فقط ما يتوق إليه. كانت تتمنى أن يستطيع عقلها الزواج من عقله ولو كل حين. هي لم تكن تحب التلفزيون كثيرا بل تعشق الراديو لذا فالإنصات لديها من المقدسات.

أغلب ما يفعله آدم معها – دون أن يدري – لم تتعود عليه، و لم تتوقع أن تجده سلوكا في بشر، تراه في الأفلام فقط. ذلك الرجل الذي يستأذن المرأة حين يقوم ببعض الأعمال لها، دون أن يشعر أن هذا ينتقص من رجولته بل يعبّر عن قدرته وكياسته. لقد قال لها آدم اليوم كلمة: "ما رأيك؟" أكثر من عشرين مرة. ينصت للرأي ويناقش فيه حتى لو كان مخالفا لوجهة نظره. تقارن بين هذا التصرف وبين تصرف فاروق الذي لا يستأذنها في أي شيء، حتى حين يضاجعها يدخل عليها كالثور الهائج، يطرحها في أي مكان ويهرسها ثم يقوم منتشيا أو ينام خائرا. تشعر في كل مرة أنه

يغتصبها أو ينتقم منها، فإذا كان شخصا لا يعرف المداعبة أو التمهيد في أمر يخص الجسد؛ فكيف سيعرف تمهيدا في أمر يخص العقل!

في الوقت نفسه، لدى آدم سطوة مستترة لا يمكن مقاومتها؛ فحين قامت فجأة من مكانها تجاه نادلة المقهى المنشغلة والتي كانت تتحرك في المكان مثل نحلة. لم تنتبه النادلة لها وابتعدت، فتوقفت ليلى حائرة. قام آدم إليها يسألها عما حدث. قالت:

"لا شيء، كنت أسأل عن دورة المياه!"

"ولم لا تسأليني قبل أن تقومي؟"

رد عليها بحزم غاضب. صمتت، فتابع بصوت حاسم:

"أكلمك! لم لا تردين؟"

الجملة الآمرة والسؤال الغاضب أشعراها بحرج ونظرته مصوبة إليها في عينيها بطريقة لم تستطع أن تجابهها. أصابها إحساس مربك ومفرح في آن. ردت عليه معتذرة وهو يشير بيده إلى الاتجاه الآخر محل دورات المياه.

انتقلت في خطوات مرتبكة نحو دورة المياه. تأملت وجهها في المرآة، حمرة لا تشبه الخجل تطغى على ملامحها. حالة ارتياح دفين من طريقة حزمه وأمره، لم تكن تتخيل أن توافق هواها. شيء غير مفهوم فيه سطوة تستشعرها وتتمناها منه. يروق لها هذا النوع من الحسم والحزم، يوافق ماء ساكنا فيها. حسم العارف، لا حزم الجاهل والممتطي رجولة

زائفة. استغربت من اكتشافها هذا الشعور الدفين فيها، خرجت إليه أكثر تألقا.

بادرته بسؤال عن طبيعة عمله كمرمم. معلوماتها عن ترميم الكتب تنحصر في تجليدها وإعادتها لشكل أكثر بهاء، لكنها أرادت أن تتعرف على بعض التفاصيل. اضطر لتأجيل الرد لحظات مع دخول فاروق وحاتم ورانيا إلى المقهى بضجة وبهجة. ثم رد عليها موجها الحديث للجميع:

"أدعوكم غدا لزيارة ورشتي في قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية، ثم لزيارة صالة المخطوطات لرؤية الكتب النادرة!"

في طريق العودة كان حاتم ورانيا يسردان عليها ما شاهدا في المتحف وهي لا تعي ما يقولان. كأنها تركت عقلها عند آدم منذ أن فارقته. استعادت في بيت أخيها صورته ببطء و لم تركز في الأسئلة الكثيرة عن تفاصيل يوم مدهش في فيينا. تركت فاروق يثرثر لياسين عن اندهاشه من ارتفاع الأسعار. استأذنت لتذهب إلى الحمام قائلة للجميع إن المشي كان مرهقا في ذاك اليوم. نزلت إلى ماء البانيو الحار أكثر خفة وسعادة. خطوها في الماء الساخن جعلها تشعر بأنها تخطو إليه؛ إلى آدم؛ إلى أسئلته؛ إلى صوته؛ إلى نظرته؛ إلى وقفته. الأحاسيس المربكة تعاودها من جديد لا تعرف هل تتوقف أم تكمل. اعتادت أن تتوقف عند أعتاب الفرح والبهجة الذهنية كأنها ستذنب لو تمادت في ذلك، لذا تخفق في إكمال الخيال وتعويض قسوة الواقع. ابتسمت بعمق حتى سمعت صوت ضحكة قصيرة صدرت منها، حين تذكرت أن في الغد موعدا جديدا سترى آدم

فيه. خرجت من الحمام خفيفة مبتهجة كفتاة في السابعة عشرة!

* *

في اليوم التالي التقوا جميعا عند مكتبة المخطوطات كما وصف لهم آدم على الخريطة. صعدوا معه لورشته المكونة من ثلاث غرف: غرفة أولى ضيقة إلى حد ما، ذات إضاءة ساطعة عليها مائدة عريضة شبه مائلة، وغرفة جانبية مواربة تبدو كمخزن، تليها غرفة واسعة ذات إضاءة ساطعة حوائطها مزينة بمخطوطات ولوحات فيها ثلاث موائد عريضة مختلفة الأحجام، الموائد مجهزة بأدوات شبه هندسية: مساطر ومحايات وأقلام رصاص وأحبار وأوراق وصمغ وخيوط وأسلاك ودوبار، وأخرى شبه طبية عليها مشارط حادة وقوارير بألوان وزيوت، إلى جوارها جهاز زجاجي شفاف غريب المنظر، شرحه لهم بأنه لشفط وضغط الهواء وهو ضروري لعمليات فصل الأوراق الملتصقة وتجفيف المخطوطات يسمى "فَرَّاغ". شرح لهم طبيعة العمل بشكل متقن وسريع، وكيفية الفصل الدقيق لصفحة من الأوراق الملتصقة ببعضها من مخطوطة ووضعها في سوائل دون أن تضيع أحبارها أو تبهت أو ترشح، بل كيف يتم فصل صفحة ورقة رقيقة لطبقتين أقل رقة بمهارة، حتى تبدو الصفحة شفافة رقيقة مثل غشاء من السيلوفان.

انبهر الجميع بشروحاته، خصوصا ليلى. فاروق لم يبد اهتماما كبيرا سوى بلوحات الطيور والحيوانات، وسأل عن قيمة بعض المقتنيات وأسعارها، واستغرب مجددا من الأسعار الباهظة. ثم أهدى آدم كلا من

حاتم ورانيا نسخة مصورة من آخر ترميم قام به للوحة فارسية دينية عليها صورة نادرة للإسراء والمعراج من السماء الثالثة، وصورة أخرى عليها رسوم ملونة لبعض الأنبياء والصحابة ووصول النبي إلى السماء الثالثة، ثم أهدى فاروق صورة لواحدة من أقدم خرائط العالم للإدريسي كما كونها ميللر من مجموعة الخرائط عمل عليها الإدريسي وعُثر عليها في مخطوطات كتاب له. سأله فاروق إن كانت قيمتها مرتفعة مما أصاب ليلى بحرج وحنق. أما ليلى فقدم لها نسخة من أقدم لوحة مكتوبة بحروف مغربية في لون الحناء للآية القرآنية التي تقول: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (سورة الأحزاب/72).

قال لهم إنه بسبب ولعه بالرسم والخط ودراسته لهما قد اتفق – منذ سنوات بعيدة – مع مدير المكتبة أن يعيد بخط يده أو رسومه الكثير من اللوحات أو المخطوطات النادرة التي يعالجها، وأكمل أنه لديه الكثير من أعماله في مكتبه هنا، والنادر منها والأجمل يحتفظ به في بيته.

*

في الوقت الذي كانت ليلى جالسة في المقهى في القاهرة تتأمل صورة عبد الله الطفل الرضيع، كان آدم في فيينا قد خرج حاملا مظلته تحت المطر، متجها إلى بيته. كانت أغنية أم كلثوم ترفرف حول أذنيه وتلح عليه، على الرغم من أنه لم يسمعها منذ زمن بعيد، فلم يجد بدا في ترديدها مستعيدا لحنا من ذاكرة قديمة يخرج من صدى أعماقه:

"قربك نعيم الروح...... ونظرتك...... وإلهام"

في الطريق فكر أن يصعد للمقهى الموجود في متحف تاريخ الفنون. صعد وطلب قهوته المفضلة، وجلس عفويا في المكان نفسه الذي جلس فيه قبل عامين وثمانية أشهر وثلاثة أيام مع ليلى،.لكن لم تكن هناك شمس في هذا اليوم تتسربل عليه من أي طاقة.

بينما هُو جالس مستمتع بارتشاف الإسبريسو، منتظرا توقف زخات المطر التي أخفت من شدتها ضوء النهار وغطته بخيمة من الغيم، فتح الكاميرا التي معه وتأمل الصور الكثيرة التي التقطها للعمل القادم في المخطوطة البوسنية التي سيبدأ في ترميمها قريبا. كبّر الصورة عند مقطع باهت منها، ولسبب غامض لم يدركه تذكر ليلى، وبينما كان غارقا عبر صور الكاميرا مع مخطوطته الجديدة التي سيرممها، يكبر مقاطع منها ويتوقف عند النص في تفاصيل "اللامات" الثمانية السامقة كالنخيل في الشطر الأول. توقف عند اسم ليلى، قربه لكي يتأمل حرف اللام المتكرر في نسيج المخطوطة. في لحظة مباغتة تداخل طيف ليلى عبر اسمها مع صدفة وجوده في المكان نفسه الذي جلسا فيه معا قبل أعوام قليلة.

هو الذي لا يؤمن بمثل هذه الأقدار، شعر بإحساس غامض، فهو نادرا ما يفتح الكاميرا بهذه الطريقة في مكان عام، بل يؤجل هذه المعاينة لحين ينقل الصور من شريحة الكاميرا إلى الكمبيوتر، سواء في البيت أو في الورشة، وهو في العادة يهرع للبيت - إن كان وحده - مهما كانت شدة انهمار المطر ولا يركن إلى مقهى، بل لم يسبق له أن دخل مقهى المتحف

دون أن يزور فيه معرضا مؤقتا أو قاعة ثابتة، رغم أنه يملك بطاقة مجانية لدخول كل متاحف النمسا بحكم طبيعة عمله.

طيفها بدأ يسحبه معه. فعاد بالذاكرة وتخيلها يوم كانت جالسة إلى جواره. تذكر فستانها الفاتن والشال الأزرق الجميل الذي حملته معها من القاهرة والذي كان يزين جيدها وتخلعه كلما تواجدت في مكان دافئ؛ الشال الموجود في بيته الآن. يتذكر أنه حين أوصلهم للمطار اعتذر لها عن نسيانه جلْب شالها الأزرق معه. بعد إنهاء إجراءات السفر دعاهم ليصعدوا معه إلى كافتيريا المطار في الدور الثاني ليشربوا شيئا، لكنه اختفى للحظات وعاد حاملا بعض الهدايا التذكارية: نموذجا مصغرا لطائرة الخطوط الجوية النمساوية لحاتم، وكتابا ملونا بصور كثيرة عن الحيوانات والطيور البرية في النمسا باللغة الألمانية لرانيا، ثم وجّه كلامه إلى ليلى:

"مهمة ترجمة معلومات كتاب رانيا، أتركها لك يا ليلى. أتمنى أن أسمع رانيا تغرد بالألمانية في زيارتها القادمة!"

ثم أهدى فاروق "بايب" جميل الشكل عليه صورة القيصر فرانتس يوسف الأول إمبراطور النمسا؛ لأنه وجد فاروق يتوقف مرات بإعجاب عند مثيله في بعض محلات الهدايا التذكارية، مادحا شكله وجودة صناعته، لكنه كان يستغلي ثمنه كل مرة، وأخيرا قدم هديته إلى ليلى: شالا حريريا بديعا في لون أزرق عليه مفاتيح وعلامات موسيقية أيضا بلون أزرق فاتح متناسق ورقم 7 مكتوبا بطريقة فنية ومكررا المرات.

* * *

حين كان آدم وليلى معا في المتحف، نسيت شالها المصري على الكرسي، وتذكرته وهي في بيت أخيها ياسين فاتصلت بآدم مساء ورجته إن كان بإمكانه الاستفسار عنه هناك، طمأنها بأنه سيمر في اليوم التالي في طريقه للعمل ليعيده إليها. عاد في اليوم التالي ليجدهم قد حفظوه لصاحبته، لكن في غمرة الانشغال بمرض تسمم حاتم، نسيه في بيته.

تأمل آدم الكرسي الذي إلى جواره، فمر طيفها بذهنه كأنها ما زالت جالسة في المكان ذاته. ابتسم وقال لنفسه:

"يجب أن أشرب الآن إسبريسو آخر لك يا ليلى!"

رفع يده للنادلة، حضرت فمازحها قائلا:

"أريد أن أشرب قهوة!"

ضحكت وسردت عليه قائمة طويلة بأنواع مشروبات القهوة الموجودة، رد:

"رقم سبعة من فضلك!"

ابتسمت وكررت في ذهنها لثوانٍ ما تحفظه من القائمة وقالت:

"إسبريسو؟"

ابتسم وهز رأسه موافقا. أراح ظهره على الكرسي وبدأ يتأمل المكان. نظر إلى النوافذ العالية البعيدة لعله يلاحظ تحسن الجو وتوقف المطر، ليعود إلى البيت.

* * *

هل كان ضروريا في هذا اليوم أن يراها أيضا؟ وهنا متحف تاريخ الفنون؟ والآن؟

حين كان يشرب فنجان الإسبريسو الثاني، ويتأمل المكان ورواد المقهى، شعر كأن هناك من يراقبه: امرأة بنظارة سوداء وقبعة سوداء وملامحها لا تتبين له من هذا المكان البعيد نسبيا. لم يرغب في أن يطيل نظره إليها. اكتفى بنظرة ماسحة سريعة وعاد للكاميرا يقلب فيها. حين توقف بعد لحظات وأعاد نظره تجاه المرأة، وجدها قد خلعت النظارة الغامقة لكنها مازالت تحدق فيه أو تجاهه. أهداها ابتسامة باهتة محايدة، فلعلها تعرفه معرفة قديمة من سنوات الدراسة أو هي جارة قديمة أو زميلة، وقد يكون قد تعرف عليها معرفة سطحية عابرة في أحد معارضه القليلة، لكنه شعر بشيء من القلق لأنها ظلت تجول بنظرها ببطء في كل مكان ثم تعود لتتوقف عنده. كانت جالسة مع امرأة أخرى تتصفح مجلة وتتكلمان بين الحين والحين جملا قصيرة يلحظها من الإيماءات.

تشتت ذهن آدم من هذه النظرات المتعمدة وأثارت فضوله فيمن تكون؛ فظن أن المرأة الأخرى الجالسة بمواربة قد تكون على معرفة به، والتي تواجهه هي رفيقتها التي تنقل لها حركاته وتتجسس عليه. ركن الكاميرا جانبا وانتبه ليتجلى له ما يحدث. فجأة قامت المرأة التي تنظر إليه بعد أن وضعت النظارة على عينيها رغم أن المكان خافت الضوء لا يحتاج لنظارة غامقة، واليوم برمته في هذه العتمة لا يتحمل إظلاما أكثر. خمن أنها قد تكون محاولة منها لإخفاء شخصيتها. تقدمت نحوه بخطوات

مترددة. وقفت أمامه على بعد خطوة واحدة وقالت له بلهجة نمساوية واضحة:

"أهلا يا آدم! كيف حالك؟"

الصوت يعرفه تماما، لكنه غير واثق من صاحبته، لا يستطيع – في هذه المباغتة – أن يوفّق هذا الصوت مع هذه الشخصية. قالت له وهي ترفع النظارة عن عينيها.

"هل عرفتني الآن؟"

حين ضيّق آدم عينيه وفتح فمه محاولا إخراج اسمها الخافي. بادرته:

"نعم أنا هي!"

كان ينطق ببطء ناسب اجترار اسمها من ذاكرته:

"أو ليف يا؟"

نطق اسمها هكذا بتقطع ودهشة. لكنها لم تترك له فرصة استكمال، فقالت:

> **"لقد عدت إلى فيينا منذ ما يقرب من عام ونصف. أتتبع أخبارك ونجاح معارضك، وقد زرتها كلها واقتنيت لوحة لك بعنوان 'أزرق أزرق' وتركت اسما وهميا لي لدى وكيلك. هل تسمح لي بأن أجلس؟"**

انتبه إلى أنه ليس من عادته أن يحادث امرأة وهو جالس في مكانه. ابتسم

في سره لأنه تجادل قبل فترة مع أحد الزملاء في سلوك الرجل الأوروبي مع المرأة الأوروبية، وكان آدم يجزم بأن تكرار الكذبة يمحو الحقيقة تدريجيا من الوجود، فهو يعرف أن السبب في قيام الرجل للمرأة لم يكن هذا الاحترام الذي نسبغه على هذا التصرف، وإنما يرجع إلى العكس تماما مما يعتقده الناس الآن؛ لأن الرجل لم يكن يقبل أن تكون المرأة أعلى منه، لذا كان يقف إن دخلت عليه امرأة. ليكسر تطاولها عليه.

"طبعا طبعا، تفضلي أجلسي!"

رد آدم متأخرا وهو شبه واقف. كادت أن تجلس على الكرسي الذي إلى يمينه. لكنه وجهها بلطف إلى الكرسي الآخر إلى يساره، كأنه أراد أن يحفظ طيف ليلى ومكانها.

> **"أعرف أنني أذنبت في حقك، ولم أتخيل أنك ستسمح لي حتى بالجلوس أو الحديث معك، لكنني تجرأت وأتيت إليك؛ فبعدما عدت من الإمارات حاولت الاتصال بك ألف مرة، لكنني كنت أغلق الهاتف في آخر لحظة. خجلي وندمي على ما حصل كانا أكبر من قدرتي على مواجهتك!"**

قالت أوليفيا هذا الكلام في نفس واحد متهدج كأنها كانت تركض، ثم تنهدت كمن تخلص من عبء جاثم على صدرها.

"لا عليك!"

قالها آدم بلا مبالاة و لم يزد. أصابها الحرج والاضطراب وأرادت أن

تجد أي مدخل لحوار أطول:

"كيف أحوالك؟ أعرف أنك ما زلت تعمل في المكتبة الوطنية.

"نعم.

"هل ضايقك وجودي الآن؟"

"مفاجأة لم أتوقعها!"

جاءت النادلة. طلب لنفسه هذه المرة كأس نبيذ أحمر بعد فنجاني القهوة، طلبت أوليفيا. أيضا نبيذا أحمر بقيا للحظات صامتيْن. كان ينظر إليها بعينين لم تتحمل لومهما البادي، وهي لا تعرف إلى أي مكان تنظر ولأي وجهة حديث تتوجه. وضعت نظارتها على عينيها تلقائيا، ثم أنزلتها. خلّصها آدم من ارتباكها الملحوظ وبادر بالكلام:

"تذكرين ذاك اليوم الذي تواعدنا فيه لنسافر معا إلى بودابست، أحسست يومئذ أنني أتحرك في هالة فرح للقائك. ذهبت إلى المحطة ومعي التذكرتان، وحقيبة صغيرة فيها ملابسي. كنت أحمل في يدي باقة ورد بري. قلقت حين تأخرت، وظللت أتصل بك بلا هوادة. ظننت أن مكروها أصابك. كدت أجن وأنا أتحرك داخل المحطة مثل طفل فقد أمه. اتصلت بصديقتنا المشتركة كارولينا لكنها أجابت بأنها لا تعلم سبب تأخرك. ركبت القطار قبل تحركه أبحث عنك بجنون ربما كنت قد حضرت قبلي. نزلت منه أنظر لكل نوافذ القطار كالمعتوه، وبينما كان القطار ينسل من المحطة كنت أعاود

الاتصال بك قابضا – دون شعور – على أشواك الورود بعصبية حتى أدميت أصابعي. خرجت مهزوما من المحطة، لم أنتظر الترام لأذهب إليك في الحي الثاني والعشرين، كنت ملهوفا، أخذت تاكسيا حتى بيتك البعيد. صعدت على قدمي إلى الدور الخامس لتعطل المصعد حاملا حقيبتي في يد، والورود في يدي الأخرى التي تؤلمني لكن وخز قلبي كان أشد. ظللت أخبط على الباب بعصبية ونفاد صبر حتى خرجت جارتك على الضجة، فاعتذرت لها وسألتها عنك. قالت إنها شاهدتك صباح اليوم بحقيبة سفر كبيرة تغادرين الشقة. اتصلتُ مرة أخرى بكارولينا إن كان لديها علم بوجهتك، وأخبرتها بأنني أقف حائرا أمام باب شقتك وأنني أخشى أن يكون مكروه أصابك. صمتتْ لحظات ثم سمعتُ صوت بكائها. أصابني الذعر. أراحتني وأزعجتني في آنٍ لمّا قالت إنك سافرت إلى الإمارات في صباح اليوم؛ وإنك رجعتِ إلى راشد مرة أخرى. وضعت الورود على باب شقتك، كأني أضعها على قبر، ومضيت!"

كانت أوليفيا مخنوقة ببكاء تحاول أن تكتمه، وآدم يحكي أحداث سنوات بعيدة كأنها جرتْ بالأمس. تابع بإصرار:

"لن أسألك: لماذا فعلت هذا يا أوليفيا؟ فهذا سؤال ساذج لا قيمة له اليوم، ولن يُصلِح شرخا في قلب روحي، ولن ألومك أو أعاتبك، فزمن العتاب قد ولى، ولن ألعب دور القديس المتسامح، فلقد لعنتك بما يكفي شعبا بأكمله، حتى لم يبق لغيرك لعنات بقية عمري!"

في هذه اللحظة اعتبر آدم أن المطر قد توقف. شرب آخر جرعة من كأسه. شعر بمرارتها فتقلصت ملامحه للحظة، ورفع يده للنادلة ليدفع الحساب. دفعه بسرعة، رجته أوليفيا أن يبقى لدقائق حتى تشرح له تفاصيل ما حدث. لكنه قال لها في صوت حاسم وهو يلبس معطفه ويحمل مظلته وكاميرته:

"اسمحي لي، لديَّ شيءٌ أهمّ لأنجزه هذا المساء!"

ليس من عادة آدم أن يُظهِر هذه الحدة في التعامل مع الآخرين. لكنه شعر باستفزاز أليم يكوي مشاعره، يقلب عليه مواجع كادت أن تبرأ، ويفسد عليه لحظات سلامه مع نفسه ومع المكان الذي أصبح له فيه أثر جميل.

للحظات بقيت أوليفيا عند مائدته متخشبة كتمثال، ثم أمسكت كأس نبيذها، هزته في دوائر عبثية لا إرادية كأنها تذيب شيئا فيه، ناظرة باتجاه الناحية التي سلكها آدم حتى اختفى عن ناظرها، معيدة النظارة إلى وجهها ومكملة نحيبها الخافت. حين تقدمت صديقتها مواسية. رفعت أوليفيا كأسها ودلقته في جوفها مرة واحدة. وعلا صوتها بالبكاء، فانتبه الناس وصمتوا. جلست صديقتها إليها تهمس عن قرب في وجهها حتى هدأت وسرى صمت.

كان صوت المطر هو الأعلى في تلك اللحظات، وقد أظلمت السماء في الخارج تماما.

4

استطاعت ليلى أن تغوص في روائح الزهور؛ أن تستخلصها من الطابع على المظروف، وأن تعود بالزمن للوراء قليلا. في عينيها يتلألأ الرقم السحري (797)، يتردد على العين مثل أغنية تلح على الأذن بتكرار محبب وتستمر وحدها في الترنم دون سيطرة على إبعادها عن الذهن، هكذا صار لها الرقم، يتكرر أمام عينيها في كل ما ترى أو لعله قد نسج نفسه في مقلتيها. اتسعت بسمتها تفاؤلا، وقدّرت أن إلحاح الرقم عليها بهذا الشكل ليس مدعاة لأي قلق، بل بالعكس فهو تخدير مريح للعين وإبهاج للقلب بما لا يراه أحد غيرها. (797) رمز للمحبة المنتظرة؛ فليكن منذ الآن رمزا لكل جميل!

قامت من مكانها لتطمئن على عائلتها الغائبة عن البيت بالخارج. اتصلت برانيا عند خالتها واطمأنت عليها. ثم اتصلت بفاروق، وما كادت تسمع صوته وتطمئن على حاتم حتى هدر هدير مزعج عبر التليفون، وكانت اللحظة التي سجل فيها فريقه هدفا، فلم يستطع سماعها ثم نسيها وتليفونه مفتوح تسمع منه ضجيج الملعب، سمعت أيضا من الجيران الصراخ نفسه والدبيب العالي نفسه، كذلك من الشارع، عبر كل حيطان الشقة وسقفها وأرضيتها. ظلت تصرخ في فاروق ليرد عليها، دون جدوى، فبقيت لحظات تنصت لأصوات الاستحسان وصفير الاستهجان، ثم أغلقت. شعرت بتفاهة العالم وبداية سأم جديد يسعى لروحها.

عادت عيناها إلى حديقة القصر المصورة على الطابع. قامت من مكانها، وأحضرت ألبوم صور زيارة فيينا. قلبت الصفحات ووجهها ينشرح مع كل صورة. أحست أن أسارير وجهها في الصور غير هذا الوجه الذي تراه يوميا في المرآة. في الصور وجه منشرح مقبل على الحياة. رأت ابتسامة صافية لم تشاهدها في صورة لها منذ زمن بعيد. عند صورة لآدم يضم فيها رانيا وحاتم إلى جانبيه بحنو شديد، شعرت بشيء يخطف قلبها بلا إرادة، شيء يشبه بداية الذعر المفاجئ أو صدمة الفرح. هي التي التقطت هذه الصورة في مكتبِ آدم حينما زارته العائلة. شاهدتها مرات وتوقفت عندها قليلا بإعجاب أُمّ. لكنها الآن تشعر شعورا غامضا لذيذا ومربكا، تستعذبه.

لمحت في خلفية الصورة لوحة مكتوبة بخط هو آية في الجمال، لكن

رءوس الثلاثة أخفت معظم كلمات الجملة فلم يظهر منها سوى:

(ليس للروح..... آخر)

قلبت في الصور سريعا تبحث عن صورة تمكنها من قراءة الجملة كاملة، لكنها عادت سريعا لتتأمل وجه آدم.

هل يمكن أن يكون لصورة رجل ما، مرق في حياتها كطيف، كل هذه السطوة؟ لماذا يخفق قلبها الآن كأنها ابنة السادسة عشرة، كفتاة تكتشف نور الحب للمرة الأولى؟ ولماذا تتشتت بين فكرتين متناقضتين: فهي تريد أن تبعد عن ذهنها فكرة غامضة تلح عليها، بينما عيناها تتشبثان بوجهه في إصرار وفرح؟ ثم ما معنى كل هذه التساؤلات التي تداهمها بلا استئذان؟ هل الأحلام التي راودتها مرات لها مغزى؟ ثم لماذا تداهمها – منذ عودتها من فيينا – أحلامٌ يزورها فيها آدم، أحلام تنقصف بالصحو لتكتمل بأحلام يقظة متوهجة معه؛ معه هو فقط!

لم تشعر مرة بالذنب وهي تتخيل آدم يحتضنها بدلا من فاروق؟ لكنها لم تجد معنى لتذكر شخص لن تلتقيه مرة أخرى، لذلك كانت تحاول صرف فكرها باللجوء إلى الراديو للاستماع إلى أي خبر يشغلها أو أغنية تذكرها بأي زمن بعيد، كيلا يهيمن بوجهه على أحلامها، فمنذ صغرها استبدلت الكثير من قسوة الواقع برحمة الحلم، لأنها أدركت أن لا أحد سيتقبل إقدامها على إخراج أحلامها إلى حيز التنفيذ، ولم يدرك وعيها – رغم قطعها مسافة لا بأس بها من طريق المعرفة – أن ما يراودها نفسه، يراود كل الفتيات، وأن سقف التقاليد المشرعة يخص الإناث فقط، ويصطدم

برأس أي قصة حب قد تنمو في غفلة بين شرفتين، شرفة شاب وشرفة فتاة في مقتبل الحلم. لكن إدراكها لم يغفل أن للأحلام - حتى إذا راودتها وهي مفتوحة العينين - خاصية سحرية لا يستهان بها، وهي أن أحدا - مهما بلغ قربه منها أثناء استغراقها فيها - لن يعرف شيئا عما تحلم به.

بدأت الأحلام تراودها منذ أن كانت صغيرة، بحلم تتذكره الآن كما لو كان منذ ألف عام، عندما نظرت إلى الحائط المجاور لسريرها، فوجدته مواربا مثل باب، قامت على الفور بقميص نومها الطويل الأبيض، ودفعت هذا الباب فانفتح على مصراعيه. هالها ما رأت، كان أمامها مرج فسيح مغطى بعشب ندي أخضر، في درجة من الاخضرار لم ترها من قبل. تنحدر الأرض بالمرج انحدارا مريحا مشرعا على أفق من هضاب بدرجات متنوعة من الأخضر، وينتهي ببحيرة مياه متلألئة تحت أشعة شمس ناعمة، تتسرب من بين فروع أجمة أشجار في الناحية الأخرى. هكذا، وجدت نفسها في مكان عجيب باعث على السكينة، مكان شعرت أنه يشبهها وينتظرها لتكمله، بعيدا عن ضيق شقتهم وقتامتها وازدحامها بكثير من قطع الأثاث الذي لا لزوم له، سوى الاعتراض المعرقل للحركة. شعرت بألفة في المكان رغم أنها تراه للمرة الأولى، تجولت هنا وهناك تكتشفه متتبعة تغريد طيور جميلة لم تر حتى مجرد صورة لها في أي كتاب، إلى أن قادتها قدماها إلى مكان ظليل بين ورود في وسطه أرجوحة، اعتلتْها وبدأتْ في التأرجُح، راودها للحظة أنها هي الثابتة والكون تحت قدميها هو الذي يتأرجح. رمت نفسها بخفة من على الأرجوحة وتركت جسمها يتدحرج على العشب الطري حتى مياه البحيرة، وقرب حافتها اغترفت من مياهها

غرفة، بللت بها وجهها، شعرت فجأة ببرودة الماء على وجهها وبعذوبته على طرف لسانها. ثم بدأت في الرقص، خلعت قميصها وطوحت به بعيدا، لتجرب الرقص عارية. رفعت رأسها إلى السماء ودارت في دائرة وهمية ترسمها عادة حول نفسها، كانت السماء تدور، أسراب الغيوم المتقطعة، الأشجار والأرض، كان كل شيء يضحك بصوت يثير البهجة في الروح، تكاد تسمع أصوات كل شيء: هفهفة ريح وخرير ماء وحفيف أوراق شجر، صداح طيور، أصوات حيوانات، ثم، تلاشى كل شيء في لحظة، أحست كأنها سمعت باب الحلم يوصد. استيقظت على صوت الريح يخبط النافذة المفتوحة ويغلقها بإلحاح، لتجد نفسها نائمة في السرير نفسه، مرتدية البيجاما نفسها، وبقايا دموع باردة على الوسادة، بينما صوت أمها يعلو، تناديها بتكرار حانق كي تستيقظ، لتعد الفطور لأخيها ياسين، قبل أن يخرج إلى أصدقائه.

كم من عشرات المرات التي أفشل فيها فاروق مثل هذه الأحلام بأسلوبه الفظ في المضاجعة. دخوله كالثور عليها بدبدبات قدميه الثقيلة، وإغلاقه الباب بالصوت نفسه الذي يذكرها بصفق النافذة في الحلم، بينما تحاول أن تعود لتفتح باب الحلم الموارب لتهرب منه، لتستدعي آدم ليخفف عنها مصابها. لم تعشم مرة واحدة أن يداعبها فاروق، أو يتجنب مرة واحدة هذه الخشونة التي يعتبرها رجولة وتمكّنا؛ حتى تلميحاتها برغبتها الخجولة في قبلة أو لمسة أو حضن، كف عنها في العام الثالث من زواجها لأنه كان يعقب عليها قائلا:

"يخرب بيت أم الأفلام الرومانسية وبوسها وأحضانها!"

كانت طقوسه تصيبها بالسأم، كلما طلب منها أن تستحم بماء ساخن حتى في عز الصيف قبل المضاجعة، أو أن تتعطر وتتجمل وتجفف شعرها تماما، لأنه يكره الشعر المبتل، بينما هو لا يستحم أو يتعطر أو يُشعرها باستعداده لها بأن يتجمل ولو على سبيل المجاملة، يظن نفسه دائما مكتملا برجولته ومكتفيا بدور الذكر، عندها كانت رغبتها تتبخر، تأتي إليه كما لو كانت تستعد لغسل الصحون، أكثر مهمة تمقتها من أشغال البيت المتعددة. تسمع لصديقتها في المدرسة بأذنين مرهفتين، ولا تعرف لماذا اعتبرت ممارسة صديقتها للجنس مثالا، إن لم تحذُ حذوها، فلا يجب أن تقدم عليه، كانت صديقتها تحكي أن رجلها لا ينتظرها حتى تأخذ دشا، بل أكثر من ذلك، كان يعتبر أن ارتداء قميص نوم يعوق بقماشه الشفاف التحام لحميهما نوع من الإخلال بالمتعة. يقترب بأنفه من إبطها ويشمها برغبة، كما لو كان حصانا لن يتعرف على فرسه إلا من رائحة عرقها الخاصة وربما لأن عرقها مبتدأ الإثارة، ربما كان على ليلى أن تستبدل علاقة الزواج التي تربطها بفاروق بعلاقة عشق لتنتقم من رائحة الصابون التي تطاردها في كل لقاء معه والتي لا تليق برائحة الجنس، أو حتى تستبدل فاروق نفسه بعشيق يمارس الجنس بطقوس بدائية تستعيد فطرة كل الحواس، هي لا تتخيل أن يتم طقس الجنس إلا بعد أن ترقص حتى الثمالة، تتماوج يمينا ويسارا في المكان كأنها تغير روحه بطقوس سحرية تعرفها هي فقط، وتتحد بالهواء وتتركه يتحد بها، يتبعثر شعرها في فوضى طبيعية فتبدو كشجرة تمشطها الريح بجنون، تتماوج كمياه هادرة لا ضفاف تحدها، تتزلزل الأرض إجلالا لخطواتها غير المحسوبة، رقصة منفلتة لا

أخلاقية، فالأخلاق قوانين وضعية يغيرها الناس كل حين وفق مصالحهم. تؤمن بأن الجنس يجب أن يمارس بفائض جنون يبدأ بالرقص أو ينتهي به، وهو في خيالها الجامح ليس سوى رقصة الحياة! أو إعادة تمثيل الحياة دون رتوش زائفة. مؤمنة هي أن الأنثى هي الكائن الأضعف، تلك الحقيقة التي لم تكن حواء الأولى بحاجة إليها، لأن آدم لم يكن يعاملها إلا بالفطرة الأصيلة ليكون مكملا لها بسطوة المحبة، لا مسيطرا عليها لإخفاء ضعف مستتر، لكن تطور المجتمع في مرحلة موغلة في القدم اختزل الاعتراف بهذه الحقيقة في طقس الجنس فقط، ليستقيم المجتمع في باقي أموره، مجرد شكل ارتضاه الأولون لحياتهم وسار نهجا مفروضا على الرافضين قبل الموافقين في ما بعد؛ فلم يعد الاعتراف بتفوق الرجل إلا أثناءه، ومع الوقت وضغوط الحياة، وإرساء قوانين الأخلاق مع التطور المجتمعي حدثت الكارثة، فاعتقد الرجل أن ممارسة الجنس بصورته الأولى مع زوجته تصرف لا أخلاقي، تخلى عن جوهره واكتفى فقط بالآلية الوظيفية فقط، ليصبح مجرد إشباع جسدي دون الإشباع الروحي، وبدأت الحيرة لكليهما، حيرة لا يعترف أي منهما للآخر بها خجلا ربما والتزاما مفروضا ربما، فالرجل حتما يعترف لنفسه على الأقل بأنه يريد امرأة لبوءة، تشعره أنه الأقوى، امرأة تشبع الجزء الحيواني فيه، لكنه لا يستطيع أن يتعرى أمام زوجة، فهي جزء من المجتمع واضع القوانين الأخلاقية، والمرأة في الوقت نفسه، تحلم ربما أثناء ممارسة الجنس مع زوجها بآلية أنها تمارسه مع رجل بدائي لم يقرب المدنية ولا يعرفها. فيصير كل منهما يضاجع وهما في خياله، ورغم انصهارهما معا فهما لا يلتقيان!

هذا هو فاروق إذن! أفشل في كل مرة محاولاتها كي تستحضره كفارس أحلامها العاشق، ليكون زوجها الحلال في الخيال. كان يتحول في منتصف طريق حلم اليقظة إلى فاروق الأصلي، ويحطم مبنى الحلم وهيكله. بعد المضاجعة كانت تعجل بحمام تجلو به رائحته فورا عن جسدها، وتنزع عن أنفها رائحة الخضوع والكراهية.

لم يضاجعها إلا في وضعين اثنين لم يغيرهما طوال ثماني عشرة سنة. يضاجعها واقفا وهي واقفة قباله بعد أن ترفع قدمها اليمنى لأعلى، دائما اليمنى لا تدري لماذا، فتشعر بعد دقائق بإرهاق شديد من الوقوف على قدم واحدة، لكنه هذا الوضع كان أخف وطأة من اندلاقه عليها بصمت تام حتى ينتهي من ارتعاشه، ثم ينهار عليها كجبل من الحجارة ليهرسها بلا محبة، رغم ذلك تشعر بالنجاة. تحس بالراحة لأنه سينقلب بعد لحظات لترى ظهره العاري، تاركا إياها غير مبال بعدم إشباعها، لكنه لا يغفل أن يسألها بعد كل مرة:

"ما رأيك؟ كيف كنت؟"

تصمت، لا ترد عليه الرد الذي يطمئن سريرته وأطرافه، يتخيل أن في صمتها إنهاك الرضا والشبع، فينام وبقايا شخير لذته يخرخش مثل آلة خربة في مصنع قديم. وتعود إلى المياه التي تركتها منذ قليل بكثير من الأسئلة لتتخلص من إحساس الهزيمة الملتصق بها. هل يخالف فاروق فطرته فيرى نفسه الذكر الذي يجب أن يقهر أنثاه حتى لو كان القهر على السرير فقط؟ ألا يدرك كيف يستعمل حواسه الطبيعية في الجنس من لمس

ونظر وشم وتذوق وسمع؟ هل لا يعرف عن قاموس الألفاظ البذيئة والتي تنعش الجنس وتدغدغ مواطن الخجل باللذة؟ ألا يعرف عن الرقص شيئا؟ تتذكر يوم أن رقصت له للمرة الأولى فاندهش مستنكرا: "هل هذا وقته؟" ثم جذبها من ذراعها بغلظة، قبل أن تقف على أطراف أصابعها تأهبا. أم تراها شاذة فيما تريده وقت الجنس من انفلات منه ومعه؟

كانت ليلى ستقنع منه بأقل القليل من المحبة والاكتراث في إطار الاستسلام لما يحدث والقبول به أيا كان، كما قررت مع نفسها في مرحلة سابقة، بعد أن خذلها ياسين وسلمها بنفسه إلى فاروق، لكن ما توصلت إليه من قناعات عن الرقص والجنس وكل ما يحيط بها، جاء بعد مرحلة تفكير استهلكت سنوات من روحها، وجدت نفسها فيها زوجة وأما لولد وبنت، محاصرة بعادات فاقدة لمعناها ومقيدة بتقاليد شاذة من يخرج عليها يعتبرونه هو الشاذ، ولأنها - أيضا ولسنوات طويلة - لم تعرف ما الشيء الذي ينقصها لتشعر معه بأن لقاءه الحميمي مشبع وكاف، ربما كان جهلها وانصراف ذهنها لتربية الولدين سببين كافيين لتستمر كآلة، وتعتقد أن العطب ليس في فاروق بل قد يكون كامنا فيها.

ربما لو ضمها في حضنه ضمة صادقة تتوق إليها، لفتح كوة إلى روحها وتسرب إليها، ولأعفاها من رحلة تفكير عميق ومرهق، أوصلتها في النهاية إلى الاعتراف بينها وبين نفسها، أن فاروق والمجتمع وكل ما من شأنه أن يكبل روحها ويسهم في تعاستها، لا يستحق أن يعرقل سعادتها ويبقي على روحها مقيدة إلى مربطها، هي لا تنكر أن غباء فاروق هو السبب في نقض عهدها مع نفسها بالاستسلام، ربما لو كان يستحق لرأته بعين

أخرى على الرغم من شخصيته، علاقة السرير وحدها هي ما ربطهما، غير ذلك، كان فاروق شخصا لا يصلح لرفقة أو لحوار، فاروق كما كانت أمه تلقبه صغيرا بالـ"جحش"، عندما كبر لم يكن سوى وحش بغيض لا وصف له، فالجحش وحتى الحمار بالمقارنة هو حيوان وديع. في الوقت الذي كانت أمه تكف عن نعته بلقبه السابق، وتتباهَى بعرض كتفيه وطوله الفارع وقدرته على معرفة أسعار كل سلعة، ثم حرصه على الذهاب إلى أقصى مكان بعيدا عن البيت، لشرائها بثمن يقل جنيها فقط أو أقل. كانت ليلى، في سرها، تنعته كل مرة تكتشف غباءه وجموده الكبيرين بكلمة الـ"دَني"، كلمة كانت تريحها حين تطلقها عليه في أوقات وصولها لذروة المقت والانفجار الساكن.

لو احتضنها فاروق مرة بمحبة على الرغم من كل معارفها عنه، لغفرت له كل هذه السنوات التي لم يجعلها فيها تنتشي مرة واحدة بالوصول إلى منتهى لذة الجنس؛ إلى الأورجازم الذي لا تحققه إلا بدونها؛ بالعادة السرية، حتى اعتقدت لوقت ليس قصيرا أن يدها هي العضو الوحيد القادر على فهم شفرات جسمها.

لم تكتشف مشاعرها فجأة، بل بدأت في ليلة الزفاف تتكشف لها الأمور تدريجيا، عندما أغلقت أمها الباب وراءها ورحلت، وافتعلت ليلى حياءً كما أوصتها أمها، بأن جلست على أقرب كرسي وأسقطت رأسها خفرا، في هذه اللحظة كانت ترقب رسومات السجادة، وتتتبع فروع الزهرات باتجاهها إلى أركانها الأربعة، متوقعة أن يأتي فاروق في هذه اللحظة ويرفع رأسها، يقبلها طويلا ثم يحملها إلى غرفة النوم،

لكن اللحظة طالت و لم يأت. سمعت صوته في المطبخ وصوت أغطية حلل الطعام وهي تتخبط، ثم خرج وهو يلوك بين أسنانه قطعة لحم كبيرة قائلا:

"أمك لم تسو اللحم جيدا!"

هكذا بدأت أولى الصفحات مع فاروق، وتوالت الأحداث لتلطخ أعماق نفسها بقسوة كلماته وتلميحاته، وكلما حاولت أن تنسى، يذكرها بتكرار قديم لكلام غريب تشعر أنه قاسٍ ولا تفهم معناه بوضوح، تتذكر يوم قال لها بلهجة غريبة:

"وأنا قانيكي ليه؟"

قال هذه الجملة مرات و لم تدرك معناها بالضبط، اعتقدت أنه يرفض تلبية ما طلبته وقتذاك، حين تلبسته موجة غضب وهو يرددها، لأنها طالبت بشراء مكنسة كهربائية كي تنتهي متاعبها مع الغبار الذي كان يلوث جسمها، كلما قلبت البيت رأسا على عقب كل يوم جمعة، يوم إجازتها الوحيد، ثم تكرر قوله عندما وفرت هي مالاً دون أن تخبره، وأرادت شراء غسالة أوتوماتيك مثل صديقاتها في العمل، لا تخرج منها الملابس إلا بعد دورة غسل طويلة، وتصبح شبه جافة، لكنه أيضا كرر جملته التي قالها من قبل، واضطرت هذه المرة إلى أن تستعين بأمه لا لتقف في صفها، بل لتشرح لها العبارة، و لم تكن صدمة لها عندما أجابتها ببساطة قائلة:

"زي القطة كدا.. بنربيها عشان تاكل الفيران!"

لم تتصور أنه يعتقد أنها مجرد خادمة، يقتنيها من أجل الكنس والغسل والطبخ، والخروج للعمل من أجل توفير المال، ثم في نهاية اليوم يضاجعها واقفة ثم يمتطيها على السرير مذكرا إياها وهو في مضاجعته بتوفير جو شبقي جديد في المرة القادمة باقتناء ملابس داخلية أكثر إثارة وباستخدام عطور جديدة لا يعرف أسماءها، في كل مرة يفكر ويخطط للمرة القادمة بتعليمات ورغبات مستقبلية وينسى اللحظة الآنية بكل ما فيها من إثارة حية، يَئِدُها قبل أن تبدأ، وقبل أن تشعر بالإشباع يعلو شخيره القبيح. تتذكر كل لحظاتها معه، منذ أوائل لطفه المزيف وتقربه منها حتى زواجه بها واعتقادها بأنها تستطيع أن تسعد بوجودها مع من أحبها، وحتى لحظاتها الحالية التي تأكدت فيها أن فكرة تغييره تعتبر ضربا من الجنون، وأنه من أكبر الحماقات أن يتزوج الشخص من حب في اتجاه واحد، فسيصير حبا لا يدوم ويتوقف على أعتاب العشرة وممارسة كل الأفعال الحميمة باعتياد ممل لا روح فيه!

لكن بداية استخدام يدها لإشباع حاجتها جاءت بعد هذه الحوادث بأعوام. كان تلقيبها فاروق بالـ"دَني"، قد مر عليه زمن، وكان حاتم يحبو باتجاه الأنتيكات ليعبث بها في اكتشافه للعالم، عندما انسحب فاروق ليدخن سيجارة بعد قيامه من عليها مباشرة، فتح شيش البلكونة وترك الستارة بينهما مسدلة بعد خروجه، كانت الستارة رهيفة لدرجة أن أنفاس الريح الخفيفة في هذا الحر الخانق كانت تموجها برفق، شفافة لترى فاروق بقامته وهو يوليها ظهره والدخان ينبعث من فوق رأسه كمدخنة، وكعادته تركها قبل أن ترتوي، وبحركة لم تكن تتوقع أن تقوم بها في وجوده بهذا

القرب، عادت لما كانت تفعله منذ أن وعت أن العضو المغطى بالشعر بين فخذيها بحاجة إلى مداعبة، إذا قامت بها بروية ستجد نفسها بعد دقيقة في حالة هياج وتوتر شديدين، وإذا استمرت في الدعك، سترتعش بشدة وتتدفق قطرات المياه من مكان لا تعرف عمقه، عندها فقط، ستتهدج أنفاسها وتستكين استثارتها وترى نجوما تلمع في سماء خيالها.

لا تذكر متى بدأت في ممارسة هذا الفعل الذي عرفت فيما بعد اسمه، من مجلة طبيبك الخاص التي كان ياسين يقتني أعدادها ويخزنها في ركن معتم من دولابه. لم يدر أبدا، أن أخته الساذجة -كما كان يطلق عليها- تواظب على سرقة العدد الجديد، وقراءته عشرات المرات، وأحيانا تعيره لصديقاتها في المدرسة، قبل أن تعيده ببراءة متناهية إلى مكانه.

في وقت الذروة تماما، ولسبب لا تدركه بوضوح، استحضرت صورة شادي عند المخبز ورائحة الصابون التي غلفته، لتراه بعين خيالها في عمر أكبر يضع يده بين فخذيها، ويقوم عنها بما كانت تفعل، حتى تتدفق القطرات، فيرفع يده بها قبل أن تجف، ويتشممها ويبتسم في وجهها. ولوقت طويل ربما لعام كامل -قبل أن يرفعها الشيخ عزوز إلى رف بعيد- كان شادي يحتل خيالها بما لا يدع مجالا لوجود غيره، بوجهه الصغير المستدير، ورائحة نظافته الدافئة، كأنه تحمم للتو، لكن ما حدث أن الشيخ عزوز الذي نفرت منه وقتذاك، وكادت تشكوه لأبويها، طرد خيال شادي منذ ذاك الحين، ليحتل برائحته الكريهة أغلب أحلامها.

كان شيئا ما يوخزها كلما انتهت من الحلم بوصولها إلى ذروة الرعشة،

في أوقات كثيرة كانت تفكر وتحاول تصنيف حلمها، تطلق على أفكارها- كما تطلق على حلمها - تصنيفات تتأرجح بين الطيب والشرير، قبل أن تلتقي بفاروق بسنوات، كانت كلما فكرت في فارس الحلم، تراه في هذي اللحظات شفافا، كما لو كان ملاكا لا جسم ماديا ملموسا له، وتكون هي في الحلم مثله، مجرد شبح بلا لون لا تستطيع القبض عليه، كحفنة من الدخان المعطر. تنبعث من مكان مجهول لتحوم قليلا قبل أن تتبخر هذا الفارس لا يفعل معها أي شيء يمت للجنس بصلة، بل يكتفي بتأمل وجهها، وسحب يدها، والدخول إلى المكان العجيب الذي رأته في الحلم، فيمرحان معا، ويتأرجحان بالتبادل على الأرجوحة المعلقة هناك بين الشجر، يضحكان فتتردد أصواتهما كأنها عشرات الأصداء، يبدو كما لو كان مخلوقا لإشباع شيء هلامي يسكنها؛ شيء منقوص غير مكتمل، شيء ربما يتصل بالروح، في نهاية الحلم يقترب منها الخيال الذي لم تحفر ملامحه جيدا في ذاكرتها، ويقبل فمها برقة تثير دغدغة فرح في أطرافها فتشعر كأنها تحولت إلى نور، ثم يختفي. وفي أحلام أخرى، يكون الفارس رجلا قويا، أيضا غير واضح المعالم، يخترق الحجب وينزل عليها ليعتليها بقوة، يعتصر صدرها ويكور بطنها قبل أن يهرسها في يده هرسا تستلذ به، يمطرها بالكلمات البذيئة كلها، ويأمرها أن تقول له مثلها، يستمتع إذا انصاعت ونطقت بالاسمين الصريحين لعضوي الجنس ولطلب الممارسة الصريح، تستمتع وهو يطبق عليها بجسمه ولا يتركها إلا وهي في رعشة الشبع، لكن هذه الأحلام تخلفها منقبضة، صوت ما يتردد بداخلها ليجعلها تعترف بعد الحلم أنها ارتكبت إثما، تشعر أنه كان عليها أن تقتل حلمها بالصحو قبل أن تسقط

في الإثم بهذه المتعة العابرة التي استسلمت لها للحظات. ربما الموروث الذي لقنوها إياه - والذي جعل كل شيء يمت للجسم بصلة حراما - هو سبب هذا التشويش الذي لم يرحل عنها يوما، لكنها في مرحلة لاحقة فكرت وقادها التفكير إلى التساؤل: إلى أي الحلمين تنحاز، في أي منهما تجد المتعة؟ هل يجب أن يكون هناك رجل للحب الطاهر وآخر للجنس المدنس؟ أم أن الاثنين غير منفصلين عن بعضهما؟ أم هي امرأة منحلة؟

في أحد الأيام، كانت تقلب قنوات التلفزيون، بحثا عن قناة "آرته arte" الألمانية لأنها تقدم برامج وثائقية مميزة تشبع رغبتها المعرفية. ظلت تقلب لوقت طويل بجهاز تغيير القنوات، استغربت من وجود عدد كبير من القنوات على التلفزيون وهي عادة تتنقل بين الثلاثين قناة الأولى ولا تزيد. كانوا في البيت قد خصصوا لها قنوات باللغة الألمانية من القناة الخامسة والعشرين حتى الثلاثين، تحب أن تتابعها حين تكون بمفردها. ظلت تنتقل لأبعد القنوات، شاهدت قنوات لم تستطع تمييز اللغات الغريبة التي تسمعها فيها، وقنوات أخرى متشابهة المحتوى والديكور لكنها بلغات مبهمة. توقفت عند قناة تنبعث منها موسيقى هادئة، مصحوبة بأصوات طقطقة تصدر من مدفأة حطبية، يرافقها صوت أنات وصراخ مكتوم، تعلو وتيرته وتنخفض. تحولت الكاميرا ببطء إلى رجل وامرأة ملتحمين في وضع جنسي لم تعرفه من قبل، على بشرتيهما حبيبات عرق بلورية تكبرها الكاميرا وهي تنضح مع صوت لسعات المدفأة. طغى الفضول

عليها، فخفضت صوت التلفزيون لدرجة هامسة تسمعها هي فقط. لم يصبها الهيجان بقدر ما أصابتها دهشة الوضع المتوالج والمتلاحم. ظل الرجل والمرأة يتقلبان في رقصة جنسية طويلة متعددة الأوضاع هادئة مرة ووحشية مرات، أوضاع لم تعرفها من قبل في حياتها، بما فيها من لعق ومص وشم وعض وضرب. من مطالبة الأنثى بالوصل الأعمق، بالإيغال بعيدا، ببذاءة لاقت هوى في نفسها. كانت تشاهد منظرا أسطوريا غير عادي لها. اكتشفت للمرة الأولى أنها لم تكن شاذة عندما كانت تعتقد أن لكل عضو من أعضاء الجسم قيمة في الممارسة الجنسية، وأن كل عضو قادر على أن يعطي ويأخذ، أن يضاجع بطريقته، وأن يُمتع ويستمتع بطريقته. لم تر في حياتها مثل هذا الالتحام الرهيف العنيف الممتد لوقت يشبع كل الحواس ويروي كل خلية في الجسم. حتى تجربتها الوحيدة خارج إطار الزواج التي مارستها بسبب السأم، والتي حمّلت فاروق وزر إقدامها عليها فترة، قبل أن تدرك أن تجربة الخطيئة تعلمنا أيضا أن لكل مخلوق على الأرض وليفا مخلوقا له فقط، إن لم يمارس الحياة معه فلن يصل إلى السعادة.

هي لم تخن فاروق انتقاما، على الرغم من قيامه بهجرها بعد إنجابها لرانيا لما يقرب من عام، عازفا عن أي مضاجعة معها. لم يتسبب تصرفه في شرخ نفسي لها، كأن تشعر بأنها لم تعد امرأة مرغوبا فيها وهي لم تتعد الخامسة والعشرين بعد، فعلاقتها بفاروق لا تمنحها شيئا على الإطلاق، ربما رغبت في تجربة جسدية تحقق لها معنى الوجود، لم تكن الخيانة في ذهنها، بقدر بحثها عن قيمة تمثلها نضارة جسدها المنسي وأحاسيسها

المقبورة، أرادت أن تمارس متعة الخروج عن المألوف الممل؛ متعة فيها تناقض ينهشها، فعل هو رد فعل مستتر بتجريب الخيانة فعلا في حسها الباطني، أن تخون زوجها، أن تتخفى متسترة بالليل البهيم، أن تمارس متعة استغفال الجميع، أن تقفز فوق الحواجز الحمراء كفَرَس جامح، ولا يهم من سيكون رفيق خيانتها.

وَفَّرت ناريمان صديقتها كل شيء، جاءت في أحد صباحات العمل الهادئة، وأسرَّتْ في أذنها بأن ثمة رجلا تعجبه، رآها وهي تسير معها ذات فسحة. كان صديقا لناريمان في فترة سابقة. اتصل بها بعد أن رآهما مدعيا السؤال عنها ثم عرج بحديثه إليها. أخبرها أنه معجب بها، وبساقيها اللتين بدتا له منيرتين تحت ضوء الشارع الواهن، ما كان من ناريمان إلا أن قامت بدور الوسيط، وأخبرتها برغبته في لقائها. في هذه اللحظة، تاهت ليلى في دوائر مفرغة، ظلت تقنع نفسها أياما أنها لن تقبل لأن ضميرها يرفض الخيانة، حتى إذا كانت تعيسة مع فاروق. لكنها اعتبرت أن التفكير فيها نوع من الإثارة التي يجب أن تمر في حياتها من أجل تغيير إيقاعها الرتيب. سمحت لنفسها بعون ناريمان بالتخطيط للقاء كي تعرف كيف تخطط النساء لهذا، وما الشعور الذي يداهمهن، ولون الحياة وحجم الخوف وكل ما يتعلق بفعل الخيانة نفسه، مبررة لنفسها بأن ما تسمح لخيالها بالتفكير فيه لن يتم تطبيقه في الواقع مهما كان، وبأنها مجرد مغامرة مبتورة سوف تتراجع فيها عن كل شيء في اللحظة الأخيرة، لكنها تمادت تحت سقف الفضول ووقع الخيال في الواقع، حتى استفاقت لتجد نفسها في شقة صغيرة بشارع قريب من العمل، متورطة في الفعل الذي كانت موقنة

بأنها لن تنزلق إليه. أغراها إكمال التجربة كيفما اتفق، لتكتشف بكامل الدهشة أن بعض الخيانات قد تقع دون رغبة كاملة. حاولت الاندماج كلية في الموقف وتداعياته؛ أن تشعر بقلق ورهبة وخوف؛ أن تتوقع دخول فاروق حاملا خنجرا وسيغرزه في صدر الرجل، ليخلفه جثة ستتجمع عليها الغربان بعد حين، وقد يجرها بقميصها الداخلي القصير ماسحا بها أرضية الشارع، غامسا جسمها في كل أوحال وقاذورات الطريق. كل هذا فكرت فيه، لكن شيئا لم يخفها أو يوقفها، سارت كالمغيبة فيما قررت. الغريب أنها لم تعد تذكر هذا الرجل، بل لم تتأكد من وجهه في حينها، حدث كل شيء قبل أن تحاول التركيز في كونها معه، وأن عليها أن تستمتع، إن لم يكن بما يحدث فعلى الأقل بتحقق رغبتها.

*

ها قد وجدت ليلى في الألبوم صورة عليها الجملة التي اختفت خلف رءوس آدم ورانيا وحاتم. وجدتها في طرف بعيد من صورة يظهر فيها فاروق وحيدا بوقفة جانبية، كانت تمر على هذه الصورة دائما دون تركيز. الحروف بدت بعيدة ومنمنمة لا يمكن قراءتها بالعين المجردة. قامت وأحضرت عدسة مكبرة. كبرت الجملة فظهرت الحروف واضحة. قرأت بلهفة. الجملة كانت تقول:

كُلُّ رُوحٍ تَسْكُنُ بِالوَأْدِ تَروحْ.. كُلُّ رُوحٍ تَهيمُ في الوَجْدِ تَحيا..
فَطُوبَى لِلْهائمين (ابن ينورش)

"ألـلّـه!"

هكذا نطقتها ليلى بصوت ممتد مشبع مسموع، مع مد بحرف ألف طويل قبل الهاء. سقطت دموع ارتياح بطيئة ساخنة. شعرت بأنها تغتسل من الداخل بهذه الجملة. (**كُلّ رُوح تَهيمُ في الوَجْد تَحيا.. فَطُوبَى للْهائمين**). رددت الجملة مرات بغبطة. هي الّتي تخيلت أن روحها قد ماتت كمدا عبر سنوات من خيبة الأمل ومن حشو الوعظ الأخلاقي اليومي الكاذب. الآن ترمم الجملة صدعا في روحها. تأتيها في الوقت المناسب قبل انهيار الأمل.

بالجسد كمموا روحها عمرا طويلا بلا رحمة. وربطوا روحها بجسدها بقيود أخلاق وهمية، فكادت تضيع منها الروح. بل ظنت مرات أن روحها قد غادرتها من زمن، وما تبقى لها هو جسد؛ هو بقرة للزوج ونحلة للأولاد، لكن حتى البقر هناك من يقدسه على أرض أخرى من هذا العالم، وحتى النحل له في الأديان تبجيل!

5

شموع مشتعلة على منضدة ومدفأة حطبية صوت لسعاتها يبعث دفئا، وزجاجة نبيذ وخبز وأجبان وتين وزيتون، ثم رائحة جسد فائر يفيض ويرسل شفراته الطبيعية بغريزة الأنثى؛ شفرات تفهمها غريزة آدم منذ بدء الخليقة؛ فيستجيب وتستجيب هي أيضا.

لم يكن يخطط لأكثر من قضاء وقت طيب معها، يدردش ويضحك ويجيب على الأسئلة المؤجلة، وهي لم تفكر في أكثر من صحبة ودردشة ممتعة برفقته. وقفا دون سابق إنذار كحيوانين سيتصارعان. مزع كل منهما ملابس الآخر في وحشية متناغمة. كانا يستمتعان في شغف بفعل وصوت التمزيق. كأنهما يمزقان هذه المدَنيّة التي ارتدياها، عادا بالعُري إلى

الكهف الأزلي للبدائية الأولى. شدها فأطاعت، شمها فانفلتت، احتواها بذراعه بقوة فاستسلمت، واختفى فيها ملتحما واحتفت بجسده متنعمة. لم يكونا ثملَيْن ولا محرومَيْن، بل شعرا أنهما يتخلصان من ثقل لا دواء له إلا بهذا التمزيق الكامل وهذا العري التام!

لم يكن المطر قد توقف حين غادر آدم المتحف. خرج متخففا نسبيا بما قاله لأوليفيا لكنه شعر بمرارة من لقائه بها. لقاء أحس كأنه تأخر لدهر كامل. لم يرغب في ركوب الترام إلى بيته. فضل أن يسير تحت المطر، ربما ليغسل به ملامح لقاء غير متوقع باغته ذاك المساء. رفع مظلته وعبر مجمع الفنون في اتجاه بيته. سيحتاج لربع ساعة بخطوة سريعة ليكون في البيت.

في وقفته عند أول عبور للمشاة وقفت إلى جواره هانيلوره. حيته بفرح كبير بل قبلته على وجنتيه للمرة الأولى، فهي لم تره منذ زمن طويل. ذكر لها أنه عائد إلى البيت ماشيا رغم المطر. استحسنت الفكرة وطلبت أن ترافقه إذا لم يكن لديه مانع، فهي في طريقها للقاء صديقة في مقهى "شيلينج" في الحي نفسه. يكره هذا النوع من الأسئلة المؤدبة التي تجبره أن يكون ودودا في الرد وكاذبا على رغبته في آنٍ. أومأ برأسه موافقا.

كانت هانيلوره قد حضرت له منذ سنوات قليلة دورة تدريبية للهواة لإعادة تجليد الكتب القديمة وتصنيع دفاتر بشكل فني جميل وإعادة تصنيع الأوراق من ورق الصحف. التقى بها عدة مرات في مقهاه الأثير

قرب المعهد بالصدفة، ربما لم تكن صدفة وكانت مرتبة بشكل يجعلها تبدو كذلك. منذ اللقاء الأول بدأت تسرد له تفاصيل بؤس حياتها مع زوجها، عن تغيره عن السنوات الأولى بعد زواجها السريع منه، حتى إعجابها بفحولته وتوقها الشديد لممارسة الجنس معه نهارا وليلا، تحدثت عنه بلا حرج. رغم أنها في الدورة التدريبية لم تكن تثرثر أو تخرج عن الأسئلة الجادة، كانت تتمتع بكياسة وانضباط يستغرب فيه حالة البوح التي تنتابها عند كل لقاء وحدهما، يتعجب من انطلاقها معه في الحكي عن خصوصيات حياتها بتحرر كبير وهي لا تعرفه جيدا. لم تكن مبتذلة أو حمقاء بل تحكي حياتها بصدق وتوجع، لكنه ظل متوجسا من اختيارها له وحريصا على التحفظ مكثرا من وظيفة أذنه مقللا من وظيفة فمه.

يدرك وجود أشخاص يشعرون بميل طبيعي لآخرين بعينهم، يختارونهم بمجسات أمان مرهفة، ليفضفضوا معهم في أدق الأسرار عن ثقة فيهم ورغبة في التنفيس عن كبت وإحباط يكادان يشلان الروح!

ثرثرت طويلا في الطريق القصير. قالت إنها انفصلت عن زوجها قبل خمسة أسابيع، ورغم أهمية الموضوع، استمع لها بنصف انتباه على غير عادته؛ فحالته لا تسمح بالنصيحة ولا حتى بالإنصات الكامل. ظل كل نصف دقيقة يومئ برأسه أو يسأل أسئلة مقتضبة بطرح أداة السؤال فقط من نوعية: لماذا؟ وكيف؟ التي تتطلب إجابات مسهبة حتى يتسنى له أن يسير مع أفكاره في شبه سلام!

لا يعرف أين بالضبط ولا متى انفصلا، وسار كل منهما في طريق،

ولا حتى كيف كتبت له رقم هاتفها في ورقة دسها في جيبه بما تبقى من تركيز، طالبة منه أن يتصل بها مرة لو أمكنه من أجل لقاء سيسعدها؛ فأومأ برأسه موافقا.

وصل إلى البيت. يسكن في الدور الأخير من مبنى حديث نسبيا ذي سقوف واطئة، الدور الثالث عشر. يرى تقريبا فيينا بكاملها من شقته. يحب الوحدة والتأمل، يعشق رؤية الأسطح القرميدية للبيوت بلونها الأحمر القاني المائل للبني صيفا، والناصعة البياض من تراكم الثلوج شتاء. يحب أن يرى الأفق الأخضر البعيد المرتفع لغابات فيينا. يشعر بارتياح أصيل بداخله حين يرى حدود المدينة من مكانه، كأنه يرى حدود بيته ويطمئن لمسافاته. شقته هي عشيقته الأثيرة، يسكن فيها وإليها، هكذا يقول لأصدقائه. يقطنها منذ أكثر من ثلاث عشرة سنة. هو الساكن الأول فيها، وتشعره هذه البكارة بنوع من الانتماء والامتلاك.

عندما فتح الباب استقبلته إيزيس بالمواء الممتد الطويل كشكوى عن غيابه، ثم باللف حول قدميه والتمسح بساقيه شوقا لحضوره، اضطر كدأبه أن يتمهل في خطواته لكيلا يدوس على طرف لها، كلمها كمن يحادث طفلته معتذرا لها عن التأخير واتجه فورا نحو المطبخ. فتح لها علبة طعام وقرفص بالقرب منها، يمسح على شعرها ويسمع قرقرة سعادتها بوجوده وبطعامها الطازج. يعوضها دائما عن غيابه الطويل بمثل هذه اللمسات وبهذا الكلام. في وجودها يشعر بروح داخل شقته، روح تنتظره وتسعد بحضوره، حتى لو كانت روح حيوان. يطلب دائما من جارته فراو

بيليكان[1] أن ترعى ايزيس في سفره وأحيانا في تأخره عن العودة.

فراو بيليكان امرأة فاتنة في الأربعين تقريبا، لها جمال وسط أوروبي ملفت، طبيعي وغير مفتعل، بسمتها شفافة مرتاحة تأسر الناظر إليها حتى قبل أن تنظر إليه، وكلما أخفت إشراق جسدها عن لوثة الأعين المتربصة بانت أكثر ألقا دون أن تدري، رغم بساطة أناقتها وذوقها العالي بلا بذخ. آدم كان يستغرب من وحدتها في جمالها وعنفوانها بلا شريك. تشبه الممثلة البريطانية "كيت إليزابيت وِنْسلْت" بطلة فيلم "تايتانك"، تبدو فقط أكثر امتلاء لكن لها الابتسامة نفسها والملاحة نفسها. تعيش ميسورة الحال ومكتفية بنفسها وبرعاية قطها "ليرْم" [2]، أسمته بهذه الاسم لأنه يقرقر طوال النهار والليل، في صحوه ونومه، بصوت أعلى من القرقرة المعتادة للقطط، وهوايته الأثيرة هي الصعود للمكتبة ودفع الكتب إلى الأرض ثم الهجوم عليها وتمزيقها، ربما تعويضا عن فرائس تحوم في غريزته ولا يعثر عليها في هذا المكان، أو قيامه بفتح دواليب المطبخ وإسقاط الأواني والحلل والجلوس داخلها. يقوم طوال الوقت بحماقات ذات ضجيج، وله صوت عجيب حين يموء؛ صوت خشن وطويل يثير عطف ومحبة فراو بيليكان له أكثر، ويثير استغراب وضحك الضيوف. يشغل فراو بيلكان مثل طفل شقي لا يهمد، ويبدو أن هذا هو أكثر ما يجذبها فيه ويجعلها تشعر بضجة الحياة وحيويتها في شقة هادئة في الدور الثالث عشر.

---

(1) Frau (فراو) وتعني بالألمانية السيدة.

(2) Lärm وتعني في الألمانية ضجة أو ضجيج.

تمتلك مكتبة لبيع الكتب قريبة من السكن، وتعود بانتظام يوميا في فترة راحتها من الثانية إلى الثالثة لترعى القطتين: إيزيس وليرم، وتُعتبَر صاحبة آخر مكتبة لبيع الكتب في الحي، ورثتها عن أمها وأبيها اللذين عاشا الفترة الذهبية للمكتبات في نهاية القرن الماضي قبل ظهور الطلب الالكتروني الأرخص عبر الانترنت وخصوصا "أمازون" وسطوة المكتبات الضخمة. ليس لديها أطفال، تزوجت مرة وانفصلت، وعاشت فترة مع رجل اختفى من حياتها بعد عام تقريبا، فعاشت منذ ذلك الحين وحدها. تبدو في حال أفضل وأزهى كلما بعُدت عن الرجال أو بعُد الرجال عنها.

كثيرا ما يلتقي آدم بفراو بيليكان في شقتها أو شقته، يشربان قهوة أو نبيذا معا أو يتناولان وجبة خفيفة، أو يشاركها مناسبة لديها أو العكس، انسجامهما كان يوحي دائما للضيوف أنهما زوجان أو حبيبان أو تربطهما علاقة خفية ليس من فضول أحد الاستقصاء عنها. لم يعرف أحد أن العلاقة توطدت بينهما بهذا التقارب الفريد المحايد منذ ست سنوات هي عمر إيزيس، دون أن تتطور تجاه قلب أو جسد. بقيت علاقة واضحة ومتينة وعميقة دون غوص أحدهما عميقا في أسئلة خصوصية، وإن كان كل منهما منصتا جيدا لفضفضة الآخر. كأن بينهما دستورا خفيا بالحياد التام للصداقة والجيرة وعدم الانحياز للفضول المزعج، شعرا أنهما لو تجاوزا هذا الخط المريح فسيخسر أحدهما الآخر تدريجيا.

* *

يعشق آدم الرقم 13 منذ صغره، ويسخر ممن أصيبوا بالديكتروفوبيا

الذين يتشاءمون منه، وممن يتجنبون أن يحمل منزلهم هذا الرقم أو غرفهم في الفندق أو أي مكان يحمل الرقم 13، فهناك الكثير من الأساطير والحكايات المرتبطة بهذا الرقم. يقول البعض إنه يرجع إلى السريان أو إلى روما القديمة حين كانت تجتمع الساحرات في مجموعة تضم 12 ساحرة والشيطان هو الثالث عشر، وهناك توافقات كثيرة لكوارث حدثت يوم 13 من أي شهر، أو في عام 13 في سنة ما، أو عند الرقم 13 بأي شكل كان، وينسى الناس أن هناك كوارث أكبر – تحدث كل ساعة وكل يوم وعام – لو تم تجميعها لتشاءموا من كل الأعداد وكل المواقيت والتواريخ بالصورة نفسها، هو يرى هذا الرقم على عكس المتشائمين، فقد ولد في الثالث عشر من يناير، ووصل إلى فيينا في يوم الثالث عشر من ديسمبر وأنهى أطروحته في يوم الثالث عشر من مارس. وحصل على عمله يوم الثالث عشر من يناير أيضا، كلها صُدَف تاريخية ناسبت هذا الرقم، أو ربما ترتيبات لأقدار أعلى، لكنه بات يعشق الرقم 13 ويدافع عنه أمام من يحمّلونه الشؤم والكوارث.

تفاءل خيرا حين سكن في الدور الثالث عشر!

لقاء أوليفيا أثار في نفس آدم المواجع، وأفقده شهية العشاء، مع أنه كان قد جهز لنفسه في اليوم السابق وجبة سمك "شيطان البحر" التي يحبها. كان يشعر بعد انتهاء عمله بشهية كبيرة قبل أن يجلس في المتحف. وقف في المطبخ يراقب إيزيس وهي تأكل، ثم توجه لغرفة الخزين الصغيرة

المواجهة للمطبخ، وسحب زجاجة نبيذ أحمر، دون أن يقرأ اسمها على غير عادة منه. فتحها وذهب بها إلى الشرفة، وضعها هناك على المائدة وتركها لتتنفس كما يفعل دائما مع النبيذ الأحمر. عشر دقائق في الهواء الطلق، تمنح النبيذ الجيد مذاقا أصيلا. ليس متأكدا من صحة هذا التصرف لكنها عادة في هذه البلاد، بالاعتقاد أن مذاق النبيذ يكون أفضل بعد فتح الزجاجة وتركها لبضع دقائق. أحضر كأسا وعاد، صب قليلا وتذوق، ومع الجرعة الأولى شعر أنه يتذكر هذا الطعم الذي أحاله فورا إلى مكان بعينه لا تخطئه ذاكرته:

"لاكْروسْتَه.. لاكْروسْتَه.. كارميليتا.. البيرو بيللو.. تروللو!"

حين نطق هذه الجملة المفككة بصوت عال، بدا كأنه يتحدث الإيطالية بطلاقة أو كمن يقوم بدور في مسرحية، لاسيما حين لوَّح بيديه في الهواء، أو كمن يسرع بإجابة في فصل مدرسي أمام أستاذ. هو لا يجيد الإيطالية، فقط يعرف أسماء معظم الأطعمة الإيطالية ويزور المطعم الإيطالي في فيينا بانتظام، وهو أَحَبّ المطاعم لديه.

ذكرى اليوم الذي حصل فيه على هذه الزجاجة من كارميليتا الإيطالية تجلى في ذاكرته ولسانه بوضوح؛ تلك المترجمة البارعة. كان في مؤتمر للمخطوطات في مدينة "تورينو" وكانت معرفته الضئيلة بالإيطالية تكفي فقط لتحية قصيرة أو لطلب وجبة ومشروب في مطعم لا أكثر. كانت كارميليتا مسئولة عن الترجمة للضيوف المتحدثين بالفرنسية، وكان يحسن الفرنسية، فانضم إليهم للاستماع للترجمة، استلطف لكنتها

الإيطالية في اللغة الفرنسية، وعابثها مرات بلطف لأن التبليم والخمول كانا مسيطرَيْن على الفريق الفرنسي والسويسري والكندي بكآبة قابضة للنفس رغم إثارة الموضوعات وثرائها. بدت كأنها تترجم في جنازة.

أثناء الغداء جلس إلى جوارها متعمدا. خشي أن يتناول طعامه جالسا جوار واحد من هذه المجموعة في جو أكثر كآبة مما عاشه معهم ومعهن، كانت مثله تحب الدعابة والمزاح اللطيف. في العشاء جلست تلقائيا إلى جواره بلا استئذان، فراق له ذلك. قال لها:

"كنت قد قررت أن أبقى في المدينة أربعة أيام إضافية بعد المؤتمر، وقد خططت لزيارة جنوب 'باري' وخصوصا منطقة 'ألبيرو بيللو' التي قرأت عنها وعن بيوتها العتيقة الفريدة وأتمنى أن أقيم في واحد من هذه البيوت التي تسمى (ترو للو)[1]

ضحكت كارميليتا بصوت عال وباندهاش، فانتبه الجميع. اعتذرت، وبينما هو مستغرب من ضحكتها المفاجئة ومراجِعٌ كلامه سريعا عسى أن يكون قد زل في القول أو تسبب في سوء فهم - بادَرَتْه:

(1) بيت ريفي صغير جدا، يتألف من حجرة واحدة أو حجرتين صغيرتين في الغالب، مبني على طريقة عتيقة كانت في القرن التاسع عشر، في مقاطعة باري في جنوب إيطاليا خصوصا في منطقة ألبيروبيللو (alberobello) يسمى ترو للو (trullo) والجمع ترو للي (trulli) وهو في شكل كوخ دائري سقفه مخروط الشكل من الحجر. كان قديما يستخدم كمخازن أو لإيواء العمال الزراعيين أو كمساكن لصغار الملاك. الآن تم تطويره ليحتفظ بنفس شكله الخارجي، لكن من الداخل تتوافر فيه كل الاحتياجات الحديثة. ويعتبر من معالم السياحة في هذه المنطقة.

"لن تصدق! أنا مولودة في 'ألبيرو بيللو' ولي أقارب كثيرون هناك. وعمتي تمتلك ثلاثة من هذه البيوت 'التروللو' تؤجرها للسياحة.

نظر آدم إليها متوجسا وسعيدا ومرتبكا ولا يعرف ماذا يقول من الدهشة؛ فتابعت:

"لو أنك لا مانع لديك فسأتصل بعمتي أنطونيا لأسألها إن كان أحد البيوت خاليا في الوقت الحالي؛ فنحن في عز الموسم السياحي، وسوف أتوسط لك لتعطيك سعرا مخفضا، لا تقلق!"

"هذا رائع! موافق طبعا!"

"ولو لن تمانع، فيمكنني أن أرافقك إلى هناك لترى المنطقة التي أعرفها أفضل من لغتي؛ ففيها عن حق ما يستحق أن يُشاهَد، كما أن لدي إجازة لأسبوع كامل بعد المؤتمر، لم أبرمج فيها أي شيء وما دام معك سيارة، فهذا سيسهل الأمر كثيرا.. ما رأيك؟ هل هجمتُ عليك بلا توقع؟"

"بالعكس.. بالعكس. أنا سعيد للغاية!"

"إذن اتفقنا.. سأتصل بها حالا.

ضحك يومئذ في سره من هذه الصدفة التي تبدو تماما كتلفيقات الأفلام، ولكن أليست الحياة كلها تلفيقات، منها ما يتوافق فينسجم ومنها ما لا يأتلف فينحل، ما المانع من تلفيقة قدرية لا تضر أحدا. اتصلت

كارميليتا ذاك اليوم بعمتها بلهجة غنائية سريعة، وهو يتأملها ويبعد عن ذهنه أفكارا شريرة ناعمة تسللت إلى مخيلته.

في الشرفة في بيته العالي في فيينا، انتهى آدم سريعا من احتساء الكأس الأولى بمزاج شاهق، فعاد عبر الطعم والذكرى إلى هذا الأسبوع العذب الذي لن ينساه. قضى أحلى الساعات في جنوب إيطاليا بصحبة كارميليتا وأجّرت له عمتها هذا "التروللو على الهضبة العالية المتاخمة لحقل التين الواسع وشجيرات الزيتون. وأشرفت بنفسها على تجهيز مشروبات وأطعمة محلية طازجة له طوال فترة إقامته.

في المساء الأول قدمت له العمة نبيذا محليا لم يرق له، فلم يشرب منه إلا رشفة واحدة، ولأنه تعود ألا يجامل أحدا فيما يدخل بطنه ولا ما يدخل رأسه مهما كان، فقد أزاح الكأس برفق بعيدا وارتجل سؤالا عشوائيا يسد به ثغرة مباغتته هو بسؤال عن مذاق النبيذ، فهو لا يرتاح لطعم النبيذ اللاذع بل ينسجم مع الطعم الملتئم المكتنز الخجول المختلس، هكذا وصف آدم لكارميليتا النبيذ المفضل لديه بكلمات بدت عجيبة لكنه لم يخترها عشوائيا. فهمت كارميليتا وخففت من إلحاح العمة المتوقع بجودة النبيذ ومحليته، وأحضرت له بنفسها في اليوم التالي بعض الأجبان و"الباجيت" - هذا الخبز الايطالي الشهير الذي يعشقه - وزيتونا وتينا مجففا وعين جمل ومعها زجاجة نبيذ أحمر (لاكْروشْتَه). ومع الجرعة الأولى من النبيذ انفرجت أسارير وجهه وجسده كأنه عبْر هذا المذاق قد عثر على ضالته. سمّى كارميليتا منذ الليلة الثانية ملاك لاكْروشْتَه. أعجبتها مداعبته. شربت معه وحكت له عن مكان هضاب الكروم التي يُصنع منها

هذا النبيذ. قضيا وقتا مرحا خفيفا هنيئا امتلأ بكثير من الأسئلة وأشباه الأسئلة وكثير من المناورات الخجولة والإجابات المؤجلة، ثم قبّلته على وجنتيه ثلاث قبلات قبل الوداع وانصرفت.

عاد ليأخذ حماما حارا في البانيو لينعسه. حمل معه كأسا من النبيذ وجهاز سي دي يستمع عبره لموسيقى فيردي الإيطالية وضع أسطوانة موسيقى الشراب (لاترافياتا) التي ناسبت حالته بامتياز، كما حمل صورة لمخطوطة نادرة تحتاج إلى جهد وزمن في الترميم، كان قد صورها في فيينا لكاتبة مجهولة اسمها زينة بنت النّعّام، وجد لها مجموعة نادرة من الكتابات الجنسية التي لا يعرفها أحد، ولسبب ما تم إخفاء المخطوطات التي كتبتها لزمن طويل، ومن وثيقة الانتقال والبيع الموجودة على بطن الكتاب من الداخل، وضح أنها انتقلت لثلاثة مشترين امرأتين ورجل، والأخير هو التاجر الذي يرجح أنها انتقلت على يده إلى أمير عثماني لم يكن يحسن العربية، لكنه اقتناها بسبب الزخارف الجميلة التي تميز أغلب صفحاتها. صوَّر آدم المخطوطة التي تحمل عنوان: (إعانة النساء في الكفاح على شهوة النكاح) كانت المقدمة تبدأ بالقول:

(الحمد لله الذي خلق خلقه خلْقا قادرا حليما حكيما حاكما لطيفا منعما....

لم أنو ولا أرتضي بتأليفي إثما في العرض ولا إفسادا في الأرض ولا تأييدا في معصية المهيمن ولا إحلالا لما حرم الباسط، بل غوثا لمن قصرت شهوتها عن بلوغ أمنيتها في الحلال وأملها في عمارة دنياها بالبنين والبنات فلا خلاعة في المرصود بل شفاعة من المقصود وقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة أقسام.... إلخ) قرأ آدم

بانبهار كبير لطريقة السرد والجرأة والتمكن والعلم، حتى وصل إلى مقطع أثار إعجابه في حديث تقول فيه بنت النّعّام التي تخاطب المرأة من أول المخطوطة لآخرها بكلمة: (يا نعمة الحياة) تقول: **(يا نعمة الحياة! لا تدَعي رجُلك الذي يشمك بهيجان في جنون الجان ينصرف عنك قبل أن تجعليه يدمنك فيتبعك وينفعك. ضميه ولمّها بأطرافك، لا تفكيه حتى تستلذ أواصرك منه، دعيه ينعم في نعمة نعومتك، ويتعشق في مضاجعتك فتسلبينه سلبا، افتحي له ثغرك عند القرب ببسمة قبول وفرجة غنج، مثلما يتفتح فرجك الطالب للذة الحكّ وهزة الدكّ، وبوحي له برفثك وتحرهي، اتركي له لسانك يمصه ويلحس منه شهد الرضاب، وروحي في شبق الغياب أسيرة وآسرة حين يبحث فرجه عن فرجك، ادّعي الهرب والتملص في تغنج؛ فهذا أبغى الألعاب وأشهاها لك وله، ثم اشهقي بشكل حين يرشقك في شقك، ودعيه يعاين حلقك الثائر ليثور ويخور، وارهزي لمنتهى الارتهاز، ثم اتركي عتاب عينيك دلالا يخدر فحولته بالربط والحزم وما هو بمسيطر. سيكون طيعا لينا كالعجين، وجمرا كالنار، وقتها يمكنك أن تقلبيه تحتك، تركبيه وتنكحيه وتطلبيه بلا نهاية، وسيستحسن منك ذلك ويستطيب ويستلذ طالبا المزيد، وجربي أن تتمتعي بهزات بطنك على بطنه، وافرجي فرجك على فرجه وفرّجيه وفرّحيه، اجعليه رحى لمطرحتك واصحنيه واطحنيه وابتلعي ذكره بنداوة وردتك، واعصريه عصرا حتى يتأوه في عذوبة العذاب، وعضيه في كتفه كما اللبوءة عند الذروة بالسن والأنياب، وثبتيه بيديك من صدره وكتفيه وذراعيه وخربشي برفق ما يتاح لك من بشرته، ومصمصي أصابعه التي عند وجهك، وارمي شعرك عليه كشبكة صياد ليعتاد، وانهجي وارهزي واركزي وانغزي وتلذذي في غمس لذتك بلذته، وهمهمي وحمحمي في صهيل وشخير ونخير ورهْز، ولا تتركي له**

فرصة ليطلع من خدره إلا وهو يجاريك جاريا خلفك جري الوحوش، يلهث منك وتلهثين به بلا نهاية. طاوعيه وانطوي فيه فيطيب لك فحلا سهلا متاحا، هذا هو العشق العاري الباري الساري الجاري الضاري الناري؛ الوله الماجن الساجن الماحن الداجن الشاجن العاجن؛ القاتل في أبهى حلل الهلاك حين يكون الهلاك أحلى فنون الفناء في لذة الإغفاء والهناء، و...)

برد ماء البانيو دون أن يشعر من شدة استغراقه في إعادة قراءة مقاطع بعينها لمرات. أضاف ماء ساخنا حتى انسجم جسده في حرارة المياه من جديد. أعجبته هذه الجرأة في الكتابة في قرون ولت. استغرب من أن كل هذا التراث الجنسي الرفيع في الأدب قد غاب أو ضاع مع الزمن، وصار فهم مغزاه مستغلقا على عقول امتلأت بتحوير كل ما يتعلق بالجسد إلى التحريم والفضيلة وكل ما يتعلق بالروح إلى الغيب. وجاء من طمَس الأدب بحجة انعدام الأدب، وأصبح الحادبون على محوه هم أكثر الناس شغفا بمطالعته والحديث عنه وتمريره لبعضهم سرا وبقراءته دون فهم ودون متعة عقلية أو جسدية، بل متعة من يفك أسر رغبته سرا بالعادة السرية. استغرب أنه عاش في زمن دجنه هو أيضا كرجل فإن خرج عن مسار العادة والتقليد صار غريبا، زمن طبعه بطبع خرَّب الكثير من سليقته.

قام من البانيو مرتخيا بالراحة، جفف جسده وهو في هالة من الدفء تسرّ وتسري لكل أطرافه. غسل أسنانه واتجه إلى السرير متنعما، أراد أن يستكمل القراءة لكن خفوت الضوء في الغرفة عَسّر الفكرة، لم ييتئس بل تمدد في نعمة الكسل، ركن المخطوطة على المنضدة الواطئة جدا ونظر إلى الساعة و لم يستطع تحديد الوقت، أطفأ النور، وانداح بخفة إلى نوم لذيذ

من أثر الماء الحار وطيب الخمر. راح في حلم شده معه تحت الغطاء. نام كطفل تجرع وجبته من الحليب بعد يوم من عافية الشقاوة، غفا محلقا في السماء السابعة فورا. تذكر حلمه في اليوم التالي بتفاصيله كواقع حدث.

جو الترولو العتيق والشموع المشتعلة على المنضدة والمدفئة الحطبية بصوت لسعاتها الذي يبعث الدفء، وزجاجة النبيذ والخبز والأجبان والتين والزيتون، ثم ظلالهما التي تتلاصق معا في الخلفية على الحائط وتفترق بانسجام، ثم رائحة كارميليتا التي تهفهف في كل لفتة وكل قيام وكل جلوس، رائحة طبيعية ممزوجة بشذى بستان ورود، رائحة الجسد الفائر وهو يفيض ويرسل شفراته الطبيعية بغريزة الأنثى؛ شفرات تفهمها غريزة آدم منذ بدء الخليقة؛ فيستجيب وتستجيب.

لم يكن آدم يخطط لأكثر من قضاء وقت طيب معها، يدردش ويضحك ويجيب على الأسئلة المؤجلة، لكن الملاك الساكن بداخله كان يتبدل لشيطان الشر اللذيذ، يوجهه لما ينبغي أن يُسطَر في مخطوطة حياته. كارميليتا أيضا لم تفكر في أكثر من صحبة ودردشة ممتعة برفقته، فعقله يحتضن عقلها وعقلها يميل لعقله، والجسد سيبدأ من تلك اللحظة مخيَّرا لينتهي مسيَّرا، لكن قدرا منتظرا جمعهما الليلة في هذه الغرفة الضيقة. ظلالهما على الحائط بدأت في الضم والتمازج بلا انتظار، أشباه لهما على الحائط تقوم بدورها دون موانع ولا معوقات. دون سابق إنذار وقفا كحيوانين سيتصارعان، مزع كل منهما ملابس الآخر في وحشية

متناغمة. كانا يستمتعان في شغف بفعل التمزيق وصوته. كأنهما يمزقان هذه المدنيّة التي ارتدياها تدريجيا منذ قرون و لم يرتضياها في عمق الغريزة والفطرة، عادا بالعري إلى الكهف الأزلي للبدائية الأولى. شدها من شعرها نحوه شدة رغبة، فأطاعت برضا وهو ينفث فيها ناره كتنين. في هذا الهدوء الشامل كانت المدفئة الخشبية تطرقع بلسعاتها. وفق نغمات أنفاسهما اللاهثة. شمها آدم كأنه سحبها إلى رئتيه وزفر فيها زفرة هائجة، صارت تسب بطريقة غجرية، لا تسبه هو، بل تسب كل ما يعوق هذا الانفلات اللذيذ، تنطق ألفاظا بذيئة بالفرنسية لم تنبس بها في حياتها، أثارته بانفلاتها المفاجئ القذر البذيء العالي الصوت، فاحتواها بذراعية بهيجان مارد متوحش وعلت أنفاسه بشخير الشهوة، فاستسلمت. انزاح بها نحو الحائط في رقصة عنف، وظلهما الواحد المتضخم خلفهما يصغر حتى اختفى خلف ظهرها الملتصق بالحائط، بعد أن قام بدور الملقن والمهيئ وانصرف؛ اختفى آدم فيها ملتحما واحتفت هي بجسده متنعمة.

لم يكونا ثمليْن للاعتقاد بأنهما تمازجا بلا إرادة ولا محروميْن لمجرد انتهاز فرصة سانحة في الخفاء، بل شعرا أنهما يتخلصان من ثقل لا دواء له إلا بهذا التمزيق الكامل والعري التام وبالتلاحم الكامل والتحرر التام، من سطوة المكبوت المنغّص الخفي رغم كل هذه الحرية المطلقة!

* * *

استيقظ آدم مبكرا جدا وبقايا حلم منفلت نادر أشعره بإرهاق يدغدغ كل عضلات جسمه في لذة مخدرة. وجع حلو جعله يفكر في التراجع عن

الصحو والاستسلام للكسل والرجوع من آخر الحلم لأوله. ابتسم بامتلاء رجل متوازن ريان. لكنه لم يكن حلما، فكارميليتا متوسدة بالفعل أول كتفه وصدره، وجهها مختف تحت شعرها الطويل المنكوش يرسم لحكاية تمت أو ستبدأ. أنفاسها خافتة هادئة مستكينة. رفع شعرها عن وجهها فطالع ملامح وجه مرتو باسم. لثم جبهتها برفق فتمددت كقطة ثم التأمت كلها في جسده محتضنة إياه كجزء منها وراحت تستكمل بقية نعاسها أو حلمها.

* * *

تمنى آدم في لحظة الصحو هذه ومع الواقع الحي الذي يتوسد صدره، أن تكون رفيقة حياته - حاليا في فيينا هي مارتينا ماريا إليزابيت - وهذا اسمها الثلاثي الذي اختاره لها أبوها وأمها وجدتها لأمها، كلٌ باسم مختلف، تمنى أن تكون هي من يحتويها في صدره بهذا الإحساس الذي غاب عنه منذ أزل، تمنى أن يصحو يوما وهما معا في نعمة الجسد الواحد. لم يحدث مع مارتينا، على مدى ثلاث سنوات وسبعة أشهر، مثيل لهذا السكون والنعيم والدعة التي يشعر بها مع كارميليتا. لم يحدث مرة أن خرجت مارتينا عن المألوف أثناء لحظاتهما الحميمة وعريهما التام وممارستهما لأجمل متع الحياة. حاول حوالي مائة وثماني وستين مرة، يكاد يحصيها كلها بدقة، أن يجعل هذه اللحظات معها مبتكرة مبهجة ومنفلتة من أي قيود، إلا أنها تصر في تكرارها لمباهج السرير الذي يضمهما على روتين مزمن، حتى يكاد يشعر أنه نام معها مرة واحدة وبطريقة واحدة فقط، تتكرر بالصورة

نفسها كحلم عبثي لا يفارق؛ كأن المرات كلها اختُصرَتْ في مرة واحدة تعددت في مواعيد صارمة محسومة بيومي الجمعة والسبت في أيام الرخاء، أو يوم واحد منهما في أيام الضرورة، ونادرا ما تخطئ وتسمح في غير أيام الإجازات؛ فإن أرادها في غير هذه الأيام تتملص وتذكره بأنها أيام عمل لا يصح فيها المضاجعة، وإن اشتهاها نهارا تستغرب من طلبه في النور بحجة أن الليل لم يحلّ بعد، وإن طلبها وهما في فندق أو في بيت أهلها تلومه بأنهما في مكان غريب. لا يعرف من أين أتت بهذا الناموس العجيب. لم ترتو عيناه باحتساء عريها وضاع حق نظره المشتهي إليها. كان يتمنى ولو مرة واحدة أن يتأملها ويضاجعها ولو في ضوء خافت، بينما هي ترتب دائما وبانتباه حازم لظلام تام، بل توئد حتى ضوء شمعة لو وُجدَ بالصدفة.

كانت مارتينا آية جمال يحسده عليها كل من يراها. كل ما فيها يذكّر باللوحات البديعة في القرن التاسع عشر لنساء الإمبراطورية النمساوية المجرية. جسد عفي متناسق ورشيق، بصدر نافر جميل الاستدارة ووجه حالم تزينه عينان واسعتان بزرقة سماوية صافية وأهداب طبيعية طويلة، الوجنتان ورديتان والنمش الدقيق المتوزع على جسدها بشفافية يزيدها رقة ويظهر صفاء وجهها الناعس، ولكنها لا تقدم على ترجمة هذا الجمال الملائكي الممنوح لها بإفراط في تواصل طبيعي يمنح آدم البهجة، حاول بكل الطرق أن يتحايل على جمودها لكنها تشبثت بموقع التحفظ. تربية أمها الصارمة لها أفقدتها معنى الاندماج مع الزوج الذي يحبها وتحبه. ونظام جدتها الأزلي في فنون النظافة والترتيب خلق منها شخصية

همّ حياتها التنظيف من المهد إلى اللحد. تقوم بترتيب الشقة وتنظيفها بشبه عصاب مرضي. تكاد تجبره على تغيير ملابسه كلها مرتين يوميا حتى ولو لم يغادر البيت، كأن الملابس لها صلاحية الارتداء لساعات محددة. ووظيفتها - بل لنقل هوايتها - تكاد تنحصر في الغسل والكي أكثر من الجلوس إليه والحديث معه أو مشاركته في إحدى هواياته المتعددة. ما إن ينتهيا من تناول الطعام حتى تنهض فورا لغسل الأطباق والأكواب وتفريغ المائدة ومسحها كأنها تعمل في مطعم. لو تجاوز وغسل الأطباق والأكواب قبل مجيئها ليمنحها راحة ووقتا تقضيه معه، تتذمر وتعيد غسل كل ما غسله بحجة أنه لا يحسن غسل الأشياء كما يجب. تنام مبكرا جدا وهو يعشق السهر والقراءة، فيضطر للبقاء في منأى عنها لأنها تكره الضوء وصوت تقليب الصفحات أثناء نومها. هو يحب السينما والمسرح وهي تعشق التلفزيون، يحب الموسيقى وهي تحب الأوبرا، يعشق زيارة المعارض والمتاحف وهي تفضل تكرار مهمة بيتية غير ضرورية، يشاركها أحيانا فيما تحب لكنها تشاركه نادرا فيما يتمنى، ولو فعلت يشعر بمدى تضجّرها، فيفضل أن يكون بدونها. يحاول بصبر هائل أن يجد مشتركات لتقريب الحياة وإشاعة البهجة في محيط تواجدهما لكنه يخفق على الدوام. ارتضى بالواقع، فهي لم تكن مقيتة الطبع ولا جلابة مشاكل، لكن روتينيتها خلّفت مع الزمن مسيرة بلا طعم وتكرارا مملا، وهذا أكثر ما أقلقه في هذه العشرة. كان يتمنى منها أن تفاجئه بتصرفات تثير المرح في خاطره، لكنها كانت تسير على نهج محفوظ في كل خطوة مثل مسيرة قطار لا يغادر قضبانه. في النهاية، بدأت روحه تخشى تسرب الملل إليها؛

فصار يتجنب مراجعة حياته معها؛ فإخفاقات الماضي في هذا المضمار لم تكن قليلة!

كان يعجه شعوره بأنها تتيح له جسدها ليعبث فيه كيفما أراد لثلث ساعة أو نصف ساعة، مثل رضيع عند ثدي أمه يعبث في شعرها ووجهها قليلا ويرضع وينام. بعد اللقاء تهرع فورا للاستحمام كمن كانت تمارس رياضة. تعود لتغير ملاءات السرير بعد أن تطرده برفق منه فيضطر للذهاب للاستحمام، حين يعود للسرير كأن حدثا بينهما لم يحدث، وتختفي الكرمشات التي يعشق أن يراها على الأقل كآثار طفيفة عن معركة حب كانت! لم تكن مارتينا جافة ولا باردة المشاعر، بل يبكيها أي طفل يبكي أو أقل مشهد مؤذ ولو في فيلم، لكنها في تواصلها الحميم معه تبدو متحفظة في لحظات لا تتطلب إلا الانفلات، تكتم بيدها صوت وصولها للأورجازم وهو يتوله لصوت ذروتها الذي يهفو لسماعه مرة!

شعور جسدي عميق يغمره بالهناء عند استيقاظه وكارميليتا مستكينة في حضنه لا تفلته، يشوبه إحساس بارتباك في أعماق خاطره البعيد؛ فبينما جسده لا يشعر بأي ذنب مرتكب، كان عقله لا يتوانى عن رمي أسئلة ثقيلة مركونة، لا يعرف من أين تفر هكذا كفئران مذعورة من سفينة ستغرق، تكد حدة الأسئلة تؤرق متعة اللحظة وتفسد فرحة قلبه ونعيم جسده!

* *

قضيا معا أسبوعا من العسل. أعادت له كارميليتا الثقة في أن رومانسية

العلاقة الحميمة لم تنقرض بعد. كانا نهارا يجوبان القرى والمدن يمتعان أعينهما بجمال الدنيا، يعودان ممتلئين بالحيوية وعشق الحياة، وليلا يفتحان زجاجة لاكْروسْتَه جديدة ويعيشان بين التين والزيتون والشموع المشتعلة والمدفئة الحطبية والخبز والأجبان، مع ظلال فوران الطبيعة في جسديهما على الجدران. ويبدآن طقوس المزع والنزع والغوص في متعتهما اللانهائية.

حين ودعها وغادرها، شعرا معا بحس حزين وفقْد. وعدها بالعودة ووعدته باللقاء في فيينا. تواصلا بعدها بكتابة إيميلات وبطاقات بريدية واتصالات تليفونية كثيرة.

مع الوقت، كانت الهوة قد اتسعت بينه وبين مارتينا ماريا إليزابيت ولم يرغب في أن يُخفي عنها مشاعره التي أدهشه أنها أصبحت محايدة بكل يسر، وتبخر كل ما مر بينهما وهو يستمع إلى كلماتها كأن شيئا لم يكن، عندما قرر أن يخبرها، وسألها بشكل مباشر متوقعا أنها تشعر بعكس ما يشعر به، فاجأته بأنه كان رائعا، لكن لوقت مستقطع فقط، لكن فكرة استمراره في أيامها لا تروقها، بل اقترحت عليه أن يكون رفيق الإجازات السنوية فقط، لكنه رفض هذا الوضع. لم يتطرق إلى الأسباب، ربما جُرِحَت كبرياؤه، واكتفى بما قالته كمبرر للابتعاد، تركها معتقدة أنها هي من تركته، مستمتعًا بحس دفين بأن اعترافها هذا جنبه مصارحتها بمشاعره، التي مهما تطابقت مع مشاعرها قد يجرحها تصريحه بها. هو هكذا، يرى أن الرجل يجب أن يحتال بمروءة عند الفراق، ليوحي للأنثى بمنتهى الثقة بأنها الطرف الذي قرر الترك وإنهاء العلاقة في النهاية، انفصلا

في صمت واتفاق سلمي، وبقيت بينهما مساحة ود للقاءات عابرة مع شاي أو قهوة أو أحاديث عامة لم يكن فيها تاريخ مشترك يعودان منه بأي حنين للماضي، مع الوقت صارا يلتقيان نادرا ثم بالصدفة وانقلبت صفحة كتاب العلاقة لتصبح تاريخا شبه منسي.

بعد حين وتحت إلحاح الضجر والشعور بالوحدة، قرر أن يجدد علاقته مع كارميليتا وأن يحاول تكسير جدار المسافة الذي بينهما بعد انقطاع طال نسبيا عن المعتاد. عاد التواصل فاترا من ناحيتها، أدرك هذا من غيابها عن مواعيد تواجده في الدردشة، وتأخر الردود على الإيميلات حتى رسائل الموبايل التي حمّلها شوقه ظلت دون رد. اعتقد في البداية أنها مشغولة وبعيدة عن الإنترنت. لكنها اتصلت به يوما بعد غياب تعدى الشهر، لتنبئه بأنها قررت الزواج! قالت إنها تشعر نحوه بانجذاب لم تشعر به من قبل حيال شخص آخر وإن آثاره لن تزول بسهولة، وإنها لن تنسى أحلى أيام حياتها معه، قالت كلاما يحسده من يستمع إليه، بينما كان يستمع لتمنياتها القلبية له بحياة سعيدة كمن يستمع لنشرة أخبار الاقتصاد، لم يحس بالأسى والخسارة. على الرغم من أنها بكت وأغلقت الهاتف، لأنه أدرك أنه لا معنى لكلماتها، كيف تتزوج غيره وهي تحبه هكذا! لذا لم يصنف كلماتها بعيدا عن المجاملة، والخروج من مأزق وجوده معها على الهاتف. ركن هاتفه على المائدة. لم يغلقه، كان صوت طنينه يخترق الزمن القديم ويعيده لزمن ذاب فجأة، مثل لوح جليد حُشر بالخطأ في فرن. غمره فيضان من الأحاسيس المتضاربة خلّف خليطها إحساسا غامضا، ووضعه أمام نفسه، واعترف أنه ما حاول إعادة التواصل معها إلا تحت إلحاح

الضجر، ولو ألقى القدر فتاة أخرى في طريقه الآن لما فكر في كارميليتا ولوارب الباب للقادمة الجديدة! هذا الاعتراف لم يرحه على كل حال، بل أدرك أن الفتاة التي يراها في خياله كل حين، تلك التي سيموت قهرا إذا كانت لغيره، لم يلتق بها بعد.

وبينما الأصدقاء والمعارف يحسدونه على نسائه الكثيرات وعلاقاته السلسة مع الجنس اللطيف، لم يشعر هو أبدا في قرارة نفسه بأي فخر أو تميز، بل بالعكس كان يشعر بالوحدة فور ابتعادهن، وأحيانا يشعر بها في وجودهن، فيتعلل بصداع أو انشغال أو أي حجة تخطر بباله، لا يعرف لماذا يشعر بالأسى على الرغم من تفوق علاقاته كما يقول أصدقاؤه، ربما لأن شيئا منه يكاد يضيع مع كل امرأة تفارقه أو يفارقها؛ يحس بأنه يسرّب روحه في أرواحهن ببطء ويسرف جسمه في أجسامهن مع الزمن، دون أن يتبقى له مع الوقت أي خزين من البهجة المشتركة المستمرة، بل مجرد خبرات عميقة – أو لعلها سطحية – متشظية لكنها غير ملموسة بوجود امرأة دائمة يسكن إليها!

يؤمن إيمانا راسخا بفكرة لا يعرف مصدرها، أن العلاقة مع امرأة كي تكون مكتملة لابد للجنس من دور فيها مثل الأرض الثابتة، ولابد للحب من دور فيها مثل السماء. الجنس وحده منقوص ويطفئ الشهوة إلى حين، يتكرر مثل الجوع والعطش، والحب وحده منقوص، في انتظار لحالة التوحد في الحبيب باللقاء به والفناء فيه من أجل ميلاد جديد يبعث الروح في القلب والجسم. هذا هو العشق الكامل. هذه هي المرأة التي يتمناها؛ امرأة يمارس معها الحياة بالقلب والجسم والروح.

هذه المرأة التي رسم لها صورة في خياله، في وقت لا يعلم متى ولا أين، لم تتطابق معها أي من النساء اللاتي عرفهن، حتى إذا اعتقد في البداية أن واحدة منهن تشبهها، اقترب، وكلما اقترب بهتت الصورة القابعة في المخيلة، بعد فترة يزهد البقاء معها، فأمنياته بأن تدهشه المرأة بما لا يتوقع، يجدها توقعه فيما لا يتمنى، فيفضل أن يروح للدانوب ويتأمل زرقة المياه وانسياب البجعات على النهر وينصت لضحكات الأطفال، أو يتجول في غابة تشعره بأنه جزء منها، أفضل من البقاء في مهب ريح عطر امرأة لا تشبه روحه، حاول أن يكوِّن صورة تجميعية عن صفات المرأة الحلم، المثال؛ النصف الآخر الذي خلق له منذ أن اقتطع الخالق جزءا من طين الأرض وشكّله في صورته، ثم اقتطع بعد الانتهاء من نحته قطعة طين أخرى من المكان نفسه، وقام بتشكيلها على هيئة أنثى، ثم وضع التمثالين اللينين جوار بعضهما، ونفخ فيهما من روحه، فتحرك آدم، وأول ما قام به أن نظر إلى أنثاه، ومن نظرته التي سرت فيها كالروح انتفضت، فأمسكها من يدها وانطلقا إلى البراري، هكذا هو يعتقد، أن أنثى هناك لم تخلق إلا له، باقية في ركن ما من أركان الأرض، ومصيرها الذي قُدِّر في بلورة الحياة الزجاجية، هو وحده ما سيقودهما للقاء حتمي في وقت ومكان غير متوقعين!

* *

نصف زجاجة النبيذ كان قد سرى في جسده وحوله لخدر استسلامي دافئ ومريح، لكنه في الوقت نفسه سَرَى بذهنه إلى ذكريات بعيدة، وهو

جالس في الشرفة العالية يتأمل العالم بعين محايدة لا تغوص فيما ترى، بينما تغوص العين الداخلية بعيدا إلى أروقة النفس وتفتش عن أشياء لا يعرف ما هي بالضبط، وتتحرى عن أشخاص لا يعرف من منهن ومنهم سيلوّح. صب لنفسه كأسا ملأها حتى الحافة، ومع الرشفة الأولى برزت امرأة من ركن خافٍ في أقصى الذاكرة. ابتسم لنفسه في سخرية مندهشا، متسائلا:

"هل نبيذ هذه الزجاجة معصور من النساء؟ كلما رشفت رشفة صعدت إحداهن كالسحر، إما إلى لساني أو إلى مخيلتي، لكن لا بأس، غدا السبت إجازة ويمكنني أن أشرب الآن كما أريد وأصحو وقتما أحب، وعليّ أن أحررهن فورا من قمقم هذه الزجاجات!"

بدا أنه أراد بلا شعور أن يستعيد تاريخه النسائي، وهو يدرك أنه حافل بالإخفاقات أكثر من النجاحات؛ لكنه أراد أن يراجع حياته بحثا عن عزاء في ملامح علاقة مرت وتركت له قليلا من التوفيق. ترك العنان لذاكرته. استرخى في مقعده شاعرا بسريان الدفء لأوصاله وبالرغبة في ترك شريط الذكريات يسترسل كيفما اتفق. جاءت ايزيس قفزت إلى حجره استدارت حول نفسها مرات عكس اتجاه الساعة كأنها تساعده على استرجاع الزمن، ثم التوَت في دائرة وراحت في نوم آمن.

أول من لوحت من باب الذاكرة كانت هي، هي التي لا تُنسَى. تجرّع رشفة كبيرة من الكأس ومسد بيده على شعر إيزيس، وغاص في ألبوم

الذكريات. تلاحقت الصور سريعة بلا ترتيب، فتمهل قليلا ليستعيد أيام تلك الفرس العربية الفاتنة.

ففي أحد الأيام نقلوا اتصالا تليفونيا إلى ورشته محوَّلا من السنترال الداخلي للمكتبة الوطنية. قالوا إنَّ هناك سيدة تتحدث بلغة انجليزية سليمة وتسأل عن مخطوطة بالعربية، لذا لجئوا إليه في قسم المخطوطات وحولوا المكالمة إليه. رد فورا بالعربية على المتصلة:

"أهلا وسهلا مرحبا! من معي؟"

"مرحبا أستاذ! عندي سؤال من فضلك.. أبحث عن مخطوطة بعنوان (عناق الاشتياق بعد الافتراق للمنّان ودّ النيل الرَّيّاق). هل أجده لديكم؟ ألستم مكتبة فيينا؟"

"نعم، نحن فرع من مكتبة فيينا الوطنية، المكتبة العامة للإعارة، وليس مكتبة لبيع الكتب! من أين عرفت بهذه المخطوطة؟ إنها مخطوطة نادرة لا توجد سوى لدينا وهي قيد الترميم في الوقت الحالي!"

"ذكرت لي صديقة درست في فيينا أن هذه المخطوطة موجودة لديكم، وأنا على استعداد لدفع أي مبلغ تحددونه للحصول على نسخة مصورة منها؟"

"ولكننا للأسف لا نسمح بتصوير المخطوطات قيد الترميم!"

"سأدفع لك كل ما تطلبه من أجل صورة واحدة منها فقط!"

"آسف يا أستاذة! لكن هل يمكن أن أتعرف عليك لو تكرمت؟ ومن أين تتصلين؟"

"سأدفع لك ثلاثة آلاف يورو مقابل نسخة واحدة مصورة فقط من هذه المخطوطة! فكر في الأمر أرجوك، وسأتصل بك غدا!"

أغلقت الهاتف وآدم يضحك بسخرية من هذه الممسوسة التي تعتقد أنه بإمكانها شراء أي شيء بمالها. خشي أن يصارح مدير القسم بتفاصيل المكالمة، فقد يدخل معها في مفاوضات جادة من شأنها أن تزعجه في التعجيل بإنهاء ترميم المخطوطة في أقرب وقت، وتضاعف عليه العمل.

تذكر تفاصيل الحوار الأول مع هذه السيدة واتصالها بالفعل في اليوم التالي ثم مرات بعد ذلك. كانت على دراية كبيرة بالمخطوطات، ومطلعة على أهمها وأندرها، وثقافتها غزيرة - عكس ظنونه الأولى عنها - وتتحدث بلباقة وأدب. وأكثر ما أعجبه منها هو اعتذارها الفوري في بداية اتصالها في اليوم التالي عن عرضها السابق لأموال مقابل المخطوطة، بشكل ربما بدا غير مهذب لم تقصده - كما قالت - وأن رغبتها الأكيدة في نسخة منها أظهرت لهفتها في صورة ربما تكون متعجرفة بعض الشيء وهذا ليس من شيمتها. قالت أيضا صراحة إنها ليست طالبة ولا باحثة ولا صحفية، وإنما مجرد قارئة نهمة، تقتني أندر المخطوطات في وله تعدى الهواية!

توطدت العلاقة أكثر بالدردشة المتكررة، عن النسخ النادرة الموجودة لديها، وبحديثها العارف بعالم المخطوطات وأمكنة تواجد أهمها، وبدأ

الحديث معها يأخذ منحى التشوق المغلف بالفضول، حديث ممتع للمرة الأولى في عمره عن عمل يعشقه حتى النخاع، وتصريحات عن هواياتها التي تعدت الاحتراف إلى الإلمام بأندر وأهم المخطوطات؛ عن هوى في نفس آدم منذ أزل، لم يدخل أحد إلى هذه المنطقة المحببة إليه إلا بكلام سطحي واستفسارات تافهة أو بأحاديث نظرية مملة أو اختصارات غير مشبعة أو أبحاث وتقنيات جامدة عن الترميم، ناهيك عن المؤتمرات الروتينية، ولم يتعثر أحد في تحليلات عن متون المخطوطات إلا نادرا؛ فأغلب المتاح هو مجرد تحقيقات وإعادة طباعة مع مقدمات وصفية وتاريخية لا تغوص في فلسفة النصوص. الأغرب بالنسبة له أنها لم تفصح – في كل هذا الوقت وعبر كل هذه المحادثات المستفيضة – عن اسمها بالكامل؛ فقط اسم "نور"، ولم يزد تعريفها عن نفسها أبعد من هذه الحروف الثلاثة، تقبّل منها هذا الاسم وخاطبها به، رغم إحساسه في قرارة نفسه أنه اسم مستعار، لكنه رآه يشبهها، فاكتفى به رغم فضوله المُلِحّ.

بعد الاتصال الثاني منها استثير فضول آدم لقراءة مخطوطة (عناق الاشتياق بعد الافتراق للمنّان ودّ النيل الرّيّاق). تذكر أنه تسلمها الخريف الماضي في حقيبة جلدية عتيقة، تفوح منها رائحة عطنة، كانت في حالة يرثى لها. أتته مفروطة الأوراق وفي حاجة لجمع عسير بسبب إغفال ترقيم الصفحات. كان قد أجّل التعامل معها لشهور الشتاء. أخرجها من الخزانة وكانت صفحاتها الأخيرة تحديدا قد تعرضت لتلف بالغ بسبب سوء تخزين المالك الأخير.

اتصال نور وإصرارها أثارا فضوله مرتين: مرة لأن المخطوطة نادرة بالفعل وموضوعها حساس متعلق بالجنس عند المرأة، ومرة لأن من طلبها امرأة وبكل صراحة وجرأة. قرر منذ الاتصال الثاني أن يبقى في الورشة لوقت أطول بعد العمل ليراجع هذه المخطوطة العجيبة التي شعر بأنها ستكون ذات شأن أعظم من قيمتها المادية والمعنوية بسبب اقتران رغبة نور بها. صار يرتب في صفحاتها بصعوبة وجهد، استغرق منه أمر ترتيبها ما يقرب من ثمانية أيام، ولو لم تكن له خبرة كبيرة لما استطاع تجميع هذا اللغز المفروط في ثلاثمائة وتسع وخمسين صفحة، عالج بعض الصفحات شديدة التهرؤ بدعامات وأغلفة مؤقتة من البلاستيك حتى لا يزداد تلفها بين أصابعه من تكرار الفحص. بدأ بترتيب الصفحات بعناية وحرفية وفق تشابهات التهرؤ والبقع على الصفحات ودرجات الاصفرار، وبعد ذلك انخرط في قراءة نهايات وبدايات سطور الصفحات بعناية للربط الصحيح بينها. عانى كثيرا من ضعف أحبار بعض الصفحات ومن صعوبة وندرة بعض الكلمات المستخدمة، ومن الاشتقاقات اللغوية الكثيرة عن اللغة الفرنسية والمكتوبة بالعربية دون هوامش أو تفسير، إلى أن رتبها تماما في اليوم التاسع؛ فكان أسعد الناس خاصة حين وجد المخطوطة متكاملة لا تنقصها صفحة واحدة، كان متشوقا للغاية لقراءتها كاملة من جديد، لأن المقاطع التي أثارته أثناء الجمع لم يتوقف عندها كثيرا لتركيزه في عمل الجمع، لكنه يتذكر مقاطع في غاية التشويق والإمتاع والدهشة والجرأة والجدة.

المخطوطة – كما هو مكتوب في بطن غلافها الداخلي – اقتناها أحد

المستشرقين النمساويين في تركيا في أوائل القرن العشرين، بدا أنها كانت مخطوطة نادرة وعتيقة لم يُعَدْ نسخها وربما تكون الأصل الوحيد الباقي، حتى إنه لا يُعرف لها مثيل في أي مكان آخر. عند جمعها تحرًّى عنها في كل مراكز المخطوطات حول العالم التي تتعاون معا في البحث عن الأصول وعن النسخ الأصلية والنسخ المقلدة والمحرفة، وعن أعدادها وأماكن تواجدها، كما أن هناك فهرسا إلكترونيا عالميا يجمع كل هذه المخطوطات لدى هذه المراكز المختصة. وجد فقط عنوان الكتاب في فهرس مكتبة بيروت الوطنية لكن دون أصل.

أما نسخة (عناق الاشتياق بعد الافتراق للمنّان ودّ النيل الرَّيّاق) فهي نسخة جريئة في المحتوي وفريدة في اللغة وتتضمن دراسة ميدانية اجتماعية ربما هي الأولى من نوعها في العربية عن طباع المرأة الأوروبية في أحوال وطرائق الجنس وهو مقسم إلى جزأين: (الجنس الحلال لنساء الغال[1]) و(الجنس المُحال لبغايا الغال). استغرب آدم – كلما غاص في القراءة – من طلب نور لهذه المخطوطة الجريئة، فالبلد الذي تعيش فيه قد يحاكم من يحمل صفحة واحدة من هذه المخطوطة بالسجن مدى الحياة. قالت له في دردشتها معه إنها تعرف عن المخطوطة منذ زمن بعيد، من عم كبير لها عمل في السلك الدبلوماسي في اسطنبول منذ سنوات بعيدة وكان صديقا

(1) الغال وهي بالفرنسية Gaule وباللغة اللاتينية Gallia 'غاليا' وهو الاسم الذي أطلقه الرومان على المنطقة التي يسكنها الغاليون وهي المنطقة الممتدة من شمال إيطاليا وفرنسا وبلجيكا والجزء الألماني الواقع غرب نهر الراين. كانوا يطلقون على الغاليين لقب ذوي الشعر الطويل لأنهم لم يكونوا يحلقون لحاهم أو رءوسهم.

للمستشرق النمساوي، وإنه ساعده في فك بعض المصطلحات الصعبة في العربية، وإنها وجدت بالصدفة بضع صفحات مصورة بكاميرا "بولارويد" حديثة داخل كتاب نادر استعارته من عمها، مترجم عن التركية ويحمل عنوان (نقد الترجمة النظيفة للقارئة العفيفة) ويخلو من اسم المؤلف وزمن التأليف، لكنه يتعرض لحقبة مهمة من التاريخ، كتب فيها المؤلف عن قيام عدة مترجمين بترجمة بعض الكتب ذات الشهرة الشفوية في أمور النساء والتي كتبت باللغة الفارسية، وتعرضت لموضوعات في غاية التشويق والجرأة في حياة النساء، وكانت الحيلة أن يتم ترجمة هذه الكتب للعربية بعد محو وتحوير و"تنظيف" محتوياتها من كل ما يتعرض للحياء والأخلاق، ثم إعادة ترجمتها للفارسية من العربية مرة أخرى بعد إعدام الأصول. كان موضوعا مربكا ومعقدا لفترة من فترات الظلام الثقافي التي تهب بغمتها على بعض بقاع العالم كل حين.

احتفظت نور بالصور لتقرأها ثم تعيدها في وقت لاحق. عندما زاد اهتمامها بالمخطوطات واقتناء النادر منها فيما بعد، بحثت عن هذه المخطوطة، ولما تعذر عليها الحصول على نسخة منها، ولم تستطع أن تثق فيمن يتوسط لها بشكل خفي أو صريح لسنوات طويلة، عرضت في ذاك الوقت على آدم أن تحضر بنفسها إلى فيينا. حدث آدم رئيسه في العمل بنية السيدة نور فيما يتعلق بالمخطوطة، فأوضح له أنه بإمكانها الحضور والاطلاع على المخطوطة، بشرط أن تأتي بشهادة موثقة من هيئة تعليمية أو صحفية بالغرض من الاطلاع، وأنه يمكنها نقل بعض المقاطع كتابةً لو أرادت، لكن لا يُسمح بالتصوير أو حمل النسخة خارج المكتبة.

صوت ولهجة وطريقة حديث نور كل مرة، أثارت فضوله ليتعرف على هذه الشخصية الجريئة من هذه الدولة المتحفظة. رحب بحضورها وتخيل لها صورة لم يعرف هل ستطابق الأصل أم لا، تخيلها امرأة مسنة غنية، لكن صوتها الناعم الرقيق كان يربك تصوراته!

* *

جاءت نور إلى فيينا ونزلت في فندق فخم وشهير في وسط المدينة. دعته لزيارتها هناك. ذهب بعد انتهاء عمله، صعد للدور الأخير في الفندق. حين فتح الباب وجد بابا آخر، ثم استقبلته امرأة أربعينية مليحة الشكل حيَّته باحترام كبير، فقط صوتها اختلف عن الصوت الذي يعرفه عبر التليفون:

"أهلا وسهلا! السيدة نور، أليس كذلك؟"

"مرحبا بك! لا، لست السيدة نور، السيدة نور ستأتي حالا!"

ابتسمت وهي ترد بصوت خافت وجميل، ثم انسحبت من الغرفة. أدخلته إلى صالون واسع نصفه حائط زجاجي دائري بستائر مفتوحة يشرف على الطريق الدائري الذي يحوط الحي الأول، الذي يطلق عليه (رِنج Ring)، في منظر رائع يطل على قلب فيينا، و لم يستغرب أن تقطن في جناح كامل باهظ التكلفة. حينما استدار ليكلمها لم يجدها. اقترب من الزجاج من الزاوية الأخرى ينظر إلى كاتدرائية "شتيفان" العملاقة التي تتوسط المدينة بنقوش سقفها المميزة، والتي أعيد ترميمها مؤخرا لتحتفظ بطابعها الأصلي القديم من القرن الرابع عشر. لم ير سطح الكاتدرائية

الملون من قبل من هذه الزاوية. سرح في تأملها لحظات وكل ذهنه مُركّز على ظهور نور.

لحظات وعبقت الغرفة بعطر خفيف يمهد لحدث ما. تبعه فورا دخول امرأة فاتنة. استسلمت دواخله للعطر فورا، لكنه أظهر رباطة جأشه؛ فهو يدرك نقطة ضعفه: المرأة ذات الرائحة الطيبة هي أجذب النساء. ظهرت نور كالنور. وجه فاتن ينهك الناظر بنظرة ويفتن المتأمل، في ملابس عربية أنيقة مزركشة بألوان هادئة منسجمة ومطرزة بيد فنانة. تهرب خصلاتها الفاحمة فتخفي جزءا من جبهتها وعينا منها؛ فيزيدها هذا الخفاء حسنا على حسن. سمع صوتا يميزه من ألف صوت:

"أهلا وسهلا أستاذ آدم، مرحبا بك!"

مدت يدها التي سبقها هسيس أساورها بنغم بعيد في الذاكرة يثير شجونا، فهرب صوته لحلقه على غير عادة. لم ينطق، لكنه توقع أن تكون هي، التي ظلت صورتها مكنونة في ذاكرته، هذا الصوت الخلاب للأساور عبر إليه من خلال المحادثات مرات ومعه لهجة نور الناعمة في صوتها العصي على الوصف. واجهت صمته بصمت لبرهة؛ ثم تابعت:

"أستاذ آدم، كم أنا سعيدة بلقائك!"

"أنا أكثر مدام نور أو آنسة.. آسف!"

"اختر ما شئت لا يهم، وأفضل أن تقول لي 'نور' فقط دون ألقاب!"

"اتفقنا.. وأنا آدم أيضا دون 'أستاذ'!"

لم يتخيلها شابة فاتنة بهذا السحر وبهاتين العينين. أكملا الإجابة على أسئلة قديمة وفتحا العشرات من الاستفسارات الجديدة دون إجابة.

كانت نور امرأة متحررة ليس بالمعنى العربي المتعارف عليه عند ربط كلمة حرية بامرأة. إنما هي امرأة بلا قيود ودون عُقَد. تتصرف بحكمة وارتياح ولا تتوقف كثيرا عند رغبات الناس لأن يصوغوها كما يريدون هم. تزوجت مرتين، الزوج الأول رفض أن تستكمل تعليمها العالي وهي في السنة الجامعية الأخيرة، لأنه لم يكمل تعليمه العالي رغم منصبه الرفيع، أرادها أن تكون كزوجة أقل منه أو مثله على الأكثر. ولما بدأت تثقف نفسها بنفسها، قام بفرض حصار خانق عليها ومنعها من قيادة سيارتها بنفسها باعتبار أن هذا حرام، ثم زادت المضايقات والمنع والتهديد بالضرب حتى شعرت أن الإفلات من هذا الزواج بلا إنجاب سيكون أفضل، وقد كان. تخلصت من هذا الزوج الذي كان كل همه الاستغراق في استهلاك ملذات الحياة؛ استهلاك فاجع دون شعور بالإشباع، حتى علاقته الحميمة بها لم تكن إلا مجرد استهلاك لها، فلا هو أشبع نفسه ولا أشبعها. كان يرهقها كأنه في مسابقة لموسوعة "جينس" للجنس. الزواج الثاني كان أسوأ لكنه كما قالت:

"كان كابوسا مزعجا، لكن أحمد الله أنه كان قصيرا!"

بعدها قررت نور أن تتفرغ لحياة أرحب، بعيدا عن الرجال. لم يفهمها المجتمع ولم يضِرْها ذلك، كانت تشعر بحسد الأخريات لحريتها التي

منحتها لنفسها بشروطها هي، وبينما هم يفرطون في اغتيابها كل لحظة، كانت هي تستطيع أن تنام مرتاحة البال بابتسامة جوانية غامرة كل ليلة!

لم تكن نور قد زارت فيينا من قبل، فأفرحه أن تكون الجولة التفقدية الأولى لها في المدينة بصحبته، قبلت بفرح. غيَّرت ملابسها لترتدي ملابس أوروبية بسيطة وتعقص شعرها داخل إيشارب جمّلها أكثر. بدت عادية جدا وتلقائية، على عكس كثيرات ممن عرفهن من العربيات اللاتي يبالغن في ارتداء الملابس الفاخرة دون ذوق، وسكب العطور القوية النفاذة وتلطيخ الماكياج الثقيل والمبالغة في ارتداء الحلي والمجوهرات. شعر أنها شخصية واثقة من نفسها مكتملة بالكبرياء ولا تحب أن تلفت الأنظار إليها. نما فضوله ليعرف عنها المزيد.

بقيت في المدينة ستة أيام، كانت من أجمل الأيام التي عاشها آدم معها. معرفتها المستفيضة بما لم المدينة أدهشت آدم. تخيرت بعض الأمكنة بعينها التي أرادت أن تزورها في الأيام التالية، لكن أولها بالطبع كان زيارة ورشة آدم للاطلاع على المخطوطة النادرة.

في الورشة وقاعة المكتبة قضيا معا وقتا من أمتع الأوقات في الاطلاع على المخطوطة. وجدها إنسانة متحضرة، رقيقة الطباع، خفيفة الظل، وقارئة نهمة ومحاورة على فطنة عالية. تخيل مدى صعوبة حياتها في مجتمع مثل مجتمعها، موسوعيتها في المخطوطات تجعلها تبدو كمؤسسة مخطوطات خفية متنقلة.

في مرة من أحاديثهما الدائمة عن الشرق والغرب، قالت نور:

"الشرق يشرق علينا نحن النساء في بلادنا ونحن نعيد سيرة العبيد.. كل شيء يدور حولنا وكأننا في المركز.. لكننا في حقيقة الأمر ننزاح إلى الهامش.. حالة مشوشة من التناقض المعقد.. المصيبة أن أغلب النساء عندنا يعتقدن أن الحل في يد الرجال، أنا أراه في يد النساء، هل تصدقني؟"

"ولكن الغرب أيضا قاسٍ ضد النساء يا نور.. الغرب لا يستعبد النساء على الطريقة الشرقية لكنه يستغلهن!"

"ولكنه يمنحهن منحة ليست لنا: حق الاعتراض المُعلن والتغيير التدريجي الأسرع والمشاركة!"

"عندك حق ولكن في حدود معينة لا يتجاوزونها.

"المشاركة في القرار يا آدم هي الأهم، صدقني فطرة المرأة لا تعشق الهيمنة الهشة الفارغة، المرأة تحب الرجل السيد، والسيد الحق يعرف معنى المشورة ومعنى المشاركة؛ نحتاج قليلا من المشاركة؛ لنكون قليلا في الحياة، لنسطر قليلا من التاريخ!"

"ولكن التاريخ يقتات من الجروح لا من الانتصارات!"

ضحكت نور ضحكتها العذبة وأمنت على كلامه.

عاشت نور أجمل أيامها، سافرت لكثير من المدن القريبة مع أدم؛ قرأت في المخطوطة؛ ونسخت، زارت متاحف ومعارض؛ قرأت في المخطوطة؛ ونسخت، شربت؛ قرأت في المخطوطة؛ ونسخت، أكلت؛

قرأت في المخطوطة؛ ونسخت، رقصت؛ قرأت في المخطوطة؛ ضحكت؛ قرأت في المخطوطة؛ تأملت. قرأت في المخطوطة ونسخت، ونسخت. أنهت المخطوطة وانتهت الرحلة. نسختها كلها بخط يدها ورسم لها آدم الغلاف وخط لها العنوان وزخرفه بإبداع.

عادت إلى بلادها. اتصلا ببعضهما يوميا. أرادت أن تعود لفيينا، لكنها لم تتمكن لظروف تخص أمها المريضة. لم يستطع هو أن يذهب إليها. لم تفتر العلاقة بينهما. لكنها بقيت ذهنية في التواصل. وظلت فترة فيينا من أجمل الفترات لها وله. وبقيت علاقة غير محددة الملامح، ينساق فيها آدم إلى نداء داخلي غامض، ربما ما جعله يميل إلى نور هو شخصيتها العربية، وربما إيمانه لوقت طويل أنها هي، تلك التي خلقت من كتلة الصلصال نفسها، التي خلق هو أيضا منها، قد أشعره أن بابا من أبواب الجنة التي يتوق إليها قد صار موارَبًا له!

* * *

قامت إيزيس في هذه اللحظة واستدارت أيضا عكس اتجاه الساعة كعادتها واستقرت مرة أخرى في مكانها نفسه. كان الكأس قد فرغ وآدم يشعر بانتعاش وأسى وفرح ودفء وكسل ورغبة في غسل تاريخه القديم بجرعات الخمر. تنهد وصب لنفسه كأسا أخيرة وهو يستعيد تاريخ إخفاقاته من البداية. لا يدري ما الذي جعله يتذكرهن كلهن عبر هذه الزجاجة التي تجرعها كاملة. في جلسته رأى جارته فراو كاتيا بيليكان بقميص نومها وهي تضيء مطبخها المقابل له. تفتح الثلاجة لتشرب شيئا

ثم بدا أنها تحادث القط ليرم بأمر ما. بدا جسدها يفيض نورا، رفع كأسه نحوها:

"في صحتك يا كاتيا! في صحة نساء العالم الجميلات الذكيات!"

الغريب أنه حاول بقدر الإمكان أن يتذكر أجساد النساء اللاتي عرفهن وعاش معهن، واعتقد لفترة من الوقت - طالت أو قصرت - أن كل واحدة مقاس روحه، إذا استكان إليها استوعبته. تذكر كل الأسماء، تذكر كل الأفعال، كل الإخفاقات، وذلك الإحساس بالزهد الذي يعقب كل توطد في أي علاقة، لكنه لم يستطع أن يتذكر تفاصيل أجسادهن. واكتشف في هذه الجلسة أنه لم يشعر بالارتواء والاكتمال. كل علاقاته مع النساء بدأت كأنها في طريقها للاكتمال لكنها انتهت منقوصة، لم تحقق له الإشباع الوجداني ولا حتى الجسدي. ارتعش جسده من إدراك هذه الملاحظة القاسية: هل كانت حقا كلها نزوات خارج الوجدان! وَعَى في تلك اللحظة أنهن لم يمسسن روحه، مررن على جسده أيضا كوشم من الحناء يبقى لوقت قصير ثم يختفي للأبد.

سحبهن من قاع الذاكرة بالترتيب:

سوسن وأيام مصر التي لن ينساها؛ الحب الأول والحضن الأول والقبلة الأولى؛ ثم هند التي تبادل معها أبهى الرسائل، وتعلم كيف يعبر عن مشاعره بالكتابة وأخلص لها، لكنها فارقته مع الشاب الأغنى العائد من بلاد النفط بالمال ووعد الزواج والفرح الكبير والشقة والسيارة؛ ثم مارتينا ماريا اليزابيت الجميلة الممتنعة، التي عاش معها دون أن يفهمها،

دون أن ينجح في أن يحبها أو أن يبغضها؛ ثم كاتيا التي كانت أكبر منه سنا ولها طفلة صغيرة. احتوته كأم وكأخت وبابنتها كونت له أسرة صغيرة، لكنها كانت صارمة صرامة لم يرتح لها، رغم أنها ليلا كانت طيعة ممتعة لدرجة لا يصدق معها أنها كاتيا النهارية؛ ثم ناديا ذات الأم المغربية والأب النمساوي الذي أسلم وصار أكثر صرامة من أمها، فكانت ناديا تلبس الحجاب حتى باب الجامعة وهناك تخلعه. تشعر بالتناقض الكبير بين الحياة مع أسرتها والحياة في المجتمع. عاش معها في صعود وهبوط حتى انفصلا؛ ثم المستشرقة المجنونة سيجليندة التي كانت مفتونة بارتداء الزي العربي والخمار حين تخرج معه، وكانت تدخن بشراهة وتعشق النبيذ الأبيض و لم يكن هذا ليزعجه، إنما مصدر الإزعاج هو تناقضها في الشكل والتصرف على الملأ الذي يلفت انتباه البعض واستهجان البعض الآخر، رغم أنها كانت تصلي بإخلاص. كانت شخصية عجيبة. أَحَبَّ جنونها وجرأتها وتناقضاتها؛ ثم المرممة كاثي التي التقى بها في شيكاجو وبقيا معا لفترة خمسة أسابيع في دورة تدريبية للترميم، عاش معها خمسة أسابيع كزوجين في شهر عسل. ذكية ولطيفة المعشر ورشيقة وأنيقة وممتعة وعملية، لكنه لم يعرف عن تاريخها السابق أي شيء. لم تتحدث أبدا عن عائلة أو أهل أو حياة سابقة، كأنها نزلت من كوكب آخر، تجنبت أي حديث شخصي سواء عنه أو عنها، فسارت الحياة بينهما في قطار بلا وجهة ولا يقف في أي محطة، ولما اختفت من حياته تدريجيا لم يشعر بحنين لغيابها، كأنها حلم تذكر ملامحه ثم نسيه؛ ثم نادين الطالبة التي أتت من برلين وكانت تعمل على مخطوطة نادرة كانا يرممانها معا، لكنه لم

يعرف أنها كانت متزوجة ولها طفل، وأنها تحب زوجها وتحب أسرتها بلا حدود، كما قالت له في اليوم الأخير قبل عودتها النهائية، لكنها لا تعرف الوازع الداخلي الذي جعلها تجرب للمرة الأولى في حياتها الخروج عن المألوف، هكذا شخصت الحالة. قالت إنها أرادت أن تجرب، لكن في قرارة نفسها لا تشعر بالخيانة لزوجها لأنها لم تفكر أبدا في أن تهجره، وإنما تشعر بأنها خانته هو. كانت صادقة وتعلَّمَ منها درسا جديدا في الحياة. سجلت اسمها في تاريخ إخفاقاته، وتركت له فلسفة في الحياة والعلاقات يتأملها كل حين وتعوضه قليلا عن فكرة الإخفاق والخسارة؛ ثم كارميليتا الإيطالية المتوحشة الحسناء التي لا تُنسَى؛ ثم سيرين التركية الجميلة، درسا معا وأحبها بصدق وكان يعشق الأكل الشهي من يديها، لكن المبالغة في سرية العلاقة ضايقته في آخر الأمر؛ فخوف ظهورهما معا صار هاجسا يوميا، حتى أدى بالعلاقة إلى الحتف. أحس برفض عائلتها له حين اقترب بحرص، ففضلت سيرين الابتعاد وهو أيضا. تزوجت من أول طارق لباب الزواج لتتخلص من التناقض، فوقعت في زوج قادم من بلدها لا يعلم إلا أوهن الأمور عن الحياة في أوروبا، فصارت هي الرجل والمرأة للعائلة وظل هو رجل البيت الوهمي الذي لا عمل له وله كل الأوامر وفق العادات والتقاليد. عانت وهانت، طلقت وخرجت بطفل، ليزوجوها لآخر لم تشعر نحوه بأدنى مودة. تألم آدم لها كثيرا، ولم يبق سوى أن يلتقي بها من وقت لآخر في علاقة صداقة للدردشة وليخفف عنها؛ ثم نور الفرس العربية الفاتنة، المذنب الذي بزغ وفجأة عاد لسمائه؛ وفيما بعد أوليفيا التي أراد أن ينسى معها إخفاق غياب

نور، بعدها قرر أن يغلق على قلبه وألا يسمح له بأن ينبض لامرأة من جديد، فيكفي ما قد نبض لهن منه بما فيه الكفاية. أراد أيضا أن ينقذها في آن من مأساتها، وتعهد بدور الناصح والحبيب، فلم يخرج من العلاقة إلا بلقب المخفق المغدور به، بعد أن هجرته إلى صديقها القديم. الغريب أن العلاقة مع أوليفيا كانت أوهن العلاقات لكنها أكثرها سخطا منه، رغم مروره بتجارب مشابهة!

عدَّهن في إحصاء سريع، فوجدهن اثنتي عشرة. تأمل العدد بكثير من الشجن وقليل من تسريبات الانشراح. قال لنفسه:

"دستة نساء يا آدم يحسدك عليها كل الأصدقاء ولا أحد يدرك مدى وحدتك وعزلتك في هذا البرج العالي!"

ليس من طبعه الزهو بعلاقاته ولا الزيف فيها لأنه كان يبدؤها بروح الباحث حقا عن الروح التي تنقصه والتي يرغب في أن يستكين إليها، فهو لم يكن رجل مغامرات ولا نزوات. بينه وبين نفسه كان يشعر شعورا صادقا أنه لم يخرج من كل علاقاته النسائية بما كان يتمنى. لم يكن يحسب أو ينظّر لأي علاقة، بل كان يقطع شوطا طويلا فيها بإخلاص على أمل أن الصبر على الاكتشاف سيقدم له الثمرة التي ينتظرها. لكن في قرارة نفسه كان يشعر بأن هناك خللا ما، وأن ما ينتظره ينبغي أن يدخل مداره مثل كل توافق كوني. ربما كان عليه أن يصبر ليسمح لكوكب روحه أن يدخل إلى مداره المنتظر!

قام حاملا إيزيس بيده اليسرى وفي اليمنى كأسه بآخر رشفة من النبيذ.

وضع إيزيس عند طرف السرير، دخل سريره فقفزت لتبقى عند قدميه. وضع كوب ماء إلى جواره ونظر في الكاميرا مرة أخرى ثم وضعها على الكومودينو القريب وراح في نوم عميق. ابتسم بسعادة أن الغد هو السبت وسينام طويلا ولن يسمع صوت المنبه. الخدر أخذه لحلم جميل.

في صباح اليوم التالي لملم أطرافه بصعوبة، بينما كانت إيزيس تحوم حول رأسه وتموء ليقوم لفطو ها وفطوره، لكنه لم يدر متى وكيف ذهب لينام في سريره.

6

عندما كان فاروق يدفن وجهه في الجريدة وابناها في غرفتهما يذاكران استعدادا للامتحانات، وجدتها ليلى فرصة سانحة كي تخبره بموضوع الدعوة التي وصلتها من ياسين. تعرف أن سطوة ياسين عليه كبيرة، ولن يستطيع أن يرفض له طلبا، خالجها تردد جعلها تتحرك ببطء وتوجس، كأنها إذا نظرت إلى عينيه أثناء إخباره سيطلع على سرها الخافي، وسيرى آدم يطل من عينيها. جلست قبالته وحاولت أن تنطق، لكن اختفاء وجهه خلف الجريدة زاد من صمتها، وأخذها بعيدا حيث ذكرياتها القابعة في قرار مكين بداخلها. تذكرت هؤلاء الرجال الذي عبروا في حياتها، وترك كل واحد منهم شجًا ورحل.

شريف الوراق، ياسين، أسامة، هشام، فاروق؛ هم أهم الذكور المؤثرين في مسيرة حياتها، والذين سببوا لها تشويشا مزمنا وعكروا فكرتها عن الرجل دون أن يشعروا، وهم على الترتيب: أبوها، أخوها، محبها الأول، حبيبها الثاني، زوجها، يضاف إليهم خالتها محاسن التي رغم جمالها الواضح واهتمامها بأنوثتها الطاغية البادية بوضوح دون أدني تجميل أو زينة، إلا أن تصرفاتها ورقابتها تنتمي إلى حقل فظاظة الذكور بجدارة.

تحفظ ليلى الكثير من حكايات العائلة، ليس لصفاء ذاكرتها فحسب، بل للتكرار المبالغ فيه عبر الزمن خصوصا من أبيها الذي لا ينكر مشاعره أثناء الحكي، لاسيما ما يتعلق بأحاسيسه عند مجيء كل مولود. لا ينتبه إلى أنه في كل مرة يوسع جرح المساواة والعدل عند ليلى دون أن يدري. سمعت ليلى منه مرارا أن مولدها جاء عاديا، بلا فرح كبير أو اهتمام استثنائي، فياسين الأخ الأكبر حَظِيَ عند مولده باستقبال ملكي واهتمام فريد، حتى أختها مها حين جاءت إلى الحياة بعده، قوبلت باحتفال معقول وفي ترتيب صحيح لعائلة نموذجية من الطبقة الوسطى، واستطاع الأب أن يضبط إيقاع انفعاله قائلا: "إنجاب البنات فيه خير كثير!" وهو مجرد رد فعل عفوي ينبغي أن يُذكَر هكذا في مثل هذا الظرف، وكان عليه أن يكظم غيظه ويدعي الفرح والرضا، وربما لأن عجلة الحَبَل والولادة مستمرة، وقد يهبه القدر ذكرا في الدورة التالية، لكن مولد ليلى بعد سنتين كان كارثيا ومخيبا لأمل الأب، هذا الأمل القابع في مكان ما وفقا لتراث العائلة المجيد، الذي لا يتحرج في التصريح بأن الفتيات لسن سوى

عابرات لا يحملن على عاتقهن حفظ اسم العائلة واستمرار بقائها، بل يذهبن لرجال آخرين وينتهي أمرهن.

انتعش إحساس الأب بمولد الأخ الأصغر وليد، الذي طرق باب الحياة بعد ليلى بخمسة أعوام، استقبلته العائلة بفرح مبالغ فيه، وأخذ من لحظته الأولى وضعا خاصا من التدليل والرعاية باعتباره آخر العنقود. كان الأقرب إلى ليلى وعولت عليه ليكون أخاها وصديقها الحنون مستقبلا، فهي تشعر منذ مولدها بغربة خفية داخل العائلة وهي أقسى أنواع الغربة أن تكون غريبا وسط أقرب الناس إليك، ترى وليد – منذ أن بدأ يعي الدنيا – كيف يبتهج بها ويرفع ذراعيه وأصابعه تتلاعب في الهواء في عزفه الخاص لمحاولة التعلق بها، لتحمله ثم ترفعه إليها وتقبله قبلات ذات طرقعة، يضحك لها وهي تغمره بوابل منها حول رقبته وفي صدره وبطنه، لا يتحمل الدغدغة وينهار في ضحكات تبدأ عالية حتى تنكتم من انقطاع نَفَسه، ليعود منتظرا التكرار بشوق كبير قائلا: "تاني!"، فتمنحه ثوانيَ ليأخذ نَفَسه قبل أن تبدأ الهجوم عليه مجددا. حين يلمح ليلى ينسى رضاعته وهو في حضن أمه، تاركا لبنها يتدفق من طرفي ثغره الصغير، يبتسم لها ابتسامة ابتهاج عريضة وينسى الدنيا وما فيها. فيما بعد، كان يرفض الذهاب للحضانة إلا وهي بصحبته، يدها بيده، يقبّلها قبيل دخوله للحضانة، ويسأل عنها في غيابها بإصرار وإلحاح ولا يطمئن ولا يسكن إلا حين تعود، كانت ليلى لدى وليد أهم من الأم، حتى أطلقوا عليه لقب 'بِتاع ليلى' وليد هو أيضا الوحيد في العائلة الذي يمنحها فرحا مضاعفا: فرحا بضحكه وانشراحه ووجوده،

وفرحا بكونها قادرة على إشاعة السعادة في نفسه.

رغم مواقف ياسين معها، إلا أن غيابه فيما بعد ترك فراغا لم تستطع ليلى أن تعوضه، كما ترك غياب وليد جرحا لم يندمل.

ولد أبوها شريف الوراق المنياوي في منتصف الأربعينيات في المنيا لأب اسمه عز الدين المنياوي. شريف الوراق هو الاسم الذي اشتهر به منذ مغادرته المنيا. ولد في عائلة ميسورة تمتلك مساحة لا بأس بها من أفضل الأطيان لزراعة القطن طويل التيلة، حَظيَت هذه المنطقة الزراعية بأفضل تربة وأنسب مناخ، بدرجة حرارة لا تقل عن 26 درجة مئوية، مشمسة ودافئة لنصف عام على الأقل مع توافر المطر المناسب. كان الجد المنياوي الكبير خبيرا متفردا في زراعة القطن وله أسرار توارثها منذ الفراعنة في رعاية المحصول بعد بزوغ البادرات بدءا من التفريد والتسميد والعزق والتعشيب والري والتقليم حتى مكافحة الآفات. صار للجد صيت لا مثيل له بسبب نوعية القطن المتميزة التي ينتجها، حتى أن مندوبي بعض الشركات من فرنسا وانجلترا وإيطاليا وتركيا كانوا يأتون للتعاقد معه شخصيا، لتوريد احتياجاتهم من القطن طويل التيلة المميز الذي كان يسميه الجد: منيا 90 ومنيا 92.

نظرا لكثرة الإخوة وأبناء العمومة في الجيل الثاني، جيل عز الدين المنياوي، تقلصت حصص الأراضي في الميراث، واختلفت الرؤى والأهواء ولم يكن هناك أي وفاق بين أفراد العائلة، فتنوعت محاصيل الأراضي من

قصب إلى بصل إلى قمح إلى بطاطس حتى اختفى القطن، ودبت الخلافات أكثر لدى هذا الجيل، ثم بدأت إغراءات شراء الأراضي الزراعية بأسعار مرتفعة، وبدأت معها صرعة البناء على تلك الأراضي، فبادر بعضهم بالبيع وتضاءلت حصة كل مالك. بقي شريف الوراق الوحيد الذي يزرع القطن ويورده لمصنع ياباني صغير، لكن الكمية لم تكن كافية للاستمرار في التصدير لوقت طويل، إضافة إلى سأمه من حدة المنازعات مع الأقارب وملله من جلسات فض الاختلاف الأسبوعية، فانتهى به الأمر إلى التخلي عن نصيبه في الأرض بحسرة موجعة.

باع حصته وافتتح في الإسكندرية مصنعا صغيرا لصناعة الكرتون أصاب توفيقا. اختار الإسكندرية لأنها كانت ملاذ شبابه وقضى فيها أجمل سنوات عمره وفيها أحلى ذكرياته. في فترة السبعينيات وزمن الانفتاح الاقتصادي في البلاد ازدهرت أعماله، فتوسع في تجارة الورق عبر المدينة الحرة في بورسعيد وتحول إلى تاجر جملة كبير، فأصاب نجاحا عظيما. تزوج من زهرة وهي من عائلة سكندرية طيبة عمها كان ممثلا شهيرا، رغم وداعته ودماثة خلقه إلا أنه اشتهر ببراعته في القيام بأدوار الشر، انتقل شريف الوراق مع زوجته للقاهرة إلى حي السكاكيني وأقام فيه وأنجب الولدين والبنتين هناك وعاش ميسورا في حياة مستقرة.

تعرف ليلى أن أباها طيب، وأنه يحبها، لكنه أحيانا ينساق لآراء الآخرين في إصدار أحكامه، خاصة تلك التي تتعلق بها أو بمها أختها، وكثيرا ما كان يصرح بأنه ما كان ليرفض لهما هذا الطلب أو ذاك، لكن

الناس كما كان يقول: "هتاكل وشّه وقتها"، لذلك كانت على يقين بأن أباها ليس من يقرر الأمور في النهاية، بل الناس؛ من أصدقاء وأقارب وجيران وربما عابرين بالصدفة، إضافة إلى ياسين أخيها. في طفولتها كانت إذا أرادت شيئا تنتظر أباها على بسطة السلم، ما إن تطلبه منه حتى يبدي موافقة ممزوجة بالفرح، لكنه يتخلى ببساطة عن موافقته إذا اعترض أحد في وقت لاحق. هي لا تشك في كونها تحبه، وأحيانا تلتمس له العذر في شخصيته المنساقة، فهو يحاول دوما أن يثبت سماحته للآخرين أكثر من تسامحه مع أهل بيته، والسماحة من المفترض ألا تعني التراجع في كل قرار بمجرد الإنصات لرأي مخالف من الآخرين. ليس ذنبه أنه ولد في الصعيد، وتربى على عادات قالوا له إنها صائبة، فصار يخفف من غلواء صلف الرأي بفقدان رأيه هو دون أن يدري، وليس ذنبه أن القاهرة في بداية السبعينيات، كانت تضيع هويتها تدريجيا وبالطريقة التي أصابت الكثيرين في استنساخ الرأي الجماعي الأيديولوجي الانفتاحي بسطحية كبيرة، وأن الطبقة الوسطى كي تحافظ على بقائها، صعب عليها طوال الوقت أن تتمسك بما نفضه الجميع، فتشظت ما بين قلة صاعدة تهفو كي تكون ضمن نخبة ثرية، وبين أكثرية هابطة تنزلق نحو أغلبية مهمشة ومسحوقة، وبين ندرة تجاهد للبقاء في موقعها بقدر الإمكان لكنها تبقى في وضع "محلك سر" كما أن ياسين كان بمثابة الفص الأيمن لدماغ الأب، ومن موقعه هذا – على الرغم من شعور الأب معه بخيبات الرجاء المتكررة– استطاع أن يوجه دفة تصرفاته إلى حيث يريد.

تتأمل ليلى علاقة ياسين بأبيها باندهاش يتزايد عبر السنوات، فعلى

الرغم من أن أباها توَّجَهُ ملكا على الجميع في البيت إلا أنه تقاعس عن تحقيق أمنية الأب شريف الوراق ثلاث مرات: مرة حين فشل في الحصول على مجموع في الثانوية العامة يؤهله للالتحاق بكلية الطب، ومرة حين رفض أن يحقق أمله بأن يخلفه في أعماله الناجحة في تجارة الورق التي راجت وتوسعت في تلك الفترة، لاسيما أنه التحق بكلية التجارة في جامعة عين شمس، وأخيرا خيَّب رجاءه أكثر بعد تخرجه حين عمل في مكتب سياحي في وسط البلد، ليتحول بعدها إلى مترجم للغة الألمانية، ليعلن بعد ذلك مباشرة رغبته في السفر إلى أوروبا. على الرغم من كل هذه الحماقات كما كان أبوها يسميها، لم يُنَحِّ ياسين عن مكانته و لم يؤاخذه على إخفاقاته إلا بمزيد من الامتيازات!

في هذه المرحلة، كان ياسين بمثابة المثال المجنون الذي تحبه ليلى؛ منفلتا متمردا محبا للحياة مجربا كل شيء، يقرأ بنهم كبير ومكتبته مكتظة بكتب في الأدب العربي والعالمي وكتب في الفلسفة والدين والسياسة وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها، وكمية كبيرة من الكتب في أصولها الألمانية. اطلاعه الواسع جعله قادرا على المحاورة والمناظرة بكل ذكاء، تشرب بنظرة مثالية عن حقوق الإنسان وتحقيق المساواة والعدل وحقوق المرأة مستعينا بأقوال الحكماء والفلاسفة، لكنَّ هناك خللا خفيا في شخصيته يجعله يتناقض فجأة مع مسلماته وفرضياته، لأن طبيعته في الاطلاع غلب عليها الكم أكثر من التعمق والاقتناع الشخصي بما يقرأ، ولعل تجاربه المتعددة مع الجنس اللطيف هي السبب الذي جعله في النهاية أشد قسوة ورقابة عليها بالذات، ربما لأنها كانت تسير مثله أيضا في خط تمرد ساكت. هو يتمرد

على المجتمع ككل، وهي تخطو خطوتها الأولى في تمرد على وجودها في عائلة لم تكن تعيرها الاهتمام المناسب لتفكيرها ورغباتها، ففي مسرح المدرسة كانت بارعة في أداء أدوارها حتى توقع لها الجميع مستقبلا زاهيا في التمثيل، الغريب أن العائلة كانت تحتفي بهذا التفوق الفني أمام الغريب قبل القريب، وكان ياسين يفتخر بأخته في أدوارها على مسرح المدرسة ومها تكتسب صداقات إضافية على صيت ليلى، فاعتقدت مع الوقت أن الطريق ممهد لها، لكي تصرح برغبتها مستقبلا في امتهان التمثيل، أسوة بعم أمها الشهير الذي كانت تحبه وتقدره، لكنها صُدمت بتعنت العائلة وبالتوبيخ غير المتوقع من الجميع وخصوصا من "طنط محاسن

حتى إعجاب أمها القديم بمهارتها في الرقص تلاشى فجأة وحل محله قائمة محظورات، رغم تدخل عم أمها بمحاولات مضنية للدفع بها نحو ما تتمنى، والبرهنة بأن حي السكاكيني قد أنجب للفن باقة من الأسماء المحترمة في تاريخ الفن المصري مثل: عميد الأدب العربي طه حسين والموسيقار محمد عبد الوهاب والفنانات ليلى مراد وماجدة الصباحي وسعاد حسني، والممثل القدير عبد الفتاح القصري، وداود حسني، وغيرهم من المشاهير، لكن الأب رفض بإصرار ووأد رغبتها في مهدها.

ومع ذلك غامرت مرة وجربت في فرصة أخيرة للدخول إلى ساحة التمثيل، لعل الأب وحزب المعارضة العائلية يعدل عن رأيه مع الزمن. ذهبت مع ثلاث من زميلاتها في المدرسة إلى أستوديو لاستكشاف المهارات، بناء على إعلان منشور من مخرج شهير يبحث عن وجوه

جديدة لأدوار شبابية في فيلم جديد. حين عرضت ليلى بروفة التمثيل كانت قدراتها الدرامية الصامتة كافية ليصفق لها المخرج بانبهار، وانبهر أكثر حين سمعها تتحدث الألمانية بطلاقة. لم تسعها الأرض يوم أن وافق عليها، وأعطاها استمارة لتملأها خطيا بموافقة الأب أو ولي الأمر، بالسماح لها بتمثيل الدور المطلوب.

كانت كارثة للأب حين علم بجرأتها على الذهاب دون إذنه لهذا المكان، وزاد الطين بلة، الرفض القاطع من ياسين، ثم اتخذت الأسرة تدابير وقائية كيلا يتكرر الخطأ نفسه، فتم تكليف مها بمهمة اصطحاب ليلى في الذهاب والعودة من وإلى المدرسة. كانت كمية التوبيخ التي تلقتها ليلى في ذاك اليوم كافية لتشعرها بالخزي وخيبة الأمل طول العمر، أشعروها في ذاك اليوم كأنها ذهبت إلى بيت دعارة.

لم يكن اعتراض ياسين على الرقص وقتذاك يشعرها بازدواجية شخصيته، لأنها وحتى الآن لا تعرف السبب الذي كان يجعلها تشعر بالسعادة كلما منعها من الرقص وانفعل بغضب عاصف، ربما لأن في غضبه ما كان يجعلها توقن بأن تثنّيها وارتعاش جسمها أثناء الرقص فيهما من الإغراء ما يدفعه لإيقافها، لكن وقوفه أمام رغبتها في التمثيل جعل علاقتها به تأخذ منحى جديدا، فهي تحب طريقته في الحياة وتمرده وطريقة ملبسه وكلامه وتريد أن تخط طريقها مثله، وكانت تتوقع أن يكون هو أول من يؤازرها، لكنه كان العثرة الأساسية في مبادراتها ومحبطا لنواياها من المهد، لم تفهم شعاراته الخارقة التي ينادي بها طوال الوقت ولا نظرته

المثالية عن حقوق الإنسان وتحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية وحقوق المرأة، فحين تنادي هي بها أو حين ترغب في تنفيذ حق طبيعي مما ينادي به، تخرج جملته الثابتة قبل التمادي في النقاش بالحزم نفسه:

"نعم هذا صحيح، ولكنه لا يصلح لك!"

سألته يوما:

"هل تؤمن فعلا بالمساواة بين الرجل والمرأة؟"

"طبعا!"

"يعني يمكن للمرأة أن تفعل ما يفعله الرجل وفقا لهذه المساواة!"

"إلى حد ما!"

"إلى حد ما هذه تنسف مبدأ المساواة!؟"

"لا تنسي شروط المجتمع؟"

"لكن أليس علينا نحن أن نغير شروط المجتمع لو كنا نؤمن حقا بهذه المبادئ؟"

"نحن ننادي ونوعّي وأحيانا نضحي بأنفسنا في سبيل المبادئ، لكننا نترك المجتمع يجرب بنفسه، ثم يختار ما يناسبه، لا يمكنك إملاء شروط على ذهنية المجتمع بتغيير فوري للعادات والتقاليد!"

"طيب، لماذا لا تراني جديرة بأن أضحي بنفسي في سبيل تغيير وضعية البنت أو المرأة!"

"ببساطة لأنك أختي!"

يقطع ياسين الحوارات دائما بجمل سريعة مفاجئة ويترك المُحاور يلملم ذهنه بعد انحراف الفكرة عن مسارها، وحين يريد الشخص أن يكمل معه الحوار، يكون قد اختفى كدخان سيجارة! ترى ليلى أنَّ المجتمع برمته هو الذي يمنح الذكر كل هذه السطوة، وترى أن المرأة تمنح أحيانا السلطة للرجل ليمارس سلطاته من أجلهما معا، ولا تدري أنه الرجل الخطأ؛ فيغتر أو يتناسى ويمارس سلطته عليها هي أولا بترهيبها وتحجيمها. يقول ما يريد ويفعل ما يحلو له. له التبريرات كلما أخطأ. لا تدري ليلى منذ متى وفي أي زمن منحرف كانت أخطاء المرأة تكال بمكيال آخر مقارنة بأخطاء الرجل. ترى أن هذه الكذبة الكبيرة في التشدق بالمساواة هي مجرد شعار أجوف لا يمكن أن يُطبق تماما، وكل انحراف كبير في المساواة يبدأ صغيرا في كل بيت فيه ذكر وأنثى! تماما مثل كل انحراف كبير في العدل يبدأ صغيرا في كل مجتمع فيه غني وفقير!

عندما وصل ياسين إلى امتحانات الثانوية، كان وحده حديث الساعة في البيت، أُعلنت حالة الطوارئ، كانت الاهتمامات تدور حوله وامتحاناته واحتياجاته وراحته ومزاجه. كل شيء يبدأ عند ياسين وينتهي عنده، هو المدار والمسار. كان أمل الأب أن يصبح ياسين الطبيب الأول في عائلة المنياوي، لكن ياسين لم يحصل على المجموع المرتقب، والتحق

بكلية التجارة و لم تصلح مغريات الأب في إقناعه لاحقا ليمسك أعماله.

أما مها فكانت تتمنى أن تكون مذيعة، على الرغم من عدم امتلاكها لأيٍّ من مؤهلات المذيعات، لكنها أخفقت في الحصول على المجموع الذي يؤهلها للالتحاق بكلية الإعلام، هذا الإخفاق المبكر جنَّبها مواجهة رفض لجنة اختيار المذيعين ورفض أبيها وياسين. هي عادة لا تحاول تحدي أحد، بل لم يُعرف لها رغبة ملحة، ربما كانت أكثر حكمة من ليلى في هذا المضمار، أدركت منذ البداية أن للاستسلام فضيلة لا يستهان بها، وأن الميل مع الريح حتى تمر يجنبها صداما هي في غنى عنه، فدخلت كلية الحقوق وتزوجت في نهاية العام الدراسي الثالث بعد قصة حب عارمة وحملت مباشرة، وقبيل امتحانات العام الأخير وضعت طفلتها الأولى، وأكملت امتحانات التخرج بصعوبة بالغة وبإعادة مادتين، ثم استقرت في بيت زوجها في المعادي، وتحولت تدريجيا لتكون نسخة طبق الأصل من الأم، فقط في سن أصغر.

هكذا كانت ليلى تتذكر كل ما حدث، لم يمن الله عليها بنعمة النسيان، لتفتح صفحات بيضاء في حياتها دون أن تكون فيها مسودات من مواجع الماضي، وكنوع من التحايل إزاء عدم تخليها عن مطالبها، كانت تحاول أن تهذبها لتناسب قالب قبول ياسين، لذلك بعد أن يئست من دخولها معهد التمثيل، غيرت وجهتها إلى ما يقترب من ميولها، واختارت أن تدرس اللغة الألمانية بكلية الألسن، ولكي تصرف انتباه الجميع عن رضائها بدراسة الألمانية وسعادتها واقتناعها ببديل التمثيل الذي اختارته، أخفت

هذا الرضا و لم تظهره لأحد، بل ذهبت بوداعة إلى ياسين في غرفته في أحد الأمسيات - بعد نجاحها في الثانوية العامة - وأخبرته أنها تخلت عن رغبة التمثيل بناء على رغبته، تحدثت بما يشبه العفوية أمامه عن عدة كليات ثم عرجت على إمكانية دراسة اللغة الألمانية، فما كان منه إلا أن اقترح عليها كلية الألسن. هكذا بدأت، منذ ذاك الحين، استخدام الإيحاء معه لتستنطقه بما تريد هي. ما إن ذكر أمامها اسم الكلية حتى قبلت، موهمة إياه بأنها اختياره، وأنها ليست سوى منفذة لمشيئته. هكذا سرت في الحياة كشعاع شمس واهن، لا تريد أن يشعر بها أحد، ربما لو أحس أحد برضائها لاستكثر عليها هذا الرضا، واعتبره خارجا عن التقاليد، لم يساعدها أحد أو يؤيدها أو يعارضها. كل شيء بخصوصها كان يمر وسط العائلة بفتور لا يجعلها تشعر بالسأم، بل يجعلها تشعر بنفي مطمئن، كأنها غير موجودة في هذا العالم، لتكتفي بخلق عالم آخر لها بعيدا عن هذا العالم، عالم يروق لها وتروق له.

*

أفاقت على صوت خشخشة أوراق الجريدة، لم تعرف كم مكثت جالسة أمام فاروق وهو لا ينتبه لجلوسها كجماد. قامت وغيرت جلستها لتكون إلى جواره وفي موازاته وليس وجها لوجه، ليس خوفا منه، بل خشية إطلالة آدم من عينيها، قالت:

"فاروق.. ياسين يريدني أن أسافر إليه، من أجل...

"أعرف..

أدهشها مقاطعته فبادرته:

"كيف عرفت؟"

"لقد رأيت مظروف خطابه على مكتبك، فراودتني نفسي أن أستطلع ما فيه!"

"وما رأيك؟"

"أنت حرة!"

استفزتها جملته، تمنت لو رفض في هذه اللحظة، أو أبدى اعتراضا بسيطا، أو قال لها مثلا إن الأولاد سيتعثرون في إدارة شئون البيت في غيابها، لكنه لم يقل سوى جملة مكونة من كلمتين قاطعتين: "أنت حرة"، قالها بطريقة تؤكد عدم اكتراثه. ربما كان غاضبا لأن الدعوة لم تشمله، مما يعني أنه لن يستمتع بالتنزه في فيينا، وسيحرم من متعة الفُرجة البطيئة التي يعشقها لكل فتارين العرض. على كل حال هي لم تكن تتوقع أن يقبل بارتياح، لمجرد أن ينغص عليها لا أكثر؛ لأنه اعتاد في كل مناسبة أن يُشعرها بأن وجودها مثل عدمه بالنسبة إليه. كانت المرة الأولى التي وصلها إحساسه باللامبالاة في عامها الثامن معه، يوم قرَّرتْ أن تتركه وتعود إلى بيت أبيها في حي السكاكيني، بعد تجربة الخيانة التي لم تخرج منها بمتعة تُذكر، بل بمزيد من الخيبة، ظلت شهرا كاملا تفكر في قرار العودة لبيت أهلها. كان رد فعل أبيها وياسين كل ما يشغلها، لانتفاء سبب المروق، فليست هناك أي مشاجرة ولو صغيرة

بينهما تستدعي مثل هذا القرار، لم يسبها و لم يُقصِّرْ في توفير حاجيات البيت، فقط هو شعورها بأن وجودها معه يُميتها ببطء، وأن تَرْكه هو التشبث بآخر طوق نجاة تلقيه لها الحياة للحاق بها، وقتذاك شعرت أن خروجها من البيت بمثابة عودة الهواء إلى رئتيها!

عندما دخلت بيت أبيها في مساء ذاك اليوم، وجدتهم يتسامرون ويضحكون، كان كل من مها وزوجها في زيارة للعائلة، ياسين أيضا كان موجودًا لسبب تجهله، متخليا على غير عادة عن سهره في الخارج، كانت الجلسة حميمية، لكن وصولها دون فاروق والولدين أثار فضول الجميع، أغلقت باب السؤال حوله بأن جلست كأنها مرتاحة وسعيدة بينهم، مدعية أنها كانت في زيارة صديقتها داليا التي تسكن في ميدان الظاهر، وفكرت أن تأتي لتجلس معهم قليلا. لم ينتبه أحد إلى شرودها طوال الجلسة، وتجنبها المشاركة في الحديث، توقعت كالعادة أن أحدا لم يلحظ ما تمر به، وفكرت أنها ستخبر الجميع بعد رحيل مها، ما إن ذهبت إلى المطبخ لتطلق سراح تنهيدة طويلة حبستها، حتى داهمها ياسين قبل أن تحتمي خلف أي دفاعات، سألها:

"هل هناك مشكلة بينك وبين فاروق؟"

"ليس هناك أي مشكلة!"

"إذن.. لماذا أنت هنا بدونه؟"

"قليل من الحرية يا ياسين!"

"صارحيني! ماذا حدث؟"

حاول التودد بنبرة صوت أقل حدة، فكان لابد أن تصارحه، لأنها قررت أن تمضي فيما قررت وأن يسمع أي أحد في هذا العالم - غير فاروق - ما يُتعسها ويقلق خاطرها، خاصة أنها توقعت دخوله عليهم في طرفة عين، ليسأل عن سبب خروجها في وجوده دون أن تنطق بكلمة، بل إنه وقف أمامها ليستفسر عن سر خروجها وهمّ بإمساك يدها فنفضتها بعنف وخرجت.

وجهت جسمها ناحية ياسين ونظرت في عينيه، كادت أن تبكي لكنها تماسكت. فضلت أن تناقش معه أحاسيسها بصراحة بعيدا عن البكاء والإشفاق، فقط راهنت على درجة وعيه، وتمنت أن يتفهم توق روحها إلى الانعتاق، والتعامل معها مرة كما لو كانت صديقة، وتناسي أنها الأخت التي يجب أن تخضع للتقاليد حتى لو قتلتها:

"ياسين.. أنا لا أريد الاستمرار مع فاروق.. ليس لأنه مقصر، ولا بسبب أي شجار، فنحن لا نتشاجر تقريبا، كل ما هناك.. أنني لا أجد نفسي معه.. لا أكون أنا التي أريدها.. أشعر بالتعاسة.. لا أطلب شيئا كبيرا.. لكن فاروق مهما اجتهد.. لن يعي تماما ماذا أريد منه.

هز ياسين رأسه يمينا ويسار في الهواء كأنه يستنكر الكلام أو لا يفهم ما تقول، صدمتها إيماءته، وأعادتها إلى يقينها بأنه لن يتعامل معها بمعزل عن شخصيته المزدوجة.

"هل تريدين الطلاق؟"

نفخ زفيرا وأكمل:

"هل خرجت من بيتك الآن غاضبة ودون إذنه؟"

لم تردّ، لكنه أصرّ على سماع إجابة، وعلا صوته مرددا السؤالين، فجاءت أمها من الصالة تستفسر. فأكملت ليلى دون أن تنظر إليهما:

"خرجتُ فحسب.. لم نتشاجر ولم أخبره أنني غاضبة.. لم أقل شيئا على الإطلاق!"

تدخلت أمها في الحوار بغضب واضح وصوت تحاول أن تخفضه فيخرج حادا مبحوحا:

"ألم تحسبي حسابا لابنك وابنتك.. أنت متهورة.. كعادتك دوما!"

أمها التي كانت دوما كشبح هلامي لا يخيف طفلا، ظهرت للمرة الأولى بمظهر الغاضبة المهددة لتخيفها! ليلى لا تستطيع أن تقنعهم باحتياجاتها، بل بدا لها في هذه اللحظة وأمام هذه الغضبة منهما أن احتياجاتها نفسها تبدو مجرد تفاهات من وجهة نظرهما، وبدا أنه كان من اللازم أن يضربها فاروق كل حين لتجد المبرر لتركه. واجهت تأنيب أمها بالصمت، واتجهت إلى غرفتها القديمة، التي أصرت الأم على أن تبقى على حالها، لتستقبل أقاربهم من المنيا، لكن ياسين دخل وراءها وقبل أن تتنبه لوجوده قال جملة واحدة:

"اقضي ليلتك هنا.. حتى تهدأ روحك.. وفي الصباح ارجعي وتحججي لفاروق بأي حجة جعلتك تضطرين للحضور إلى بيتنا.. وهو لن يدقق كثيرا!"

"كيف يا أخي، ياسين؟"

قالتها لنفسها بعد خروجه، كيف يعلم أنه لن يدقق في سبب تغيبها عن البيت. هو بالطبع سيعرف أنها باتت ليلتها في بيت أسرتها، ربما اتصل به ياسين الآن، واخترع له حجة لبقاء ليلى معهم، وربما طالبه بألا يضايقها بالاستفسار عن سبب تصرفها. تساءلت بعد أن أطفأت نور الغرفة ودخلت في جزيرة حلمها القطنية، كما كانت تطلق على سريرها في السابق، تذكرت أنها لم تنم في هذا السرير بعد زواجها سوى مرتين فقط، مرة بعد ولادة ابنها وأخرى بعد ولادة ابنتها. منذ خروجها من بيت أبيها صار سريرها للغرباء. تمددت وحملقت في السقف، حاولت استدعاء الوجوه التي أحبت وارتسمت عليه، دون جدوى، نظرت تجاه الجدار، وتخيلت للحظة أن باب المكان الذي كانت تفر منه نحو فردوسها مازال موجودا، وأنها إذا قامت ودفعته سيفتح. في هذه الليلة استعرضت كل من أحبتهم وأحبوها. كل شخصية فرضت نفسها على حياتها استحضرتها، وأجلستها لتحكم عليها بمعزل عن كل شيء، إلا ما اقترفوه في حقها.

في السابعة عشرة وقعت في الحب وكان من الصعب عليها أن تعبر عن حبها صراحة، أو على الأقل أن تخبر أختها مها التي دخلت عالم الجامعة الرحيب، أخفت الأمر بسبب الرقابة الصارمة المفروضة عليها من العائلة.

في المدرسة الألمانية كانت الرقابة مزدوجة من ياسين ومن مها، لكن بعد دخولهما الجامعة أصبحت أكثر حرية في الذهاب والعودة للمدرسة لعامين كاملين بمفردها، لم تفكر أبدا في القيام بأي تصرفات شائنة من وجهة نظر الأسرة، لكنها أرادت أن تسير مع صديقاتها في حرية تسمح لهن بالحديث عن الشبان، أو النظر من بعيد إليهم، أو سماع قصص الحب التي تولد، أو قراءة رسائل عشقهن المعطرة المرسومة بالورود، أو متابعة الإشارات الخفية وتلمس الهدايا والمناديل والعطور، أو الاستغراق في تأمل الوجوه العاشقة السرحانة سواء من البنات أو من الأولاد؛ هذه كانت أقصى الآمال التي تمنتها، كم شعرت بالغبن والألم، حين اكتشفت- قبل ثلاث سنوات أن أختها التي كانت تنصحها بالبعد عن الشباب وبأنهم خطر مبين وذوو ألاعيب وحيل- أنها غارقة لشوشتها في حب جمال ابن الجيران الذي يسكن في العمارة المقابلة! بل رأتها بنفسها يوم تسللت مع صديقاتها لرؤية المحبين الذين يذهبون لحديقة الأندلس خفية، لينعموا تحت أشجارها بسرقة قبلة سريعة أو لمسة يد خاطفة أو بوح عارم - حتى ولو كانت كلماتهم منقولة بالنص من الأفلام الغرامية - إلا أنها كانت تدغدغ أصعب فتاة وتجعلها ألين من قطعة ملبن. رأت أختها مها في ذاك اليوم بالقرب من برج الجزيرة مختفية تحت شجرة غارقة في قبلة خارج الحياة مع الجار الوسيم جمال ابن عازف القانون الشهير وطالب الشريعة والقانون في جامعة الأزهر، لم تصدق. كان حزنها مضاعفا لأنها اكتشفت ازدواجية شخصيتها فأختها لا تثق بها، تؤكد لها في كل حديث أن هذا فلتان مشاعر وأنه حرام. ظلت لوقت طويل لا تعرف كيف تتعامل

معها، خصوصا حين تبدأ مها في وعظها السقراطي الممنهج منتهية به عند الكتب الأخلاقية التي حفظتها عن فوائد العفة والحفاظ على الحياء!

إضافة إلى تشويش صورة الرجل في ذهنها، كانت صور النساء لديها غير مثالية، لم تتمكن من أن تتخذ منها نموذجا تستند إليه، فمها تعيش في عالمها بدهاء، تعطي لنفسها الحق في أن تعيش كمراهقة تحب وتُحَب، وتشير من الشرفة للجار وتتواعد وتلتقي به في الحدائق في الخفاء، بل تتجرأ لتقترب معه حتى شارع الشيخ قمر وشارع طور سينا بالقرب من ميدان السكاكيني محل سكن الأسرة، وقد رأتها ليلى أكثر من مرة، ولم تفصح لها عن ذلك أبدا. أما أمام الأسرة فتبدو ليس فقط في سمت الحمل الوديع الساذج الذي يقدم للأسرة علنا كل فروض الطاعة والولاء والالتزام بدستور العائلة، بل أيضا في تلاوة البنود كل حين في شكل مظهري على مسمع الأسرة في مناسبات تفتيش الضمائر، متخذة من ليلى التابعة حائط استقبال لهذا الإرشاد، وبذلك تكسب ثقة واطمئنان الأسرة تجاهها من ناحية، ومن ناحية أخرى تنسف مراقبة تصرفاتها وهي حاملة وحافظة كل هذا القاموس الأخلاقي النسائي لعائلة شريف الوراق، إضافة إلى المكر البيّن في توجيه دفة تشديد الصرامة إلى ليلى المسكينة، بالإيعاز المستتر بأن هذه الصغيرة هي مشروع تمرد في حاجة لصقل وتشذيب وقصقصة ريش!

الخالة محاسن ذات الفتنة الطاغية والأنوثة المفرطة لم تكن حضن طيّبة ورحمة كما هن الخالات في الغالب، بل انحرفت تصرفاتها لشكل عجيب

في مراقبة بنات العائلة والتفتيش في خصوصياتهن وتنبيه الأمهات لمزيد من الرقابة والحزم، فاستاءت منها ليلى ولم تعد تشعر بود نحوها، ولن تنسى ليلى ما حَيَتْ أن الخالة هي السبب في الكشف عن رسائل أسامة السرية بفضيحة موجعة، حين أحرقها ياسين في بطولة ذكورية استعراضية، كمن يقوم بثورة تصحيح أمام العائلة، فكسر بها خفقات قلب بريء.

أما الأم سامية فكانت مثل معظم أمهات هذا الجيل وهذه الطبقة. لم تكن في حاجة للعمل فأصبحت "ست بيت" مرتاحة. امرأة مليحة دلوعة لزوجها ذات أنوثة مبهجة نشيطة الحركة وساخرة، تعشق سماع سير الآخرين لكنها لا تثرثر بما سمعت، تبكي أثناء مشاهدة الأفلام العاطفية، وتعشق الحلي الذهبية وتقتني منها الكفاية. حدود إمبراطوريتها هي بيتها، أما مهمة الخارج فتراها تقع على الذكور، مسئوليتها داخل البيت هي الالتزام بتهيئة كل وسائل الراحة للعائلة كأنهم نزلاء فندق خمس نجوم، وهناك من تساعدها في مهام البيت من ترتيب وتنظيف مرة أو مرتين في الأسبوع. ترضي الجميع بتوفير احتياجات الكل. أحيانا تعرج بالوعظ غير المباشر – وبشكل أوضح للبنتين – في النصح والتأكد من السير على الصراط المستقيم. طيبتها تمتزج بالمحاسبات الفورية لكيلا تقع أي هفوة أو خطأ، ثم تقديم كشف حساب غير مباشر عن استتباب الأمور للأب. تسير خلف زوجها بكل رضا وارتياح وهو أيضا يعاملها بمحبة يشوبها نوع من الحزم، ويغطي كل احتياجات البيت والأولاد دون تذمر أرادهم أن يتميزوا فأرسلهم جميعا إلى المدرسة الألمانية التي أحبتها ليلى أكثر من ياسين أو مها.

لأعوام ظلت ليلى حائرة في الوصول إلى قلب أمها، بالتنفيس عن مشاعرها وهواياتها وأمنياتها في أي حديث خاص أو استفسار عن أوهى الأحاسيس العاطفية ولو بشكل غير مباشر، كلما كبرت اكتشفت أن أمها تتعامل معها بصرامة مفتعلة، كأنه دور محفوظ أفهموها أنه دور الأم، دون أي استثناءات، كموظف روتيني يلتزم بقانون متعسف ينفذه كآلة، وإذا لم تجد ردا جاهزا لمشكلة طارئة تطالبها بالانتظار حتى تستشير محاسن أختها.

في ذاك المساء، وجدت ليلى اللقب الذي يطابق حالتها بالضبط، عندما دخلت أمها لتعنفها على ترك البيت، لقد كانت الأم بالفعل شبحا هلاميا!

سألت صديقتها ناهد ذات يوم:

"ألا ترين أننا عموما كبنات أو كنساء مضطهدات يا ناهد؟"

"ماذا تعنين بمضطهدات؟"

"يعني، نفعل كل شيء بشكل يختلف عما يفعله الذكور.

"أنا شخصيا أفعل ما أريد، صحيح لا أبالغ، لكني أعرف كيف أستمتع بوقتي.

"لكنه في السر، تسرقين يا ناهد! تختلسين المتعة!"

"صدقيني يا ليلى! لو جرَّبتِ لوجدتِ أن أجمل المتع هي المتع المختلسة!"

"لا أدري، ربما يكون عندك حق، لكنها تبقى سرقات مؤقتة. أنا لست طهرانية، لكني لا أحب التصرف كلصة في أمور عادية لا تستدعي الخفاء. أريد أن أخرج من البيت فلا يسألني أحد: إلى أين؟ وحين أعود لا أريد أن يستجوبني أحد: أين كنت؟"

"افعلي مثلي. أنا أقول إنني عند صديقتي فلانة أو مع صديقتي علانة! وكل الأمور تسير دون مشكلات!"

"كل ما أتمناه أن أمارس هواياتي بشكل صريح. أنا أحب التمثيل، وأعشق الرقص مثلا وأحب أن أمارسه كهواية في معهد أو حتى في البيت، أشعر برغبتي العارمة في ممارسته، ما العيب في ذلك؟"

"التمثيل حرام والرقص عيب يا ليلى، الرقص درجة من درجات العهر!"

"والله؟! هل هذا صحيح؟ وما هو العهر في نظرك؟"

"الخلاعة!"

"وما هي الخلاعة يا فيلسوفة؟"

"لا أدري!"

"تماما.. هذه هي مشكلتنا يا ناهد، لا ندري ونردد أقوالا دون أدنى تفكير!"

"من الذي يتفلسف الآن؟"

رغم الاختلاف بين تفكير ليلى وناهد إلا أنهما كانتا متفقتيْن على الكثير، هي صديقتها الوحيدة حافظة أسرارها في فترة المراهقة وأول الشباب، حتى انكسرت العلاقة أيضا معها بعد سنوات قليلة، حين استقصى خطيب ناهد عن العلاقات السابقة لخطيبته، فاضطرت لإخفاء كل ما يتعلق بنزواتها الطائشة، ورمت له بجزء بريء من تجاربها هي الشخصية ومزجت كل علاقاتها بعلاقات ليلى التي لا يعتد بها حتى تشبع ذكورته وخضوعها، فاستاء خطيبها من سلوك ليلى، وكان هذا هو سر تبدل ناهد التدريجي نحوها، إلى أن أخبرها الخطيب بنفسه وبكل صراحة بما سمعه عنها، فانقطع التواصل بينهما وبين صديقتها؛ وكعادة ليلى لم تشأ أن تفضح أو تشي بأسرار صديقة عمرها، وفضلت أن تمضي بشعور التضحية والتسامي عن فضحها، لكن الأمر بقي غصة في حلقها عانت منه لزمن طويل و لم تعرف لمن تلتجئ.

في كل ضربة من هذه الضربات النسوية – التي كانت توجعها أكثر من قسوة الرجال – كانت تذهب إلى صورة وليد أخيها، الصورة التي تهرأت أطرافها من كثرة مطالعتها إياها. تذهب وتتساءل لو قدر له البقاء هل كانت الحياة ستلوثه كالباقين؟ أم اقترابهما كان سيجعله يتفهم مشاعرها. ظلام الغرفة وحالتها البائسة جعلاها تتذكر ما حدث معه فقد مات ميتة مفجعة في المنيا عند الجد عز الدين المنياوي، حين خرج مرة في تجربة صيد أولى مع أقرانه، انزلق في المياه وهو لا يعرف العوم، وفَرّ أقرانه مصدومين

من الحادث، ومن خوفهم لم يصرخوا أو يطلبوا النجدة. غرق وهو لم يتم السابعة، واكتُشف الأمر بعد ثلاث ساعات ونصف كانت كافية لصعود روحه من الماء إلى السماء! ربما الموت وحده، هو ما جعل ذكريات ليلى عن أخيها رومانسية الى هذا الحد، وجعل حزنها وبؤسها يبدوان الآن لها كما لو كانا على فراقه، اعترفت لنفسها في هذه الغرفة المظلمة، بعد أن جمعت أشباح مها وخالتها محاسن وأمها وأجلستهن على طرف السرير المقابل. لو سألتها روح أي منهن عن سبب بكائها في حالة التباس مشاعرها الآن، لقالت إن غياب وليد عنها هو السبب.

*

وقعت ليلى في الحب ككل فتاة و لم تجد سوى حافظة أسرارها والأمينة على خزائن الصداقة؛ ناهد صديقتها الأثيرة، فكانت تصرح لها بكل صغيرة وكبيرة، وتأخذ منها المشورة في بعض تصرفاتها البريئة في تجربتها الأولى: هل تُبادل النظرة بالنظرة، هل تبتسم له، هل تسمح له بالكلام معها، وكانت ناهد تحثها على المزيد وبألا تكون ساذجة وعبيطة، بينما ليلى تبدي تحفظا في التواصل والاسترسال عن شبه قناعة وشبه التزام بدستور العائلة، بينما عقلها الباطن يزين لها طريق التمرد وصفع تلك الدساتير المزورة التي تراها في تناقض تصرفات ياسين بين النظري والعملي وتلك التي تلمسها يوميا في سلوك أختها مها!

أسامة هذا الشاب البهي العابث الجريء. كان يطاردها كل مرة يراها فيها سواء كانت وحدها أو مع أختها أو أخيها. أعجبها هذا التهور

المختلف في شخصيته، وحين ركب مرة خلفها في الترام اقترب ودس في جيبها الرسالة الأولى، انزعجت كأن العالم كله ينظر إليها، كادت أن ترميها من جيبها فورا كأنه رمي في جيبها بجمرة، لكنها خافت أن يكون الرفض أفضح من السكوت؛ بينما شيطانها الداخلي القريب يلح عليها بهاجس هامس:

"اقرئي الرسالة أولا ولا تكوني حمقاء!"

حين نزلت من الترام شعرت كأنها تحمل في جيبها مخدرات. مشت في وجل حتى وصلت إلى البيت. هناك خشيت أن تلتقي عيناها بعيني أمها، وكانت مصيبة هلعها أكبر حين وجدت أن خالتها محاسن في زيارتهم؛ وأنها لن تتمكن من الدخول لحجرتها الخاصة لقراءة رسالة الحب الأولى في عمرها؛ فهي الوحيدة التي لا تستأذن في الدخول لغرفتها وتقتحمها وقتما تشاء. فضلت ليلى أن تدخل فورا إلى الحمام. أغلقت الباب عليها وجلست على طرف البانيو، ثم فتحت الرسالة المكتوبة بخط ركيك فقرأت:

"نور عيني..

قامت على الفور من مكانها كمن لدغها عقرب، شعرت بسخونة وجنتيها وتعرق كفيها وخفقة قلبها من الفرح والوجل، لم تفهم ما يحدث لها. أحست حين قرأت الكلمة الأولى، كأن الجملة رنت في أرجاء الحمام مجلجلة، وأن الكل سيهرع إليها ليسألها عما يحدث، وستكون الرسالة بعد لحظات بين يدي خالتها "المفتشة محاسن"، كما صارت تلقبها منذ زمن

ليس بالقصير. عادت لتقرأ الرسالة خطفا ووجهها يضخ بدم فرحان:

> **"غزالتي الحبيبة ليلى، ملكة جمال الكون.. نور عيني.. روح قلبي.. حبيبتي حياتي.. مشتاق لعنيكي.. مشتاق لك.. مشتاق وانا لسه مقابلك.. وفي عز الشوق يا حبيبتي.. وفي عز الشوق باكتب لك...**

كتب أسامة كلاما كثيرا بخط ركيك، لكنه حمل للمرة الأولى في عمرها كلمة "حبيبتي وكلمة "ليلى معا. كان هذا كافيا لتسمع دقات قلبها الذي يكاد يفر منها ويجلجل هو الآخر مثل صوت أسامة في الرسالة، الابتهاج لم يجعل فقط وجنتيها تحمرَّان بل كل جسمها يتغير، شعرت بسريان سخونة لا تعرف مصدرها تجتاح كل جسمها، شعرت في آن بقوة تكاد تجعلها تقفز كالغزالة وبضعف يكاد يشل كل أعضائها. شمَّت الرسالة العاطرة ثم قبلتها وأعادت القراءة العاجلة مرتين ثم دستها في جيبها. غسلت وجهها بماء بارد وتنفست بعمق ثم خرجت.

في ذاك اليوم دخلت ليلى الحمام عشر مرات، ولما انتبهت أمها، سألتها بانزعاج إن كانت متوعكة وتحتاج إلى مساعدة، فأوهمتها بأن العادة الشهرية داهمتها اليوم بشكل أقوى من العادة، لذا فهي مضطرة إلى التردد على الحمام.

ليلة لم تنم فيها ليلى حتى الصباح. أخفت الرسالة تحت وسادتها، وأحضرت بطارية الطوارئ وظلت طوال الليل تحت الغطاء تطالع الرسالة، تقبّلها وتشمها، وتعيد القراءة للمرة الألف حتى حفظت كل حرف فيها.

نامت وهي تحلم بأسامة يقبلها قبلة مثل التي رأت أختها ناعسة فيها وقد نَسيَت الدنيا. راودها الحلم في يقظة مبهجة سحبته معها برفق لحلم حقيقي، في الحلم انفتح الجدار تلقائيا بلا صوت، واجتاحها نور غشي بصرها، أغمضت ووضعت ساعدها فوق عينيها، ورويدا بدأت تتضح لها صورة المرج الفسيح المغطى بالعشب الندي الأخضر. كانت تركض بفرح نحو الانحدار المؤدي للبحيرة، صارت تألف المكان تعرف الأشجار والطيور والأحجار، تتحد مع المكان بسحر التعود. ذهبت للأرجوحة. لكنه كان قد سبقها إلى هناك، يتأرجح عليها وظهره لها. عرفته. اقتربت منه انجذبت له فأحست بخفتها، وجدت نفسها ترتفع عن الأرض وتطير بانسيابية وتراه من عَلٍ. نزل عن الأرجوحة يتأملها، فتهادت نحو الأرض. ما إن لمست قدماها الأرض حتى وجدت نفسها تتخلص من فستانها الطويل، تعرت وبدأت في رقصة ملائكية وشيطانية في آن، شعرت فيها بإحساس خفة طيرانها، بسيطرتها على كل خلية في جسمها. تحركت ذراعاها لأعلى وحولها في تناسق وقدماها دارتا في خفة راقصة باليه، كفاها المفتوحتان كأنهما أخذتا من نبض الطبيعة، فاهتز بطنها وصدرها وارتعش ردفاها، وأحست أنها لا تقف على أرض بل تتحرك في فضاء، ارتعش كل جسدها بعد الرقصة وهدأ تدريجيا، حين انتهت من رقصتها، انبهر هو بها. كانت تعرفه ويعرفها؛ حبيبها المنتظر اقترب منها، أغلقت عينيها، قبلها برفق، بل بالكاد لمس شفتيها، استسلمت فغمرها بقبلات أنعم، فبدا في مخيلتها داخل الحلم شخصا شفافا كملاك من نور، يده الدافئة كانت خلف عنقها تتسلل إلى ظهرها بدربة. شدها نحوه فاستجابت. التصق بها فشعرت

بلذة اللمس وتركت نفسها تذوب وجسمها يسخن ويتشكل. تريد أن تفتح عينيها لتراه، لكنها مُسيَّرة لا تقدر، لذة اللحظة تسحرها وتخدر كل كيانها ومشاعرها. فجأة شعرت بقوته وهو يصهرها في جسده، مد يده إلى كل ثمار جسمها المنتظرة، فاجأها وحشا أذنيها بكلمات بذيئة أخجلتها وأفرحتها. شعرت بتحرر رغم قبضته وانصهارها فيه، وبقدرة مثل لذة الطيران ومتعة الرقص. انزوت في جسمه، وقبل أن تفتح عينيها لتراه وتتأكد منه، تغير حلمها إلى كابوس. رأت فيه خالتها تقتحم غرفتها وخلفها كل أفراد العائلة، مرتدين جميعا ملابس في لون واحد. رفعت خالتها البطارية فوقها من أعلى إلى أسفل، فبدت كمصباح ساطع كالذي يُستعمل في غرف العمليات، سلطته على وجه ليلى المذعور، ثم سحبت الرسالة من تحت المخدة وقرأتها بصوت تجريسي متهكم، وكل العائلة في الخلفية رددت الكلام، قهقهوا وهي تراهم كأشباح. انتفضت من نومتها. تأكدت من وجود الرسالة تحت وسادتها. قامت عن سريرها ووضعتها تحت المرتبة، ثم جاهدت في استعادة النوم واستبعاد سحنة "طنط محاسن"، شعرت بعرق خفيف على كل جسمها له رائحة الندى، رأت على جسمها بعض السحجات الخفيفة والخربشات الخافتة. ابتسمت في التذاذ وحاولت أن تركض عائدة لمنتصف الحلم!

لم تنتبه ليلى في البداية أن الرسالة الأولى هي نفسها كلمات لأغنية شهيرة، لم تبالي، بل زادت محبتها أكثر لأغنية عبد الحليم حافظ ولشخص عبد الحليم نفسه، الذي صار منذ ذاك اليوم مغنيها المفضل، وكلما استمعت للأغنية كانت تسمع فيها صوت أسامة.

تعددت مناورات أسامة وبثه عشقه عبر رسائل كثيرة ومن أغنيات عديدة، لاقت كلها هواها. فالحب هو الشيء الوحيد الذي يسبغ قيمة كبيرة على أشياء لم ننتبه إليها أو لم تكن تمثل شيئا من قبل! جعلها تشعر باللهفة والانتظار والعتاب. وتغيرت حواسها وأصبحت أكثر رهافة. وعاشت أحلاما عذبة، وحرصا مبالغا فيه خشية اكتشاف أمرها، وعندما ألح عليها أن يأخذ رقم هاتفها، كتبته له؛ على وعد بألا يتصل بها إلا حين تسمح له هي بذلك، وفي الوقت الذي تراه مناسبا. كانت فيما بعد، لو كان إلى جوارها أحد، تلجأ إلى محادثته بصيغة المؤنث كأنها زميلة لها، بل أعطته اسما أنثويا (سمية). لم ينتبه أحد في البداية، لكن أمها لاحظت ارتباكها مع رنة التليفون وتورد وجنتيها، ثم همسها فيه وانزواءها به حتى لا يرى أحد وجهها.

الآن تدرك أن الأقسى بأسا هو أن تكون الأنثى لفرح الأنثى بالمرصاد، حتى إن كانت أمها، وأنه عليها من الآن أن تكون بمفردها في جلب الفرح لحياتها وتعويض المسلوب منه للحفاظ على سلامتها العاطفية، وألا تترك نفسها - مهما كان - فريسة اليّأس وضحية الأحمال المرهِقة لكل حس طبيعي منها!

لم تهنأ ليلى بحكايتها مع أسامة إلا لشهور قليلة، فخالتها محاسن تعرف كل حيل البنات وألاعيبهن. تعرف الارتباك والتلعثم وحمرة الخجل وحالة النشوة والتحليق فوق السحاب، نظرة واحدة منها لأي فتاة تعريها من دفاعاتها، هي لا تنكر خبرتها التي اكتشفتها من تجاربها في قصص حبها

الفاشلة السابقة حين كانت شابة، عزاؤها أنها تُسخَر هذه الخبرة – كما كانت تقول – لحماية فتيات العائلة. وبالفعل بخبرتها التفتيشية اكتشفت مزرعة الرسائل الغرامية النائمة تحت مرتبة ليلى، وانتهت قصة حبها قبل أن تبدأ.

كل ما نتج عن هذه التجربة، أنه منذ ذاك اليوم صارت السيطرة العائلية أقسى. وكان عليها لو أرادت أن تقيم علاقة في المستقبل أن تتخذ تدابير وحيلا لا تنكشف بسهولة. صديقاتها كالعادة قلن لها إن فيما جرى درسا مفيدا عن الرجل، فعند انكشاف الأمر، لن يبدي شهامة ولن يجنّ لغياب حبيبته كقيس، بل سيقع في حب الفتاة الأولى التي يلتقيها ربما كنوع من المواساة وربما لأنها طبيعته. على الفتاة فقط أن تنزوي بعيدا لتلملم شتات ما تبعثر منها، لكنها كالعادة أيضا، لم تصدق كلامهن، لأنها تكره التعميم ولأن رأيها أن كثيرا من النساء يفعلن الشيء نفسه في الظروف نفسها، كل ما هناك، أنها نظرت إلى داخلها فقط، ورأت فارس الحلم الملثم، يعدها بلقاء ما في مستقبل أيامها.

كلما اتسعت حرية الرجل مع النساء، ضاقت على امرأة قادمة يجهلها!

بهذا التصور أيقنت ليلى أن فقد حريتها جوار أخيها ياسين سيستمر لوقت أطول، وبدا لها أن رسوبه في العام الأول في كلية التجارة، جعلها في بؤرة اهتمامه إلى جانب اهتماماته الأخرى، ربما ليخفي إخفاقه أمام الجميع، كان يبرر هذا الإخفاق بأن اهتماماته الموسوعية جعلته

يحضر محاضرات موازية في كلية الفلسفة لأنه كان منبهرا بأستاذ شهير له عمود أسبوعي في إحدى الجرائد القومية، و لم يفوّت له محاضرة أو لقاء أو مقالة أو كتابا. نجح بعد عام لكنه كرر الرسوب مجددا في عامه الثاني لاهتمامه بمحاضرات الأدب الألماني بكلية الألسن. هكذا كان يجد المبرر الذي يتوارى خلفه كلما رسب، هي لا تنكر أنه يبني نفسه فكريا في ميدان الفكر الأكثر رحابة، لكن سؤالا كان يداهمها دوما:

"ما فائدة هذا البناء ما دام لا يغير فكره وتصرفه معها؟"

كان يؤمن بأن الجامعة لا يجب أن تكون مكانا للامتحانات بل مكانا أوسع للعلم والبحث، وأن تكون كلياتها مفتوحة ليختار الطالب اختصاصاته كيفما أراد، ويحدد لنفسه الوقت الذي يراه لازما لإنهاء دراسته. كانت له أفكار كثيرة فالتة ومبتكرة. هناك سبب آخر خفي جعله يواظب على التواجد في كلية الألسن: وجود هيام زميلة ليلى، فمنذ المرة الأولى التي شاهدها فيها أصابه سهم الغرام. ظل يستفسر من ليلى عنها بأسئلة التحري الناعم، بسؤالها مثلا أنه يعتقد أنها تسكن في العباسية؛ فتصحح ليلى بأنها تسكن في ميدان الظاهر، أو بأنها متزوجة، فقد رآها تحمل طفلا صغيرا، فتصحح ليلى، إنه ابن بنت عمها وهكذا. كان يجمع معلومات عنها لنفسه في أسئلة من هذا النوع غير المباشر الذي يحتاج لردود استنكارية وتبريرية في آن. المهم في الأمر أن فارق الأعوام الدراسية بين ياسين وليلى تقلص، ولما بدأ هو عامه الجامعي الثالث، كانت ليلى قد بدأت عامها الجامعي الأول ومها تزوجت وأصبحت على وشك وضع طفلها الأول والتخرج في العام نفسه.

هيام كانت شخصية واثقة من نفسها، جميلة هذا الجمال الصافي الرزين. واثقة من حسنها لكنها تدرك أن أولويتها لعقلها ستمنحها اكتمالا وإشباعا أكثر من شكلها. أبوها مصري وأمها نمساوية، ولدت في فيينا وجاءت صغيرة لمصر وأقامت مع الوالدين. ورثت معظم ملامح أمها من بشرة أوروبية فاتحة وعينين صافيتين بزرقة وسط أوروبا المميزة مع شعر كستنائي طويل وغزير وصوت رقيق أخاذ، ومن أبيها ورثت امتلاء خفيفا في غير سمنة وخفة دم وسرعة بديهة. كانت مواصفات مثل هذه في أي مجتمع شرقي كافية ليلهث وراءها العشرات. حكت لليلى أن ياسين اعترض طريقها مرات بالصدفة وأن هذا لا يضايقها، وقالت لليلى إنها ترتاح إليه وإلى حديثه الجذاب، وإنها أرادت أن تبوح لها حتى لا تشعر بأنها تغدر بالصداقة التي بينهما. أسعدها أن تعترف هيام لها بهذا، أن تزداد علاقتهما وثوقا، ورأت في الأفق قصة بينهما توشك أن تبدأ، لم يضرها هذا الحدث، فربما خفف هذا الحب من تعنت شخصية ياسين بالتفهم أو بالانشغال، وربما تقوم هي في المستقبل بدور ما بينهما يجعل ياسين متساهلا قليلا معها، أو يمنحها هذا الوضع على الأقل قدرا من القوة الخفية للمرة الأولى تجاه أخيها.

لكن ياسين لم يتعامل مع هيام بمعزل عن شخصيته البيتية، و لم يستطع أن يطبق نظرياته عن الحرية والمساواة معها، رأته ليلى بعد شهرين مبتئسا وقد أهمل تهذيب لحيته وشاربه وعزف عن الخروج، فبدا كما لو كان درويشا على أعتاب مولد، تعاطفت معه على الرغم من كل شيء. لا يجب أن يكون التعاطف مبررا تجاهه، وإلا لتعاملت معه بعداء منذ فترة

طويلة. وعلمت السبب بمجرد أن سألت هيام ذات صباح، فقالت إنه تكلم بفخر أن أختيه البنتين لا يمكن أن تكون لهما أي علاقة ولو بريئة بشاب أو رجل قبل الزواج ولا حتى لقاء عابر وسط الناس. اندهشت، واعتقدت أنه يمزح، فارتبك، وحين واجهته بخطأ تصوره هذا وسألته عن وضعهما هما معا في ظل معتقداته الراسخة تلك، تحجج لها بأن هذا وضع آخر، فأصرت أن تعرف منه ماهية هذا "الوضع الآخر"، لكنه رغم حججه الكثيرة ومنطقه المرتب لم يقنعها.

يكون ياسين في أضعف حالاته وفي أشد الارتباك والتناقض في الرد على أسئلة من هذا العيار الذي يخص التطبيق على العائلة والأختين تحديدا. أصرت هيام على سماع رده بل على إحراجه، لأنها شعرت بخسة الكلام حتى ولو بدا مطليا بالعفوية. عجز عن الرد وافتعل خلافا وهميا وانعزل.

"لن تستطيع أن تخدع الناس كل الوقت!"

هذه الجملة التي كانت مُدرِّسة المنطق تشرح عليها نظرية منطقية تذكرتها الآن، علقت في ذهنها قديما ومازالت عالقة، منذ أن نطقت بها المعلمة في الصف الأول الثانوي، وقت أزمة رغبتها الملحة في التمثيل ورفض ياسين، على الرغم من تشدقه بحق الجميع في الحريات. تتذكر الآن كل ما حدث، ها هي أمها وخالتها محاسن ومها على طرف السرير، وأبوها عند طرف النافذة ينفث دخان سيجارته، أما ياسين فما زال يروح ويجيء كبندول ساعة عتيقة لا يكف، يحدث صخبا ويتضاعف صوته عشرات المرات كصدى في كل أرجائها، ياسين، ذلك الرجل الذي كان

كمسمار مدقوق في جنبها، يتناسخ إلى عشرات الشخصيات ويظهر خلف كل شخصية متناسقا ومتوافقا تماما مع ما يقول، لأنه يلبس لكل حال مسوح الشخصية، ربما بصدق لا يحس بزيفه، فهو يعبّر بأمانة عن مزاج وطبيعة الشخصية التي تتلبسه، لكنٍ في الوقت نفسه، بسبب سطوته وما أسبغته عليه العائلة من رتبة أعلى، تمكن - في ظل تناقضاته - من أن يرسم مصير ليلى في الحياة، ومن عجائب القدر أنها أرادت بالتمثيل أن تتعدد في شخصيات خيالية يرفضها هو، بينما يتعدد هو في شخصيات واقعية تتناسل ببساطة ويتعامل معها الجميع على أنها حقيقية!

تستعرض ليلى ما حدث وقتذاك، اتجهت إليه في عزلته البوهيمية وقالت:

"هيام إنسانة رائعة وترتاح لك؛ فلا تكن قاسيا معها."

بوغت من المباشرة، ومن علمها بالعلاقة ونصيحتها الواثقة. سألها في ذعر عما تعرفه، فلم تنقل له إلا ثناء هيام عنه.

ما فعله ياسين آنذاك أثار تعجبها، ما إن عرف بأن ليلى مطلعة حتى أنهى كل شيء بينه وبين هيام، لم يقترب مجددا من كلية الألسن، و لم يحاول إعادة علاقته بهيام بعيدا وفي مكان آخر، ربما لأنه لم يشأ أن يقيم مغاراته العاطفية في ساحة قريبة من مرمى نظرات أخته، فتطالبه فيما بعد بحقوق كالتي يمنحها لحبيبته، وربما لأنه أدرك في وقت مبكر جدا، أن هيام ليست بالشخصية التي تقبل بازدواجيته!

* * *

تعالى صوت أذان الفجر وهي كما هي في قرفصتها بالملابس التي أتت بها على السرير. صوت المؤذن نفسه الذي تعودت عليه، يأتيها من المسجد الذي يظهر طرف مئذنته في مواجهة نافذتها من خلف حواف البيوت مع السماء التي بدأت تتبين. استقامت واقفة، وقررت أن تصلي. فكرت أن تغتسل من خيباتها وذكرياتها بالصلاة. هي دوما تلجأ إلى الله في نهاية المطاف، لكن بعد يومين من المواظبة والدعاء بكل مسامها، يعود إليها الإحساس بالتكاسل، وتأخذها دوامة حياتها إلى الأعماق. قبل أن تعود لذكرياتها، انتبهت فجأة إلى أن فاروق لم يأت إلى بيت أبيها، لم يدفعه فضوله حتى لاستجلاء أمر اختفائها هكذا، حتما توقعت أن ياسين قد اتصل به، لكن ألم يكن من باب إظهار الود والرغبة في الحفاظ على زوجته أن يأتي؟ "لا بأس!" قالتها لنفسها في مرارة، وتركت الذكريات تستكمل مداهمتها لها.

عندما رأت هشام، كان هذا في عامها الثاني بالكلية؛ هشام الهمجي بذكاء والأنيق بفوضوية، والمتحدث بعفوية. ظاهريا يبدو كأنه لا يأخذ أي أمر بجدية، لكنه جاد حتى النخاع حتى في إطلاقه للنكات وإشاعة المرح يضمِّنه مغزى ذكيا. تلتف حوله الفتيات وهو لا يبالي؛ عن ثقة لا عن تكبر، فيتوددن له أكثر، فأغلب الفتيات يصدقن هذا النوع الذي لا يتجمّل و"يأنتك" نفسه لاستمالة قلوب أو الفوز بلحظات حسية مؤقتة. حين يقع أي زميل أو زميلة في مشكلة يكون هو أول من يهرع لحلها؛ وما إن تنحل حتى ينأى بنفسه بعيدا متجنبا أي شكر أو امتنان. هذه الصفات انتبهت لها ليلى، بل أكثر من ذلك، لأنها كانت على مسافة منه، لا تتقرب

إلا نادرا وبما تفرضه الظروف، وهذه المسافة هي أيضا ما أتاح له أن يتأملها بروية ويغلبه الفضول ليعرف أكثر عن طباعها وتفكيرها. بدأ هو في التودد إليها دون ملاحقة. اقترب منها بالشكل الذي تحبه، وفاز كثيرا بصدف انفرادها، فتحدث إليها أحاديث واثقة عن نفسه وتحدثت باختصار عن نفسها. ارتج قلبها له واشتاق إليه في كل طلة وكل غياب، حتى بدأ طيفه يطاردها صحوا ومناما. التقت به في كافتيريا الجامعة مرات، ثم في أماكن عامة بجرأة منقوصة، كانت تخشي أن يحرق ياسين كومة مشاعرها الجديدة برعونته. كتمت سرها، رغم أنها كانت في أمسّ الحاجة لصديقة تخفف عنها لوعتها وتطمئن بالها.

أعجبه منها ذات يوم أنها لا توافقه على فكرته المتطرفة عندما تحاورا وقال لها:

"من الضروري أن تستولي الدولة على أموال وأملاك الأغنياء وتصرفها وتوزعها على الفقراء، حتى لا تتحول الدولة تدريجيا إلى الرأسمالية المطلقة؛ فالنموذج الشيوعي – رغم انهياره – هو أفضل النظم البشرية اقتصاديا إن لم يكن سياسيا!"

"لا أعتقد؛ فالشيوعية حبست الناس كأشخاص متساوين في العبودية، لهم الحق في السخرة، دون أن يشعروا بسبب تعتيم صورة الآخر على الجانب الآخر من العالم، وجلب كوارثة فقط والتنبيه الدائم على أنه العدو المبين.

"هل ترين أن الرأسمالية هي الحل؟"

"لا، لم أقل ذلك؛ فالرأسمالية أيضا استخدمت العبيد بامتياز وبإيعاز القدرة على القفز من سور الفقراء إلى مرج الأغنياء والتمتع بثمرات المكاسب الهائلة المنتظرة، ومن سيتخلف سيكون مصيره مثل مصير الشيوعيين، وأيضا بالمثل دللت بكوارث المعسكر الشرقي وتنميطه للبشر وبعدائه الأزلي وخطره على المعسكر الغربي الحر!"

"تماما هذا ما أراه.

"نعم لكن عليك أن ترى الصورة كاملة يا هشام! كلاهما يستخدم البشر كفئران تجارب في مختبر المصالح السلطوية!"

"لكن لابد من نموذج واضح للبشرية لتسير عليه!"

"هذه في رأيي هي المأساة، البحث عن نموذج واحد يصلح للكل. ليس هناك نموذج واحد مثل زِيٍّ موحد يصلح لكل البشرية!"

"لكن بدون نظام اقتصادي قوي ليس هناك حل!"

"ربما في الحل الاجتماعي المنسي طريق للتجريب، ليس على الطريقة الشيوعية!"

"لكن الحلول الاجتماعية تميل في الغالب إلى الفوضى!"

"لا أعتقد ذلك. الشعوب نضجت لكنها ما زالت أسيرة الملكية الخاصة وفاقدة لمعنى الملكية الجماعية؛ فلا الرأسمالي يستطيع حلها ولا الشيوعي. لم يبرز حتى الآن الشكل الاجتماعي المناسب

الذي يمكن أن يتنازل فيه الكل لصالح الكل، وليس الكل لصالح الفرد رأسماليا، ولا الفرد لصالح الكل شيوعيا، وأن تكون السلطات مقننة ومراقبة ومتداولة على الدوام.

طال حوارهما في ذاك اليوم بكلام كثير. أكدت له صعوبة تحقيق تلك النظريات في الواقع العام، ثم أنهت كلامها قائلة:

"إن التجريب ولو على سبيل الغذاء المعرفي يوحي بأمل التغيير ولو بعد حين؛ فالسياسة والاقتصاد لا يحتاجان لمفاجأة بالتغيير فقط أو بالثورة فقط، بل لِمراس مضنٍ وصبر طويل قد يمر بمرارة الحروب، لو تجاوز جهد التفكير السلمي أولا!"

كان هشام يستمع لها بانبهار ويستمتع بحوارها. استراحت أيضا لإنصاته للنهاية، عوضها ذلك عما تتمناه من أخيها منذ سنوات طويلة. وأعجبها منه أكثر، يوم أن دعاها إلى بيت أمه لتتعرف عليها، التي رحبت بها في هذا الحي الشعبي القديم؛ حي المطرية. وجدت فيها صورة للأم التي تحبها، حكيمة ومضيافة وتحب الناس وتفتخر بابنها وابنتها. زوجها كان يعمل في مطابع الأهرام وتوفي في حادث العبّارة السلام 98 في البحر الأحمر، فانكشف لهم كابوس انهيار المجتمع قبل غيرهم، وجعلهم من صفوف المعارضين مبكرا. بالمعاش الضئيل تمكنت الأم من مصارعة الحياة بمشقة حرمان، واستطاعت أن تكمل حلم زوجها بإلحاق هشام بالجامعة والآن أخته فاطمة في الثانوية العامة، متفوقة وترغب في دراسة الهندسة المعمارية، منبهرة بفكرة عمارة الفقراء للراحل حسن فتحي وطريقة زها

حديد العراقية للعمارة النائمة. رأت ليلى كيف يتعامل هشام مع فاطمة، حنان أخوي يثير الغبطة، يمازحها بلطف ويهتم بها. رأت جوا أسريا حميميا ومريحا رغم تواضع الحال. تأكد لها للمرة المائة أن الراحة المادية لا تخلق الراحة الأسرية وأن هناك أشياء أخرى تحتاجها راحة البال والسكينة، ليس بالضرورة أن يكون اليسر المادي أساسها. وجدت هشام صادقا، لم يخش أن يعرّفها على محل سكنه في الحي الشعبي العريق ولا على عائلته الصغيرة، لم يخجل أو يتجمل، رغم أن مظهره في الجامعة وأناقته يُوحيان بغير ذلك، وأنه محل استدارة كثير من أعناق الطالبات نحوه، بينما هو يسير مبتسما واثقا وعيناه على عيني حبيبته الأثيرة ليلى. ما أجمل أن ترى الحبيبة صورتها وحدها في عيني من تحب! كم امتنت له على هذه الحساسية! على لفتات صغيرة تدخل القلب وتبقى فيه للأبد؛ تذكره عيد ميلادها وإصراره على دعوتها في كافتيريا قصر النيل وحدهما؛ وعلى إهدائه إياها في ذاك اليوم رواية "الحب في زمن الكوليرا" بالألمانية التي لم تكن متوفرة بالعربية بعد؛ ثم مؤازرته لها أيام امتحاناتها رغم انشغاله في امتحاناته. كان يهديها كل حين شريط كاسيت موسيقيا أو غنائيا من اختياراته في ذوق رفيع، تستمع إليه فتفهم رسالته وتحب طريقته الرومانسية القديمة. في رحلتهما الجامعية إلى الفيوم كان لطيفا جدا يحرسها بعينيه ويحاسب عليها من نزوات الشباب، و لم يفعل أكثر من أن أمسك كفها في الأتوبيس ليقرأ لها طالعها. ضحكت يومها كثيرا وكانت تتمنى لو تبقى يدها في يده طوال العمر؛ لو يحتضنها مرة ويقبلها ويُعلَم بأشواقه على بشرتها. كانت ترى الوله الذي يملأ عينيه ويفيض، وترى احترام زملائه لهما واحترام

علاقتهما. يعود إليها حلم قديم ليراودها. تبحث في كل مرة عن ملامح الوجه الذي يرافقها، لكنها أبدا لا تصل إليه!

تخرّج هشام بتفوق أثلج صدرها؛ تفوق عولت عليه حياة كاملة. أدركت منذ زمن أن هذا هو رجلها المستقبلي، وعليها أن تسانده في مشواره ليسعدها بحياة مشتركة. لكنهم استبعدوه رغم أحقيته في التدريس الجامعي. سقط في دوامة الاكتئاب بسهولة لم تكن تتوقعها من شخص مثله. وقفت ليلى إلى جواره تؤازره وتؤكد له أن هناك عملا ما أفضل ينتظره. بقي عاما كاملا يقبل أعمالا يصفها بالخائبة، يقوم بها بلا روح، وتدهورت أحواله النفسيّة وأهمل هندامه وصار أكثر عصبية مع الكل، ومع ليلى بالأكثر رغم أنها تحملته للنهاية. ثم فاجأها ذات يوم بأنه تراسل مع جامعة فرنسية ليكمل دراساته العليا في باريس، كانت مفاجأة ألجمتها. أحلامها تكاد تنهار، فهو يتحدث عن سفره وعن دراسته وعن مستقبله وعن رغبته؛ فقط عن نفسه. لم يكن في الحديث أي كلمة مشتركة تجمعها معه، بدا لا مباليا بكل ما يجمعهما. حاولت أن تستفسر منه عن فترة الإقامة؛ عن مصيرهما معا؛ عن وضعها معه، لكن دون جدوى. صحيح أنه لم يعدها بشيء وهي لم تكن تنتظر أو تتوقع أي وعود منه؛ فقد كانت موقنة أن ما بينهما أسمى بمراحل من الكلام والوعود، استفسرت منه عن إمكانية ذهابها معه. رد بصلف واستهتار غير معتادين منه:

"كيف تسافرين معي.. هل تفكرين حالك أوروبية؟"

"لم أقل هذا، كنت أظن أن هناك حلولا يمكن أن تجمعنا! وأنا سأنتظرك مهما كان!"

"لا تنتظريني.. قد لا أعود، ومن قال إنني سوف أعود لهؤلاء الخنازير الخونة!"

"لا تنس أن هنا في هذه البلاد من سكنتَ قلبها وعقلها، وتستطيع أن تضحي بالغالي من أجل إسعادك!"

لم تتوقع بأي حال من الأحوال هذا الانقلاب المفاجئ، و لم تحسب أبدا أن الضربة الموجعة ستأتيها منه، وأنه ليس سوى صورة مشابهة لياسين. فوجئت بكلامه الذي تحول إلى النقيض، و لم تعرف ماذا تفعل، فعلاقتهما شيء خارج عن الناموس العائلي، وعليها كما بدأت بعيدا في الظل أن تظل دائما في الظل، حتى تموت ويقتات عليها دود النسيان دون أن يعلم أحد. كل ما هناك أن هشام أثرى حياتها لعامين كاملين استطاعت خلالهما أن تحيا ببعض الألوان والورود والأحلام المنقوصة. ليلى لا تصدق ما تقوله لها صديقاتها اللاتي تألمن من قصص حب فاشلة، عندما كن يُردَدن على مسامعها أن الذكَر يعتمد في علاقاته مع الفتيات على حرية مشوهة اكتسبها من كونها علاقة خافية، لا قيود عليها أو التزام فيها، وأن الشاب غير ملتزم تجاه فتاته مادام الأمر غائبا عن الأسرة أو بإمكانها تجاهله، وأن الالتزام والشهامة لا يأتيان إلا في وجود جماعة تشهد على كلامه، وتلزمه بوعوده وتحاسبه إذا أخل بكل هذا. ولأن ليلى موقنة أن ثمة رجلا على

سطح هذا الكون لم يصبه الفساد العاطفي، هذا الرجل الذي تحلم به لابد أن يكون موجودا على الأرض كما تقول الأسطورة، فكل امرأة على سطح هذا الكوكب لها رجل بمثابة المكمل أو قسمتها، نصفان ناقصان يظل كل نصف يبحث عن الآخر حتى يجده، فيكتمل بالعثور عليه معنى حياته ودائرة سعادته، ويظل يشقى، دون أن يدرك سبب شقائه، حتى إذا مارس طقوس الحياة جميعها، من حب وزواج وإنجاب حتى يبلغ الموت، وقد لا يدري أن حبه الحقيقي ينتظره في مكان آخر، وأن حياته قد مرت مع الشخص الخطأ، وعليه إما الارتهان والخنوع للنصيب أو المجاهدة لإعادة البحث عن القسمة. يلتبس عليها الأمر أحيانا، تكفر بفكرة النصيب تحت وطأة ما يحدث لها، لكن حلم القسمة يراودها ويعيد إحساسها بصدقه.

أبلغها هشام بقرب سفره إلى فرنسا وتأكيده الحجز، استسلمت وقالت إنه لم يتبق لها سوى أمنية أخيرة؛ أن تودعه في مطار القاهرة قبل رحيله. أعلمها بيوم وساعة السفر ورقم الرحلة والخطوط الجوية.

بصعوبة غير عادية أقنعت الأسرة بالتزامها بمحاضرة مبكرة جدا في الجامعة في صباح اليوم الموعود. نهشها الأرق تلك الليلة. كل أحلامها تتسرب من بين يديها، ولا من معين. نامت مكدرة تخشى أن يأخذها النوم فيفوتها موعد سفره، وتخشى أن تصحو لتشهد يوما معذبا في وداعه. رافقها ياسين حتى بوابة الجامعة، انتظر إلى أن غابت عن ناظره ثم مضى. عادت تلهث لتأخذ تاكسيا حتى المطار. نزلت عند بوابة الدخول.

عرجت في خطاها بين قدم خفيفة تريد أن تركض لطلته القادمة وقدم ثقيلة تستنكر أن تعيش لحظة فراق قادمة، لا تعرف أترفع عينيها للبحث عنه أم تخفضهما خوف اصطدامهما بعيون تتعرف عليها. قلبها يوجعها ويأمرها بأن تنظر ما إن دخلت من البوابة، حتى صارت مثل حيوان أسير رموا به في قفص ضيق. وقفت في زاوية تتيح لها رؤية المسافرين القادمين. ظلت عيناها تتنقلان إلى كل شخص يدخل إلى الصالة. طال الوقت و لم يدخل هشام. ذهبت لشاشة معلومات رحلات المغادرة، لم تجد أي طائرة ستغادر إلى باريس في ذاك اليوم. كانت قد حفظت الموعد كاسمها، وكان قد قال لها إنه سيسافر على الخطوط المصرية في الثانية عشرة والنصف، وها هي قد حضرت في الثامنة والنصف. شكت في معلوماتها، فأخرجت الورقة التي سجلت فيها موعد السفر، كل شيء كان صحيحا. سألت في مكتب الاستعلامات عن الرحلة التي ذكرها لها، قيل لها إن هذا هو رقم رحلة الثلاثاء وأن اليوم يوافق الخميس، لكن هناك رحلة إلى فرنسا في الثانية والنصف بعد الظهر. فضلت الانتظار فلعل وعسى! حاولت في هذه الأثناء الاتصال به تليفونيا، لم يرد. انتظرت حتى الثانية والنصف، حاولت الاتصال بأخته فاطمة، لم ترد، انتظرت واللهفة تنهشها، لم يكن معها رقم الأم. انتظرت إلى أن ذاب صبرها وتبخر، بقيت حتى الثالثة والنصف في المطار وبكاء حزين ينشع من كل جسمها، ووجهها مازال معلقا بكل الداخلين، واقفة تتسول الوقت وتدعو لنفسها بالرحمة من عذاب الانتظار، ثم عادت لتسير ثم تقف، تنظر، تمشي، تقف، تنظر في ساعتها؛ أفعال كررتها مائة مرة. جربت الاتصال مرة أخيرة بفاطمة،

يداخلها بصيص أمل أخير أن يكون هشام قد تراجع عن قراره؛ وستعتبر عذاب انتظاره المميت قربانا لبقائه، وينغص عليها في آن بصيص اليأس من شكل تصميمه الأخير وحدّته. ردت أخته، فبادرت ليلى في لهفة:

"أين هشام يا فاطمة؟ لماذا لم يأت حتى الآن إلى المطار؟"

"أهلا ليلى! المطار! ألا تعرفين؟ هشام قد سافر بالفعل قبل يومين؟"

لم تردّ ليلى، احتقان البكاء خنقها. شعرت بكل إعيائها المؤجل يغمرها في لحظة، كادت أن تتهاوي من وقفة الساعات الطويلة منذ الصباح وأرق الليلة السابقة. وقعت السماعة وظلت تتأرجح كبندول كبير في الهواء وهي تسمع صدى صوت فاطمة يناديها.

أخذت تاكسيا إلى البيت، وأمرت السائق ألا يُركب أي أحد معها وأن ينطلق بها إلى ميدان الظاهر أكملت في التاكسي كل ما تبقى من بكاء الانتظار بنحيب مكتوم، كيف يحرمها من اللقاء الأخير؟ تساءلت: هل تود وداعه حقا؟ أم تراها كانت تريد حضور لحظة قبر أحلامها فقط.

شقشق الصبح قبل أن تصلي الفجر، وبدأت أصوات الناس تصل إلى أذنيها، فكرت أنه عليها أن تعود إلى بيتها قبل أن يستيقظ أحد في بيت أبيها، لا تريد أن ترى أيا منهم، لا أمها ولا أباها ولا ياسين، وقفت خلف النافذة فاستطلعت عيناها عربات الكارو وهي تحمل الخضار والفاكهة في

طريقها إلى سوق الخضر القريب، وبعض الرجال والنساء يحملون بقايا نعاسهم وبؤسهم ويسيرون، تركت مكانها وتجولت في الحجرة، تلك التي جمعت فيها الليلة الفائتة كل من شاركوا في صياغة حياتها بحجة حمايتها، ثم خرجت من الغرفة. كانت السكينة تملؤها، فمازال الجميع نائمين. توجهت إلى الباب مباشرة، فتحته ثم أغلقته وراءها بهدوء. تؤرقها كثيرا فكرة الخروج والدخول من أبواب تظن أن خلفها الأمان وراحة البال، لكن شعورا ما يداخلها دائما بأن الخروج من أبواب تلك البيوت التي تحبها أكثر ارتياحا من العودة إليها!

لا تعرف كيف وصلت إلى بيتها، لم تغْف عيناها لحظة، لكنها كانت في حالة صحو مضاعف. قبل أن تضع المفتاح في ثقب الباب أخذت شهيقا عميقا وأغمضت عينيها، لكن المفاجأة كانت أن فاروق قد أغلق ترباس الباب من الداخل، وعليها إن أرادت أن تدخل إلى حياته مجددا، أن تستأذنه.

فاروق نوع من الناس ممن تعتقد أنهم خلقوا في الحياة ليكونوا موظفين روتينيين مملين، حتى في مراهقته وشبابه الأول كان يختلف عن أقرانه، لا يورط نفسه في أي مهمة لا تجلب له فائدة مضمونة. إنسان مبرمج على أن النفعية هي أساس الحياة. يقبل مساعدات الآخرين ولا تنقصه كياسة الشكر والامتنان، لكنه يتجنب تقديم المساعدة من تلقاء نفسه، يتهرب بمكر لو وجد نفسه مضطرا. يعول على ملابسه في كل علاقته، والكرافتة عنده أهم معلم في ملابسه، لا تراه بدونها مهما كانت الأحوال، يؤمن بالمقولة: "الرجل بلا كرافتة ليس رجلا!". حتى يكاد من لا يعرفه يتخيل أنه

لا ينام إلا بها. يظهر دائما ببدلة مكوية بعناية وحذاء لامع يبالغ في تلميعه من أي غبار، لذا يحتفظ في جيب البنطلون الخلفي بمنديل إضافي أسود لمسح الحذاء، يحمل في الجيب الصغير للجاكيت مشطا صغيرا لتصفيف شعره. هو نوع غريب من الرجال، يكاد يقلد المرأة في حركة لا ينتبه إليها. فلو وجد سطحا عاكسا كزجاج أو مرآة، تراه يبطئ أو يتوقف، يعدل من كرافتته ويلتوي بجسمه يمينا ويسارا وينظر لشكل شعره وترتفع كفّاه معا للطبطبة على شعره ولتسوية أطراف هندامه. وحين يريد أن يوحي لمحدثه أنه يصغي باهتمام يهز رأسه صاعدا هابطا ويبالغ في مد ابتسامته، فتبدو إيماءاته غير مناسبة. تصرفاته تبدو مظهرية غير عفوية، كأنه يقوم كل الوقت بدور في أحد الأفلام. المثير للاستغراب هو غياب أي توافق مظهري أو ذهني بينه وبين ياسين، فهو نقيض له على طول الخط، ومع ذلك فهو صديقه منذ فترة ليست بالقصيرة. يظهران في الآونة الأخيرة معا في كل مكان ويتردد على زيارة ياسين في البيت كثيرا. حارت في إيجاد أوهن خيط يمكن أن يربطهما معا؛ فلم تجد، ولعل مقولة: "الأضداد تتجاذب" أراحتها نسبيا.

الغريب أن ياسين كان ومازال يثق فيه كثيرا، يأتي به للبيت، يتحادثان في أمور تافهة لم يكن يتحدث فيها من قبل. فحديث الاقتصاد ينحصر في حديث عن الأسعار وارتفاعها. حديث السياسة يدور عن أناقة الرئيس وأنه اختير ضمن أفضل عشرة رؤساء يتمتعون بالأناقة حول العالم. حديث العلم يتحول إلى نوعية الأعمال التي تدر أعلى الدخول. ثم أولا وأخيرا، أحاديث الرياضة السفسطائية التي أصبح ياسين يوليها فجأة اهتماما

ملحوظا وغريبا، وكان فاروق ضليعا في هذا المضمار، يدري أن هذا ملعبه الذي لا يجاريه فيه أحد.

في بداية الأمر كانت ليلى تسخر بصمت من فاروق، الذي كان يتودد إليها بتهذيب، مع الوقت شدها الفضول لشخصيته العجيبة وطريقته المبالغ فيها في التأدب وخصوصا في تعامله معها، فبدأت تنصت له. الأعجب أن ياسين لم يمانع في وجود حديث بينهما وهذا لم يكن يقبل حدوثه مع آخرين. كان فاروق يستمع إليها ويوافقها على كثير من الآراء. حقا هي لا تريد شخصا يوافقها مجاملة أو رياء، لكنه أفضل من أن يعارضها في كل شيء، كما فوجئت بأنه مستمع جيد ولا يقاطع، وكان هذا وحده كفيلا بأن يُبعد عن ذهنها فكرة سماجته، وتتواصل معه في أحاديث متفرعة غير عميقة لكنها على الأقل مسلية. فاروق كان قد بدأ الدراسة مع ياسين وتقهقر ياسين بكسله ورسوبه المتكرر، لكنهما كانا يلتقيان من وقت لآخر داخل الجامعة أو خارجها، ثم عمل فاروق فور تخرجه في أحد البنوك الأجنبية بمرتب لا بأس به ومميزات إضافية منها إجازة سنوية طويلة.

بدون مقدمات فاتحها ياسين قائلا بلهجة حاسمة:

فاروق تقدم لخطبتك!"

كأنه لا ينتظر موافقتها، بوغتت ليلى فاحتجت. هي تعرف أن موافقة الأهل كانت ضمنية، لكنها بعد عدة أيام لم يعد لاحتجاجها سبب، فهي لا ترى في شخصية فاروق أي مانع ولا أي سلبيات يمكنها الاستعانة بسردها كمسوغات رفض ولو مبدئية. صديقاتها يحسدنها على العريس "اللُّقطة"

الأنيق. فاروق نفسه كان ودودا يبذل جهدا صادقا للتقرب إليها، حتى وإن بدا لها في بعض الأحيان شخصية كرتونية تجسد حزب المحافظين. ثمة خياران بائسان دوما في مثل حالتها، والحكمة أن نميل إلى الخيار الأقل بؤسا. هكذا حدثت نفسها، على الرغم من إيمانها أن فاروق ليس بؤسا كاملا إذا سارت حياتهما بهدوء واحترام، فاختلاف طباعهما قد ينعش أماكن خفية فيها، وبواسطته يمكن تقبل بعض الملل والتحايل على الرتابة، وهي دوما لم تعش ما تريده بل كانت في النهاية تقبل بالبديل المنطقي لما تريده وتميل إليه، خاصة أن تصرفاته في ذاك الحين لم تش بأي حياد، بل كان يقف إلى جوارها بطريقة تشعرها بأنها في النهاية على حق، وأن تصرفها مقبول، في الوقت الذي كان الجميع يرى في تصرفاتها تهورا مستترا، وأن في شخصيتها مشروع نزق. ربما ظهوره في هذا التوقيت خدمها على غير توقع، فقد ظهر وقت أن كان ياسين يتبخر من حياتها تماما، وهي ولسبب ربما متصل بطبيعتها الأنثوية الكاملة، لا تحتمل حياتها بدون رجل؛ رجل يجب أن يحل محل ياسين؛ رجل تقبل به الأسرة وترى وجوده مشروعا، مادام شركاء قصص حبها غير مشروعين. وعندما تساءلت عن سبب قبول ياسين له بهذه السرعة، على الرغم من اختلافهما الكلي، رجحت أنه ربما يريد أن ينتصر للرجل المخفق الذي في داخله مقابل الرجل المقبول في شخصية فاروق، ولم يجد غيرها لتكون الضحية.

حين تصفو ليلى لتنصت لصوتها الداخلي الصادق وتراجع سيرة

حياتها يتنازعها إحساسان: إحساس مطَمْئن من الخيال؛ عن حلم يراودها بلا هوادة فيه العاشق الحبيب المنتظر الذي يغشاها بالجنون الذي تتوق إليه، يزورها في حلم يتكرر ليصبح فصلا من الحياة، حلم بشخص قريب لكل حس فيها إلا قليلا؛ محجوب الوجه حتى الآن، ويتنازعها إحساس مقلق من الواقع، تجاهد في أن تزيحه عنها، كابوس جاثم تريد أن تنزع نفسها منه بصحو لا يأتي مكتملا، إحساس بواقع تتعايش فيه مع فاروق بسلمية إجبارية يتجه لنفق يرهب الروح. تعيش الواقع بنصف حياة وتترك وريقات الحلم تتسرب إليها في النصف الآخر كانت ليلى واعية ألا تسقط بين الإحساسين فتعيش مرحلة مس لا براء منها، حين تفقد التمييز بين الواقع والحلم. وجدت الحل المؤقت في السلمية الإجبارية وتركت للأمل بابا مواربا، ودَعت روحها تصلي للوصول إليه!

تسترجع ما آل إليه حال صديقاتها: سحر، نهلة، سيسيل، نسرين، مريم، سهام، جانيت، سلافة، شيرين. كلهن تزوجن دون قصة حب، ومنهن من كانت تحب قبل زواجها، ولم تكن ليلى تصدق أن واحدة منهن يمكنها أن تتنازل عن ذاك الحبيب مهما كان، لكنهن تركن الحب أو تركهن الحب وتزوجن ويعشن حياتهن، صحيح أنها لا تعرف ما تمور به قلوبهن من لواعج في الوقت الحالي، لكن قارب الحياة يسير مع التيار ولا يعود. تلتقي بالبعض منهن نادرا أو تصلها أخبار عن بعض آخر. والحديث يدور في الحاضر فقط عن سيرة وإنجازات الأولاد والبنات، وأحوال الدراسة والأفراح والأتراح والأمراض، لكن شيئا يمس حياتهن الشخصية وأمنياتهن الحقيقية من الماضي لا يبرز أبدا على السطح. لم تعد عيونهن

تلمع بهذا الحب القديم. حائرة ليلى في فك هذا اللغز: هل الحب بحر خداع مؤقت نعيشه مسيَّرين ثم نخرج من الحب باختيارنا إلى بر أمان. كيف يصير البحر هو الاستثناء والشاطئ هو الأصل!

الزواج أمر حتمي وقدر لابد واقع ولا مفر منه، لكن قلبها وحلمها لا يغلقان الباب تماما. بصيص من الأمل يقودها لزاوية قلق مطمئنة. هكذا كانت تردد بهمس يشبه الابتهال كلما احتضنتها الظلمة بين حناياها. قبولها الزواج من فاروق ربما كان متعجلا، لكن لم يكن هناك آخر تنتظره أو تؤجل نفسها من أجله. حالة تتكرر لنساء كثيرات بوعي أو بدون. لحظة في حياد الزمن تجعل القرارات الحاسمة تفقد معناها وتصير عادية ويصير أي ارتباط ممهورا باختيار الجماعة لا الفرد، ولا عجب فالجماعة تجهز لعرس لتفرح فيه وترقص فيه وتزين الفرح فرحا للعروسين بزمن استثنائي لاحتفاء واهتمام خارج الزمن، ربما لمرة واحدة في الحياة. مجرد تغيير وضع للبعض وهروب للبعض أو حتى تقليد للبعض. قلب ربما يسعد وقلب قد ينشطر. والحياة تسير بأفراح نصنعها ونعيشها أو نعيش فيها أو خارجها، لكنها تسير، من يقف فيها لا يوقف الحياة ولا يغيرها بل قد يتعرض لخبطات أكثر من كل مار!

معظم من يراجعن هذه المنطقة الحرجة يشعرن بقلق من الاسترسال في الغور في الذاكرة أو اللجوء لمقارنات. من تصر على الاسترسال وتمضي في تحليلها ومراجعتها، قد تنجو وتتمكن من الردم عليها للأبد وتقنع نفسها بحالة من التعايش السلمي، وقد تفشل باجترار وجع الذكرى مدى الحياة،

أو قد تلجأ إلى حل ثالث بفتح كوة لأمل حين يأتي يجد مدخله.

ليلى عاشت تجذب طرفين من الثلاثة وهذا نادر الحدوث. فقد قررت أن تمنح فاروق ونفسها فرصة التعايش السلمي وتبدأ صفحة جديدة مع الحياة، لكنها في آن لم تمنع الحلم من أن يراودها. لا تريد للزمن أن يمر عليها وهي في حالة استلاب تام. صوتها الداخلي هو أنيس وحدتها، إذا ضجرت منه أحيانا ترفع صوت الراديو، ليوقف ولو قليلا استرسال فكرها، ويجعلها قادرة على مشاركة الحياة في تيارها الهادر.

انجرف ياسين في تيار يخصه، توالت الأحداث التي وقعت قبل سنوات، من إخفاقه في قصة حبه مع هيام، ثم حالة التخبط بعد تخرجه واختياره طواعية للعمل في مجال السياحة، قد تكون السبب الذي دفعه للشعور بأن هذا ليس ما يصبو إليه.

في إحدى الرحلات تعرف على ماريانّه، قال وقتذاك إن أسطورته الشخصية بدأت في التحقق، هي نمساوية جميلة رشيقة مقبلة على الحياة، أتت مع والديها، وهي أيضا وحيدتهما. انجذب إليها، وتودد للعائلة من أجل عينيها، قدم لهم عرضا خاصا لزيارة أمكنة ليست في البرنامج. شرح بثقة ولغة سليمة واضحة. مما أدهش أباها ليقول له:

"لابد أنك عشت زمنا طويلا في ألمانيا!"

"لا، لكنني أتمنى زيارتها."

"لكنك تجيد اللغة كأهلها، لا أكاد أسمع نبرة مختلفة في لغتك!"

"درست في المدرسة الألمانية في القاهرة!"

انبهرت ماريانّه بياسين ولطفه ومعلوماته الغزيرة عن تاريخ مصر وثقافته العالية وتبادلا العناوين، ثم تراسلا وتبادلا الصور في وقت لاحق، وتطورت العلاقة لتصل إلى أن يتصل بها وتتصل به بصورة منتظمة، ثم قررت أن تأتي مرة أخرى لمصر مع والديها، وتفرغ ياسين للقيام معهم برحلات خاصة في أمكنة عديدة من مصر، وانتهى الأمر بأن دعا العائلة إلى البيت. لينتهي المطاف بزواج ياسين من ماريانّه ويسافر بعد انتهاء الإجراءات معهم. هكذا كانت الأمور معه: وهو في منتصف حلمه يبدل بقيته فورا إلى واقع ينفذه بإصرار وسهولة. ضاربا بتوسلات أبيه عرض الحائط، وبكاء أمه، حتى ليلى تمنت آنذاك أن يبقى، على الرغم من صفحات تاريخه القابض معها.

ربما كل هذه الأحداث كانت قدَرا مرتبا لها ليرسل ياسين لها الآن يدعوها للسفر إلى فيينا. السفر، الذي لسبب غامض لا يفصح عن نفسه، يدخر لها الكثير من المفاجآت.

ستسافر إذن، فاروق لم يمانع، حتى ولو جاء رده اللامبالي: "أنت حرة!"

قامت من مكانها وتجولت في البيت، أدارت الراديو وبحثت عن أم كلثوم، كانت لحسن الحظ المقدمة الموسيقية لأغنيتها الأثيرة، "ألف ليلة

وليلة"، التي ارتوى جسمها رقصا على إيقاعاتها في السابق، وكيلا يتهمها بالجنون إذا رقصت الآن، سارت بخطى إيقاعية هنا وهناك كفراشة، ترتب البيت وترفع حقيبة ابنتها المدرسية وما ألقاه ابنها من ملابس على الكراسي، ثم عرجت إلى غرفتي ابنها وابنتها، ابتسمت في وجه كل منهما بلطف، قبل أن تدخل في حلم رهيف ينتظرها في غرفتها.

7

أجمل الأحلام هي التي تستدعينا لسمائها لتبهجنا بين نجومها دون أن ندري. الأحلام التي تقطر شهدًا في ليالي السأم. نحن لا قدرة لنا على استعادة الأحلام كأحلام وقتما نشاء، تلك منحة عزيزة لا يهديها العمر لبشر، لكن أروع ما يمكن أن يسعد إنسانا هو أن يزوره حلم قديم فاتن، يُحيي وجدانه وشعوره دون أن يتوقع، ويعيده لمكان وزمان لا يتكرران، ويفتح له أبواب الفرح والتفاؤل بالقادم!

المرة الأولى في عمر آدم التي شم فيها رائحة في حلمه؛ رائحة راوغته ألفتها بتمنع جذاب، وحين فتح عينيه وهو مُستلق على ظهره ممدد كالفرعون – وهي طريقة نومه المفضلة – جاهد لحظات في شد أطراف

الحلم برفق، فالأحلام تفزع من القبض عليها بعنف، تفر كالعصافير المذعورة. حاول أن يعود متلصصا لحلمه عبر الممر الخافي بين أول الصحو وآخر النوم، وهو على يقين بأن تلك الرائحة سجلت نفسها منذ زمن سحيق في ذاكرة أنفه، ولو ركز قليلا وصفى ذهنه لتوصل إليها. لم يأبه بإيزيس المتحفزة وهي تصعد هضاب جسمه وتنزل، تهرّ بصوتها وتدور ضاربة ذيلها في وجهه برشاقة وإلحاح واضح ليفز من استلقائه الكسول. ظل محدقا في أرفف المكتبة المواجهة لسريره وفي نبتة "دارسينا" الخضراء – التي تتطلب الإضاءة الخافتة والتي تجاوزت بارتفاعها أعلى رف – دون أن يراهما حقيقة، فعيناه تبحثان داخل منعطفات الذاكرة بإرشاد أنفه عن شكل الأمكنة أو ملامح الأشخاص.

كانت ليلة صيف في أحد شهور أغسطس قبل ربع قرن تقريبا. مر النهار القائظ بطيئا دون أن يصرف لحظة نسيم واحدة للخلق. في الليل استلقى آدم في غرفته على سريره العريض فاتحا النافذة متمنيا مرور نسمة تلطف الجسم الوالع وتهيئه للنوم. ارتاح لغياب ضجيج الأصوات تدريجيا ولتسرب الخشخشة الخجولة للصفصافة القريبة من نافذته التي سحبته للحلم. استسلم برضا!

استيقظ في ذاك اليوم مغموسا بإحساس مخدر لذيذ بأن جسمه قد تخلص من شحنة توتر لم يدرك مصدرها. صحا وهو مازال يحاول أن يلملم أطراف حلم نادر راوده. تلمَّس برفق الدليل نحو الحلم مستعيدا ملامح الوجه الذي كان برفقته. صاح بصوت فرحان:

"يا ألله.. ما أروع الأحلام! ما أجملك يا هند!"

كانت هند – التي يتولّه بمشاهدتها في الأفلام وفي صور الصحف منذ أن بلغ الخامسة عشرة – هي هند رستم الدلوعة الجميلة، مارلين مونرو الشرق، لكنه لم يتخيل أن تأتيه في حلم متوهج طويل كهذا. لم يصبر بعد البداية فسحب قصاقيص الحلم بعجالة فجاءته المشاهد متقطعة: وجه هند/ شجرة/ ضحكتها/ سحابة/ ساقاها/ رمانة/ صدرها/ مطر ساخن. تمطى كقط استكفى نوما ثم ركز تفكيره حتى استطاع أن يستعيد شريط الحلم من أوله. حلم بأنه يركض خلفها عند الغروب، وهي تتهرب منه بميوعة مثيرة وتجلجل بضحكتها الرائقة المنفلتة. صعدت بخفة فوق شجرة رمان قريبة. اقترب منها وسندها حتى صعدت و لم يصعد، وقف يتأمل ثمار الشجرة التي ترتج، وترتج معها ثمار هند. ثبت مكانه ينظر بوجد لساقيها الشهيتين ويُطيل النظر للنعومة التي تسحبه من كعبيها حتى مخابئ اللذة والفتنة الكاوية. استثاره المنظر الذي لا يرحم، فاستدار خجلا لتمرد أطراف جسمه وخروجها عن سيطرة مخه. صرخت هند فجأة، شيء ما أثار ذعرها فوق الرمانة، انزلقت نازلة ملهوفة، ليتلقفها قبل أن تسقط محتضنا ثمارها المنفلتة، وقد انغرست أطراف جسمه المتوتر في مخابئ ليونتها الدافئة المترجرجة، بينما فستانها القصير قد انشلح من أثر السقوط وتعلقت أطرافه بين وسطيهما و لم ينزل. تدفق دمه الأبيض ساحبا خيطا كثيفا من دفء ولذة من كل أطرافه. تذكر كلمتين فقط منها:

"آاا.. هاااا!"

كلمتان خرجتا منها وارتدتا بشكل معكوس، كأنها تستعيدهما في شهيق وزفير مثير. كررهما وراءها كالمجذوب، وحين استيقظ وهو يتمطى في استلذاذ بأواخر الحلم، أحس ببرودة في بنطلون البيجامة عند أسفل بطنه، لفت نظره وجود بقعة كبيرة واضحة على البنطلون الأزرق الصيفي الخفيف. كما لاحظ بقعة أخرى تتوسط السرير، أطرافها جفت وصارت شفافة ومنتصفها مازال مبتلا. أصابه الارتباك والخجل، شد الملاءة المنحسرة الخفيفة وكرمشها ثم غطى بها الجزء الأسفل من بطنه حتى ركبتيه، ثم قام كالملدوغ مسرعا للحمام قبل استيقاظ أهل البيت، غسل أسفل بطنه ودعك البقعة من على البنطلون بالماء. وعاد بطرف الفوطة المبتلة إلى السرير ليمسح آثاره الفاضحة مع هند، كان يخشى دخول أخواته البنات عليه، فقد تعودن على التسرب إلى غرفته ومداعبته ليستيقظ وأحيانا تدخل أمه، أما أبوه فكان نادرا ما يدخل عليه في الصباحات المبكرة أو يوقظه، ولو فعل فإن آدم يقوم منزعجا ويعرف أن أمرا جللا قد حدث، كوفاة أحد الأقارب، أو مرض يستدعي إحضار الطبيب. أو تأخير نادر منه وغير مقصود في النوم.

لم يعبأ للمرة الأولى في حياته لمواء ايزيس الاحتجاجي، فهو مازال مستغرقا في ترميم حلمه في لهفة، متتبعا إشارات أنفه في صبر. عاد يلملم الطرف الأول من الحلم بجهد مرهق. انشرح فجأة بارتياح غمره بشعور استثنائي بالوصول إلى جنة الحلم. صاح بذات الصوت الفرح:

"يا إلهي! هل هذا معقول؟!"

لقد تكرر حلم المراهقة القديم. هي مرة أخرى، يركض خلفها. تتهرب بإثارة وتدلل. تفلت منها ضحكة صافية. تصعد بخفة فوق شجرة مانجو. يسندها لتصعد لامسا كفها، ساعدها، ذراعها، حوضها، فخذيها، ساقيها، قدميها، يقف تحتها يتأمل حبات المانجو وهي ترتج وكل ما يرتج معها. ينظر بشوق لساقيها المشدودتين. ينسحب نظره رغما عنه لدهاليز اللذة ومنحنيات الحسن الساحر. يستثيره المنظر الذي لا يرحم، ويتغير وقع أنفاسه وتضاريس جسمه. تصرخ فجأة وتنزلق نازلة ملهوفة، ليتلقفها بقوة في حضنه تفوح منها رائحة المانجو، فينغرس توتر جسمه في نعومتها الحريرية الدافئة المرتعشة، فيرتعش بالعدوى ويتدفق صهد أنفاسها وجسدها، ومعه يتدفق حليب دمه مدغدغا كل خلية في جسمه بلذة مخدرة تغوص في كل عصب من أطرافه. تنطق هذه المرة كلمة واحدة فقط فيها بعض من حروف الحلم القديم:

"آدم.. آااه دم!"

يصيح بصوت الدهشة:

"يا إلهي! هل هذا معقول؟ ليلى؟!"

لأول مرة يشم في حلمه رائحة؛ رائحة يكاد يعرفها. الآن يدرك ويفسر.

حلمه الأزلي الذي انتظره كل هذه السنوات يتجسد في ليلى؟ كيف حدث هذا؟ منذ متى؟ أين هذا المكان؟ داهمه فيضان أسئلة مركزه ليلى

وتدفقاته كل تاريخها القصير في زيارتها الأخيرة قبل عامين ونصف، وهو بين مصدق ومكذب؛ فرِح ومندهش. شعور غامض غمره بإحساس لذيذ بأن جسمه قد تخلص من شحنة توتر نائمة فيه منذ سنوات، شحنة تستعيد حيويتها بالشغف بالحياة، وعليه بعد أن وجد مفتاحه في الحلم أن يستعين به لفتح باب الواقع المنتظر!

ايزيس كانت تحوم بإصرار غاضب ليقوم، وهو يمسح على فروتها ليهدئها وينظر للبقع على السرير وعلى البيجامة - هذه المرة دون هلع - يتذكر بقع الحلم المتناثرة في ذهنه بابتهاج يتصاعد. قام من مكانه ودخل غرفته الخاصة التي لا يدخلها أحد غيره. ذهب إلى الإيشارب الأزرق المعلق على الحائط، خلعه من مكانه بهدوء وشم رائحته. إنها رائحة الحلم: إنها ليلى! هذه المرة اجتاحه حس جديد عميق، مربك ومريح. ضربات قلبه خفقت بفوضى أجبرته على الإنصات لها، على تحري الصدق في هذا الحس الجديد. صحيح أنه فكر فيها مرات بشعور يغلفه اشتياق ورغبة خفية، لكنه كان يزيح هذا الإحساس برفق إلى مكان بعيد لا يعرفه؛ فهي في نظره امرأة متزوجة، رغم أنه يعرف تماما أن الزواج ليس بالضرورة مساره الحب ومداره القلب، فالحب قدر والقلب قسمة ويستحيل التحكم فيهما. والقلب لا يتزوج، القلب يحب. القلب رباط القسمة والزواج رباط القَسَم. هناك ميل خفي إليها يكبح جماحه منذ وقت طويل، أثرها المعلق على الحائط ينبهه كلما دخل للحجرة إلى أنها معه، ثمة إشارات خفية ترسلها له.

دخل حجرته وابتهل في صلاته الخاصة ناظرا إلى إيشاربها تاركا قلبه يستدعيها وروحه تحتضن روحها. شعر بارتياح. أشعل شمعة لطيفها الذي تجسد أمامه، وضعها في الركن وجلس مستقبلا رائحة يعرفها جيدا، رائحة لم ينسها طوال عامين وثلاثة أشهر وأربعة أيام. دخلت إليه إيزيس وربضت أمامه كأنها تخشع أمام حلمه أو تثبّته له. استلقى مرتاحا على ظهره فوق السجادة العالية ساندا رأسه بكفيه كمن يمنع تسرب أي لحظة تمر به، كأنها إن لم تبقَ في رأسه سيتلقفها على كفيه ليعيد قراءتها!

الرجل قد ينسى فضوله بتراكم الفضول مع الوقت، وقد يظهره دون قصد في الوقت الخطأ. المرأة لا تنسى فضولها، ربما تؤجل استفسارها، وقد تسأل بحيَل غير مباشرة حتى تصل لمرادها.

لما لاحظت ليلى - في ذاك اليوم الذي لن تنساه - وجود وشم واضح على كتف آدم الأيمن مرسوم بخط جميل ويحمل كلمة "فيروز خمَّنت أن صاحبة هذا الاسم شخصًية ذات وضع خاص مرت في حياته، حتى يَشمَها على جسمه بهذا الوضوح وفي هذا المكان. خنقت فضولها بذكاء الأَنثى، فلم ترغب في ذاك اليوم في العودة من السموات التي سرت إليها معه، بسؤال يعيدها إلى الأرض، قامت بتصرف عجيب لم يتوقعه آدم الذي كان قد قرأ فضولها الخجول؛ قبّلت موضع الوشم بمحبة كأنه اسمه هو أو اسمها، فقبّلها قبلته الندية الطرية البطيئة التي احمرت فيها شفتاها وارتعشتا طلبا للمزيد؛ فسَرت معه مجددا إلى النجوم!

اليوم مسحت بأناملها على الوشم ثم أعادت تقبيله، كأنها تطرح السؤال بشفتيها في صمت وحياء. استحسن آدم رقتها وحصافة فضولها، ولم يشأ أن يعذب انتظارها. بادرها:

"أعرف أنك ترغبين في معرفة حكاية هذا الوشم!"

هزت رأسها بإيماءة تعني أن الأمر يعنيها، وفتحت عينيها على اتساعهما بما يعني أنها في انتظار المزيد من البوح، ولما لمست بكفها الدافئ موضع الوشم، سربت بفطنة حرقة شوقها في أن يسهب في الحكاية بأسرع ما يمكن، وقد فعل. قال:

"الحكاية طويلة يا ليلى، شيقة وشائكة وشاقة!"

استعارت ليلى على الفور جملة سمعتها منه مرة وأعجبتها كثيرا:

"أنا كُلّي أُذُن!"

وهي تعني أن كل جسمها قد تحول إلى أُذُن كبيرة للإنصات. استنشق آدم خلاصة هواء ما يقرب من أربعة عقود ليرد ردا طويلا في مشوار بعيد في الذاكرة:

"خياراتنا في الحياة متواضعة يا ليلى، الاختيارات الحاسمة ليست بأيدينا؛ ليس لنا اختيار متى أو أين نولد، وغالبا ليس لنا اختيار متى أو أين نموت. بين المولد والموت نتخبط في حياة منهكة فائضة بالمفاجآت، أجمل ما يمكننا أن نلقاه فيها ونحسّ بمتعته هو القلب الصادق المريد، فقط حين نحسن اختياره ويوفقنا القدر به!"

وحكايتي تبدأ من هنا؛ فبدون إلحاح أو توسل أو مشورة قررت أمي وحدها الانفراد بتسمية مولودها الجديد؛ المولود المنتظر بعد ثماني عشرة سنة من انتظار صبور وحرمان جارح. كأن أمي قد وَلدت للمرة الأولى، وكأني صرت لها فجأة البكر البنات الخمس اللاتي ولدن قبلي بسنوات بعيدة تراجعت قيمتهن فجأة في بورصة الذرية، وتقدمت أنا بأول صرخة في الحياة للمركز الأول في العائلة لأزيح وجودهن الأقدم بوجودي المختلف ومستقبلي الذِّكرِيِّ القادم الباهر!

حكت لي أمي أنني على عكس أخواتي كلهن، جئت للحياة نازلا من رحمها بقدميَّ. وأن الداية جاهدت لتعدلني داخل الرحم لأنزل برأسي ككل ولادة صحيحة، لكني أبيت. نزلت بقدمي بكل يسر وبدون تأخير، لم ينحشر رأسي في حوض أمي، كما هو معتاد في مثل هذه الولادات المتعسرة، و لم يلتف حبل المشيمة حول عنقي كما حدث مع أغلب المواليد النازلين بأقدامهم للحياة، بسملت الداية أم تهاني ونبست بآيات لتسكين الدهشة والجزع وإبعاد شر الحسد، وهي تراني أنزل ماسكا حبل السرة بقبضتي اليسرى وهي يدي الأساسية التي استعملتها فيما بعد في حياتي. نزلت مكتوما، لم أصرخ كعادة المواليد بمجرد انزلاقهم من رحم أمهاتهم؛ فاضطرت الداية لرفعي بيد واحدة لأعلى مثل أرنب، وشنقي من قدمي في الهواء، ثم ضربي على مؤخرتي بكفها حتى انطلق صوتي حادا يصم الآذان. قالت فيما بعد لأمي وهي تبسمل وتحمد الله على نجاتي، وتحشو كلامها بالدعوات التي تريح بال أمي وتطيب خاطرها هي، قالت إنها المرة الأولى – في تاريخ توليدها المديد – التي ينزل فيها مولود بقدميه حيا. فقد

حدث معها ذلك نادرا، فقط أربع حالات، في عمر توليدها الذي قارب الأربعين عاما، جرّت فيها للحياة ما يقرب من ألفي ومائتي طفل، وفي كل المرات مات فيها المولود اختناقا، ولم يكن متوافرا وقتذاك تلك الأدوات الطبية الحديثة الموجودة حاليا، وكان من المستحيل آنذاك إجراء عمليات قيصرية في البيوت. أمي أيضا عاندت ورفضت أن أولد في أي مستوصف أو مستشفى بعيد عن هذا المكان الذي عاشت في طقوسه شهورا طويلة، منذ علمها بالحمل والذي رتبت نفسها أن آتي فيه إلى الدنيا.

توقف آدم قليلا، لينظم استرسال الكلام واستدعاء صفحات الذاكرة؛ فهي المرة الأولى التي يتكلم فيها عن حياته ونشأته تفصيلا. سُئل مرارا من نساء كثيرات عن معنى الوشم المبهم على كتفه، القليلات ممن استطعن قراءته سألن مباشرة وبغيرة واضحة عن صاحبة الوشم، الوحيدة التي امتلكت حصافة الاستفسار بفضول متريث هي ليلى، وهي الجديرة – التي طالما انتظرها آدم – ليُسمعها حكايته كما يجب أن تُروَى. في نظرة عينيها كل الأسئلة التي يقرؤها. بادر لهفتها الصامتة:

"أجزل أبي العطاء للداية أم تهاني، التي شهقت من كرمه بشكل توجست فيه بخطئه، فبادرت تتأكد منه: 'إنت متأكد يا حاج؟ مش غلطان! دا مبلغ كبير، ربنا يبارك فيك، ويخليهولك ويسعدك بيه ويكرمك دنيا وآخرة!' أكد لها أبي أن هذا حقها وحق الفرح الذي أنزلته الآن في هذا البيت وأن قدمها قدم سعد علينا. زغردت وقتها أم تهاني أحلى وأطول وأعلى زغرودة في

حياتها، فرحة بهذا المولود الذي منحها مبلغا من المال لم تحصل عليه أبدا في عمر توليدها المديد، بل زاد عما رزقها به الآباء والأمهات في عام كامل. وقالت لها أمي: 'هديتك الخاصة مني أنا يوم السبوع يا أم تهاني!'"

اقتربت ليلى من آدم حتى شعر بصهدها الحامي يغلفه، تنهدت بفضول مضطرب، فارتفع صدرها ولمس صدره بحنو ورغبة في أن تكون متوحدة به. أناملها مازالت تمسد الوشم بحثا عن 'فيروز كان آدم يدرك حرقة الفضول وتوقها للتفاصيل، قبّلها بنداوة أحس فيها بسندس شفتيها واستطعم شهد طراوتهما، لكنه رغب في أن يستكمل حكاياته لها بلا فجوات:

"حكت لي أمي أنها اختلفت مع أبي وعمتي كاميليا على أربعة أسماء تصلح للذكر والأنثى هي: 'نور' و'فرح' من اختيار أبي، و'بدر' و'شمس' من اختيار عمتي. قالت إن اختيار هذا الاسم الصالح للذكر والأنثى حماية لي من شرور الحسد، وهو الذي سيحدد مصير حياتي، قال أبي: 'نسمّي نور أو فرح'، في حين كانت عمتي تكرر: 'بدر أو شمس.. ليس هناك أفضل منهما!'، وبينما كان لغط اختيار اسم من بين الأسماء الأربعة يشوش على سكون الغرفة التي صرختُ فيها صرخة نزولي للحياة، نزعتني أمي من صدرها الدافئ ومن محاولات رضاعتي البدائية الواهنة؛ خلعت عني لفاتي، وهي مازالت مستلقية على ظهرها ثم رفعتني

لأعلى عاريا أرفرف في الهواء برجليَّ وذراعيَّ في وهن وارتعاش، رفعتني ببطء من ظهري بكفَّيْها نحو بؤرة ضوء المصباح الساطع، الذي بدوتُ من خلفه كأنني أوزع إشعاعاته على الغرفة ومن فيها. كانت مستلقية على ظهرها. لم أبك بل كنت أناغي بأصوات خافتة منغمة، ثم في حركة غريبة كانت ترفعني بامتداد ذراعيها، كأنها تتسلم إلهًا فرعونيا، وقالت بصوت واثق عميق وحاسم: 'فيروز.. سوف أسميه فيروزا'"

كانت ليلى مستغرقة بكل حواسها، بل صارت كلها أذنا كما قالت. لم ترغب في مقاطعته بأي استفسار لكيلا يتوقف أو ينحرف كلامه عن هدف فضولها. صوته يهز كيانها دائما، صوت خلق لها ليمتعها ويشجيها ويمارس سطوته عليها كما تتمنى. سرى حديثه متناغما شجيا، فحكى لها دون توقف عن أيام بعيدة لم يتخيل قربها من ذاكرته بهذا الألق وتلك العذوبة؛ حكى عن تفاصيل مولده كما سمعها من أمه بدقة، ويبدو أن أمه هي الأخرى أحست بأن دورها الأهم هو منحه دفتر سيرة حياته متكاملا في شفوية شفافة عما غاب عنه، ينقله في يوم ما لامتداداته في الحياة؛ حكى لليلى عن تلك الغرفة الضاجة بالحركة والكلام - وعن أخواته الخمس اللاتي سُمح لهن بالدخول في زعبوبة فرح لرؤية المولود الجديد ولمسه وحمله وتقبيله - تلك الغرفة التي أصبحت كصورة فوتوغرافية أو كمشهد سينمائي ينتعش بالحياة وهو يسترجع الحكاية من صمت مخيلته إلى شهوة الحديث.

في ذاك اليوم كان النطق باسم "فيروز" قد رسم شرخا في وجه الأب بين ما رأى وما سمع؛ ظن أن الأمر قد التبس عليه حين رأى المولود ذكرا وحمله في لفته الأولى بتلك الفرحة النادرة، وأن كلام الداية أم تهاني شابَهُ غلط سيهد عمارة البهجة بولي العهد المنتظر! في حين شكلت كلمة: "فيروز" التي سمعها بلبلة في كل شيء، كانت أشد وقعا ولخبطة للعمة سواء في الاستيعاب أو في التنفس أو في النطق. ركضت نحو المولود تعاين عن قرب موضع الريبة واليقين على جسده العاري.

قالت له أمه إن أباه وعمته حاولا أن يثنياها عن التشبث بهذا الاسم الغدار، لكنها أصرت بجرس أعلى وضوحا:

'فيروز.. أسميته فيروز.. وسيبقى فيروز! أنا الأم.. وأنا الأحق بتسمية مولودي كما أشاء!'

أعادته لدفء حضنها وهي تبادر عمته بتحدٍّ، فسكتت العمة كاميليا حانقة وهي تنقل نظرتين منها: واحدة حادة لأمي، وواحدة مستعطفة ومحفزة لأخيها ليتدخل ويزيل هذا الحرج بكلمة واحدة، يكسر بها شطط اختيار هذا الاسم، حتى لو سماه كما أراد هو: نور أو فرح، وليس كما تمنت هي: بدر أو شمس، وستتنازل هي بكل سرور وارتياح. لكن الأم ثبتت عينيها في عيْنَي الأب بتحدٍّ وتجاهلت تماما وجود وإيماءات وتشنجات العمة، وقبيل أن ينغمس الأب في حماس رجولي متوارث بدعم من تشجيع الأخت، ذكرته الأم بعهده القديم حين وعدها ذات يوم في ساعة رضا بتصريح واضح:

'إن أنجبنا ولدا ستسمينه بنفسك بالاسم الذي يرضيك!'

قالت بصوت فيه تأنيب قادم:

'ألم تقل لي بلسانك إن تسمية المولود من حقي؟'

على غير توقع جاء حمْل الأم، فلم تنتبه لانقطاع الدورة الشهرية إلا بعد أسابيع طويلة، وبقي الجنين كائنا مكنونا فيها، لا تقب لها بطن ولا تتوجع ولا يصيبها دوار أو حتى قيء الحوامل. لكن الأمر العجيب أنها في وحمها تاقت نفسها لطلب نادر ومستحيل؛ طلبت رطبا. و لم تثنها كافة الحيل عن جلب أي فاكهة من فواكه الموسم تعويضا عن تلك الرغبة الغريبة، لم تقبل بديلا، حاول جده لأمه توضيح استحالة تنفيذ هذه الرغبة العسيرة، لكن بلا جدوى، تبعه المقربون من العائلة، قدموا لها أنواعا من التمور ولكنها أصرت على الرطب. قالت له وهي تضحك ضحكتها المميزة:

'لكنك أنت الذي أصررت على الرطب يا فيروز، أنت السبب!'

كان الكل مصدقا ومقتنعا بأن الحامل التي تتوحم على مرغوب ولا يُلبَّى طلبها، يتوشم شكل المرغوب على بشرة الطفل في أي مكان بعلامة واضحة لشكل ما حُرمت منه: عنقود عنب، برتقالة، فراشة، سمكة، ريشة، حبة كمثرى أو أي ثمرة أو أي شيء كان، وأسوأ الأحوال هو أن يظهر هذا الوشم جليا في صفحة الوجه أو اليد أو في مكان ظاهر من الجسد والأصعب لو كان لأنثى، لذا بدأ البحث والاستقصاء عن إمكانية

الحصول على بلح أو رطب في هذا الوقت من العام من أي مكان في العالم، وكيفية إحضاره بالسرعة المناسبة قبل أن يفسد. قيل وقتها إن هناك منطقة واحدة في السودان، عند منحنى من منحنيات النيل يلتوي فيها النيل شرقا لبضعة أميال، قبل أن يرتد صاعدا للشمال، بالقرب من منطقة تُسمَّى 'مروي' وهي المنطقة الوحيدة التي يمكن أن يوجد فيها رطب في هذا التوقيت. يقال إنها البقعة التي عُثر فيها على النبي موسى طفلا في قاربه الصغير. وتذكر الرواية أن أمه وضعت في رسغه سوارا عليه رسم لأسد ونخلتين، كتميمة تحفظه وتبين أنه ابن مجيد لعائلة مجيدة، وأن هذا السوار انسلَتَّ منه عند هذه الضفة حين رُفع إليها للمرة الأولى قبل أن يعاد للنيل، ولم يُعثر عليه فيما بعد، وبعدها بأيام قليلة نبتت شتلات النخيل الأولى في هذه المنطقة، وبعدها بسنوات طرحت نخلة 'توم'، أولى؛ وهي نخلة بجذعين وجذر واحد، طرحت أشهى تمور عرفوها، سموها تمر 'موسى'، أو تمر 'العوّام'، نسبة للطفل العائم الذي أتي عبر النيل، والغريب أنها كانت تطرح في توقيت عكسي لكل نخلات البلاد؛ في موسم الشتاء. يقال إن هذه النخلات غمرت هذه المنطقة بخير واسع وأن الحوامل والمرضعات والنفساوات كن يأكلن منها لفضلها المعروف في استعادة عافيتهن سريعا، بل حتى من أرادت أن تتزوج كانت تأكل سبع تمرات وتشرب بعدها ماء من بئر قريبة، وتتفاءل بعرسها الذي سيأتي بعد ثلاثة أيام أو أسابيع أو أشهر أو أعوام. وكان هناك أقدم مقام أقيم في هذه البلاد بين النخلات اسمه 'مقام شيخ توما، يزورونه لجلب البركة؛ إلى أن جاء حاكم أرعن في أحد الأيام الكارثية بجيش ودبابات وذخيرة بحثا

عن متمردين وهميين، فدمر المقام وحياة المكان وحرق كل النخلات، لسببين كلاهما أغبى من الآخر وينبئان عن جهل وطيش بالغ للحاكم وزمرته: سبب لا يخرج إلا من رأس مخضب بالعسكرية الحمقاء، يتحجج بأن النخيل يخفي المتمردين، ومنذ متى تخفي رشاقة النخل بشرا! والحجة الثانية مخضبة بهاجس ديني متطرف يدَّعي أنها ضد مشيئة الله على حد زعمهم، فهي فأل شر لأن النخلات تطرح في عكس موسمها، وهذا يعني أنها نذير شؤم في ظنهم. ويؤكد آخرون أن هناك سببا آخر خفيا أدى إلى تدمير تلك المنطقة، وهو رفض شيخ القبيلة ذي البأس والصيت تزويج ابنته الفاتنة لهذا الحاكم الأهوج الذي تُـيِّمَ بجمالها وأراد أن يردفها لبقية حريمه في قصر الجزيرة. يقال إنه تبقى عدد نادر من هذه النخلات سرا في بيوت بعض الناس وبعض المتصوفين، لا يبوح أصحابها بوجودها خشية التنكيل بنخلاتهم قبل التنكيل بهم. كأن اقتناء هذه النخلات بمثابة عبادة مخالفة ودين جديد!

أرسلت جدة آدم 'أبو مبسوطة الجنايني'، لأقارب لها في شَنْدي في السودان ورصدت له المال الكافي ليأتي بالبلح الذي سيتحول رطبا في مسافة الطريق وذكرت له طريقة حفظه في "الرَّدة"[1]، حتى يصل به إلى مصر، استأمنته لمهمتها واختارته لأنها تعرف قدرته الفائقة وذكاءه الزراعي الفطري الذي يتمتع به في جنائن ومزارع العائلة.

* *

(1) "الرَّدة" أو الشوفان وهي نخالة قشرة القمح.

قبل مولد آدم بساعات، كانت أمه قلقة تشعر من رفساته الناعمة المتزايدة برغبته في ولوج الحياة. أيقنت أنها علامات المخاض التي خبِرتها من قبل، استغربت أنها لم تشعر بشيء طوال مدة الحمل ليتغير حالها هكذا فجأة. صارت تتكئ على جانبيها، مرة يمينا لدقيقة ومرة يسارا لأقل من دقيقة. تقف ثم تجلس وتجلس ثم تقف، تمشي وتدور حول نفسها كأنها مسيَّرة في طقوس لا إرادة لها فيها، أو كأنها ترسم بخطواتها علامات على الأرض، تنطق جُملا غير مكتملة أو مبهمة، يعلو صوتها ويخفت في الجملة نفسها، وتنتابها حالات من السرحان المفاجئ والسرور المؤقت ويعرق جسمها فجأة. تضحك لتتوقف ضحكتها فتتوقع ألما لا يأتي. كانت علامات الوضع تنحرف عن الوجع المعتاد، يغلفها إحساس مربك بقرب تحقق الأمنية القديمة التي لا تبارحها، الأمنية التي تجتاحها منذ ستة عشر عاما. صارت تتقلب كل دقيقة، بالتعود وليس بالوجع، على مصطبة البيت العريضة في حوش البيت، المصطبة العالية المجهزة بسجاجيد وثيرة ومخدات وطنافس، مصطبة نصفها مغطى بشرفة علوية عريضة من الأرابيسك تتسلقها من جانب تكعيبة عنب ومن الجانب الآخر شجرة ليف وتلتقيان في المنتصف. النصف الآخر من المصطبة مفتوح على الهواء الطلق؛ على السماء.

* * *

حين مسد آدم بيده على بطنه بتلقائية، أحست ليلى برغبته في الطعام، لكن شوقها لسماع الحكاية غلبها. تداركت بسرعة:

"سأجهز لك بيدي طعاما لذيذا، بشرط أن تكمل لي الحكاية!"

دخلت إلى المطبخ، فتحت الثلاجة فوجدت فيها أكثر مما توقعت. باذنجان وفلفل رومي وطماطم ولحم مفروم. ضحكت ليلي بفرح وهي ترى ذلك، قال لها:

"ستضحكين أكثر لو علمت أنني اشتريت هذه الخضروات ثلاث مرات على مدى أكثر من ثلاثة شهور، حتى فسدت، انتظارا لوجبة مسقعة من يديك!"

"حبيبي يا آدم!"

قالتها بصوت خافت جدا وبعمق هزها.

قام آدم يساعدها. وقف إلى جوارها ملتصقا بجانبها. في ذاك اليوم فهمت للمرة الأولى في عمرها معني فتنة التلامس الحميم بين امرأة ناضجة ورجل يشع رجولة أينما وقف. إشارة الطفولة أكملت معناها في آدم في تلك اللحظة. شعرت بلذة مثل مس كهربي خافت يدغدغ جسمها فاستسلمت له وجعلها تحتك به كقطة متنعمة. للمرة الأولى في عمرها يقف رجل معها في المطبخ، بل ويساعدها. لم تسعد في عمرها في وقفتها في المطبخ مثل سعادتها في ذاك اليوم الذي طبخت فيه لآدم مغمورة ببهجة الدنيا وسطوة محبته الصامتة، وأدركت أن الحب لا يكتمل إلا بإعداد المرأة طعاما لمن تحب، وبتأملها له وهي تعده بامتنان صامت، برغبة مجهولة، تحيي فيها إحساس حواء الأولى، زمن الكهوف البدائية. اقترب من خلفها وهي منهمكة في التحضير، مستغرقة في أفكارها، وبأصابعه رفع في

خفة شعرها الغجري العاطر برائحة الطبيعة، طبع على عنقها قبلة دافئة كبسولة طويلة كادت تنهار فيها على الأرض، مالت برفق بظهرها نحوه مستندة على يده اليسرى بينما نزلت يده اليمنى حتى وسطها لتصلب عود وقوفها. قام بأفعال كثيرة في وقت قصير خلبت لبها. أسند ذقنه على كتفها وصار صدره ملتصقا بظهرها، وكلما تكلم رج الكلام الخارج من صدره كل كيانها، وكلما التفتت نحوه لامس خدها خده. أرادت أن تهرب منه إليه. دارت في مكانها لتواجهه، رفع كفيها وقبّل أناملها برغبة وصدق؛ مص سبابتها ليتذوق طعم الصلصة مطيلا زمن المص وهو ينظر إلى عينيها. مسح دموعها بكفيه من أثر تخريط البصل. استغل إغماض عينيها ليرصع كل وجهها وعنقها بقبلات متلهفة؛ ولأنه طباخ ماهر ويعرف خطوات تحضير الطعام بحرفية، كان يفاجئها في الوقت الصحيح بإحضار ماء أو وعاء أو سكين أو تجهيز توابل، يلمسها عمدا كلما اقترب: على يدها، ساعدها، كتفها، صدرها، حوضها، ردفها. يشم أنفاسها بعمق فتحمر وجنتاها، يبتسم لها وهو يوزع خصلات شعرها بعبثية وفوضى تزيدها ألقا. ينظر في عمق عينيها بشغف، فتغلق عينيها على الشوق وتتمدد أسارير وجهها، ويخفق قلبها بدبيب واضح إلى صدره. رجل بارع يعرف فن وطقوس وعشق المداعبة. لم يمهلها راحة من سطوة افتتانه بها في أي مكان: في الصالة كان يداعبها، في الشرفة كان يتأملها، في البانيو كان يتشممها، في غرفة النوم كان يتوله فيها ويروح معها لجنات النعيم، وفي المطبخ كان يتذوقها بالفعل كأطعم وجبة يحبها، يستطعمها بمزاج عال بشكل يدهشها، تمنت في هذا اليوم أن تبقى معه طَوَال عمرها!

بنظرة من عينيها فهم آدم وعده باستكمال ما يثير شغفها: سيرة حياته. بدأ الحكاية التالية من عند جده. كان جد آدم ميسرة ود المبروك العطار المعروف باسم 'العطار، قد بدأ في أوائل القرن الماضي في تجارة راجت في ذاك الوقت؛ تجارة العطور. وأصاب نجاحا سريعا بسبب موهبته في تركيبات العطور النادرة الغالية، استطاع بجودة صناعته ومهارته أن يكون له صيت عبَر الآفاق، خصوصا في مصر. جاب كثيرا من البلدان: من بلاد الحبشة واليمن وعمان وزنجبار حتى الهند ومن مالي والجزائر وموريتانيا حتى المغرب. تزوج بضع مرات وطلق مرات رغم أنه لم يكن قد بلغ الأربعين بعد، و لم يكن له أولاد في زيجاته المتعددة إلا من هادية بنت صالح العمدة التي أنجبت له بنتين جميلتين وذكرا.

في رحلة تجارة له إلى مصر وكان يقطعها على ظهور الإبل من أواسط السودان إلى مصر. كان قد اقترب من المنيا سائرا في محاذاة النيل. سمع صوتا حادا يأتي عبر الريح الضعيفة طالبا النجدة. توقف يومها بقافلته الصغيرة يتلفت نحو مصدر الصوت، فلمح في النيل هيكلا بعيدا يخبط في الماء ويدور في دوائر. نزل عن ناقته وخلع جلبابه، فك عمته من على رأسه ولفها على جذعه، ليسحب بها هذا المشارف على الغرق ثم رمى بنفسه في النهر. سبح حتى وصل للغلام الذي بح صوته من طلب النجدة. كان الغلام هالكا في إعياء التشبث بالحياة، فك العطار العمامة من على بعد مترين ورماها له. أخفق مرة في مسكها وأمسكها في المرة الثانية. جره بصعوبة إلى أن اقترب منه، ومن هلعه تعلق بعنقه حتى كاد أن يخنقه. وصلا منهكين للضفة وارتمى العطار على ظهره، بينما الغلام قد الْتَأمَ

جالسا خجولا مبتلا ضاما ركبتيه إلى صدره. حين اقترب معاونو العطار رأوا مشهدا عجيبا لم ينتبه له العطار حتى ذاك الوقت. لما رآهم يبحلقون في الغلام الذي أنقذه، نظر نحوه ثم انتفض جالسا:

"بسم الله الرحمن الرحيم.. أنت إنس ولا جن؟!"

الغلام كان ذا شعر طويل، وبللُ الجلباب القصير الضيق شف عن ثديين واضحين وجسم أنثوي مستدير وساقين بضتين لامعتين. لم ينتبه العطار في انهماك إنقاذه لجنس المخلوق الذي يسحبه متخيلا أنه صبي. على الضفة صار الغلام فتاة في ربيع العمر في منتهى الحسن متوردة الخدين من خجل ورعب، وارتجافاتها الخفيفة ترعش شفتها السفلى المكتنزة لتظهر صفا منتظما لوليا من الأسنان. البلل جعلها أكثر أنوثة وإثارة، فأمر أحد أعوانه بالإسراع بإحضار جلباب من جلابيبه وغطاء لها وصرف الباقين ليبتعدوا. ثم سألها:

"ما اسمك؟"

"قمر!"

"بنت من؟"

"بنت بحر النيل الأسيوطي!"

"بحر النيل.. بحر النيل.. هذا اسم غير مألوف هنا.. هل أبوك سوداني؟"

"لا، أبي مصري.. تاجر غلال معروف.

"كم عمرك يا قمر؟"

"خمس عشرة سنة.

"وما الذي رمى بك في النيل هكذا؟"

صمتت لحظة كأنها ستبكي، لكنها ضحكت ضحكة خافتة، صار يتأملها وهي آية جمال منحوتة على الضفة مثل عروس نيل بحق. جسدها ملفوف لا يبين هذا العمر الصغير، حديثها واثق رغم خجلها ورجفتها وخوفها من الآتي. ردت بثقة، فتنته لهجتها المميزة، قبل أن يكرر سؤاله، ردت:

"أنا أحب النيل وأعشق السباحة، وأبي منعني من النزول للماء بعد سن السابعة، فكنت أهرب في طريق العودة من بيت خالتي القريب، أذهب لهذا المكان المنعزل. أخلع ملابسي وأدسها خلف شجيرات الجميز وتحتها ألبس دائما جلبابا قصيرا وسروالا ضيقا لا يعيقني في السباحة، وأنزل خلسة. أسبح قليلا في خفاء مجموعة شجرات الكافور الكثيفة، فلا يراني أحد ثم أعود."

"وأين تعلمت السباحة؟"

"في النيل.. أمي تجيد السباحة وقد علمتني خفية، خوفا عليّ من الغرق، بعد أن ماتت خالتي في النيل وهي صبية.

"لكن كيف يحدث لك ما حدث وأنت تجيدين السباحة؟"

"كنت قد نزلت إلى الماء، وكان كل شيء رائقًا وهادئًا وكان الماء دافئًا ككل مرة، سبحت كثيرا واستمتعت بخفتي على الماء، فجأة رأيت جذع شجرة ضخما طافيا يستدير في دوائر سريعة كالمروحة ويتجه نحوي، تفاديته بالغطس، ولما طفوت مجددا شعرت بشي يسحبني في دائرة واسعة، في البداية بدا مثيرا لي وبطيئا، فجأة تسارعت اللفات وصارت أضيق.

"يبدو أنها كانت دوامة!"

"نعم، بالفعل جذبتني دوامة دون أن أنتبه. وجاهدت لأسبح ضد اتجاهها حتى لا تسحبني للقاع، لكني استنزفت قواي دون أن أخرج منها. وأحسست بالضعف والخطر وفقدان السيطرة فبدأت أصرخ، حتى أنقذتني أنت! أشكرك لقد أنقذت حياتي. لكن هل يمكن أن أعرف من أنت؟ ومن أين أتيتم؟ وإلى أين تذهبون؟ لا تبدو أنت ولا جماعتك من هذا المكان؟"

"أنا ميسرة ود المبروك العطار، تاجر عطور من السودان!"

كان ميسرة العطار قد نقلها للضفة الأخرى محل وقوف قافلته، حيث كانت الناحية الأقرب لإنقاذ قمر، بينما الضفة الأخرى مكان نزولها قد احتشدت بجمهور صغير، جهزوا من هناك قاربا للانتقال نحو القافلة. رأى ميسرة العطار وجهها مخطوفا وأدرك ما يمكن أن يحدث لها مع أبيها. طمأنها ألا تخشى شيئا وأنه سيكون معها. اختفى للحظات غيَّر فيها جلبابه بآخر وعاد.

لرائحة الجلباب الذي كانت تلبسه قمر عطر لا يمكن أن يُنسى. سيصنع العطار فيما بعد عطرا خلابا سيسميه 'عطر عروس النيل'، بعد أن يضيف إليه توليفة من شجر الجميز وقصب السكر الموجود في هذا المكان، وسيهديها يوم زواجها عطرا جديدا نادرا سيسميه 'قمر النيل'

لما نزل القادمون من القارب. رأى العطار الغم الذي غمر وجهها. توجه نحوهم في جلبابه الناصع وعمته البيضاء. وقف وقفته الشامخة في كبرياء وعرّفهم بنفسه:

"أنا التاجر ميسرة ود المبروك العطار من السودان، وهذه بنت بحر الدين محمد الأسيوطي. سحبناها من دوامة في النيل وأنقذناها؟"

قالها بحصافة في صيغة الجمع. استغرب الناس وقمر أيضا من إضافة اسم محمد الذي سيكون موجودا بالتأكيد ضمن أي اسم. قالوا:

"نعم. هل تعرفه؟"

"أود أن أذهب معكم إليه.

لم يردّ بأنه يعرفه، ارتبك الناس من ثقته وكلامه الواضح. ثم نادوا على الواقفين على الضفة الأخرى لإحضار قارب آخر. أمر اثنين من معاونيه أن يحملوا حمل ناقة من العطور والهدايا وينتقلوا بالقارب القادم معه. ركبوا في قاربين وحرص هو على أن يجعل قمر خلفه.

لم تقاطع ليلى حديث آدم. كانت تستمع كطفل يستمتع بحكاية سحرية. جهزت الطعام بخفة وسرعة كأنها في مطبخها الذي تعرفه، أزاحت كل شيء داخل الفرن وجهزت أرزا على نار بطيئة وتفرغت لصنع سلطة بلدي. كل شيء كانت تنجزه كساحرة بعشر أياد وفي سرعة عجيبة. يتابع تعجلها ويعرف أن دافعها هو لهفتها للإنصات. قالت له:

"سيحتاج الأرز لنصف ساعة وما في الفرن لأربعين دقيقة حتى يجهز كل شيء!"

"إذن لنجلس في الشرفة، ماذا تشربين؟"

"أريد من هذا العصير الذي تذوقته أمس!"

"عصير التفاح الطبيعي من مدينة كريمس على الدانوب؟"

"نعم.. لو سمحت!"

أحضر آدم زجاجة عصير تفاح طبيعي، شاركها وصب لنفسه كوبا خففه بالماء لنفسه وصب لليلى دون تخفيف. وضع لها الكوب على المائدة الصغيرة وقبلها في رأسها وجلس مواجها لها.

"ثم ماذا حدث؟"

"الحكاية طويلة يا ليلى، إنها حكاية عمري، سأحكيها لك على دفعات. الوقت أمامنا، ولكني سأتم لك حكاية الجد العطار.

حكى لها آدم في ذاك اليوم كيف رافق الجد العطار الناس إلى بيت

أبي قمر وأن الرجل أحسن استقباله. وأكرمه بعد سماع القصة، وكان بحر النيل الأسيوطي أبو قمر رجلا فطينا ذا هيبة وبأس، ويتمتع برجاحة عقل واتزان في شدة وحلْم. يحب بناته جميعا وقمر هي آخر العنقود يخصها بمحبة خاصة يقول إنها تشبه أمه، فكيف يؤنب أو يقسو على من تشبه أمه! استمع بحر النيل للحكاية من العطار في مندرة الضيوف، بينما كانت قمر تحكي لأمها وأخواتها ما حدث في الغرفة الخلفية؛ فخشيت الأم غضب الأب من تعليمها سبنت السباحة دون مشورته. كان العطار أيضا يفهم في الأصول ويعرف كيف يجلس في المجالس مرفوع الهامة طيب الحديث. لا يتفاخر بأصله ونسبه دون داع، بل يصدّر عمله أولا ثم يتفرع لأصله وفصله حين يكون السؤال مطروحا وباختصار. يتنبه الناس لأصله دون عمد منه فيزيده ما أجَّلَهُ من حديث احتراما أكبر. فاجأ العطار بحر النيل بعد حديث طويل عن عمل كل منهما بسؤال مفاجئ:

"إني أطلب منك يد ابنتك قمر. أعرف أن الأمر يبدو متعجلا وعجيبا ومفاجئا، لكني أطلبها على سنة الله ورسوله، ومهرها كما تحددونه، وبيتها الذي سيكون لها تختاره هي. وأريد أن أكتب كتابي عليها قبل أن أرحل إلى أعمال لي في الإسكندرية تستغرق ستة أسابيع. سأبقى مع رجالي في بيت الضيافة عند نزلة الشرفا، لو وافقت سأكتب عليها وحين أعود لها القرار أن تلحق بي وستكون في بيت عز أينما حلت، أو لتبق في بيتك إن أصرت، لكنها ليست سُنّة الزواج!"

بوغت بحر النيل بهذا الطلب، فكَّر في هذا القدَر العجيب، لقد كاد يفقد ابنته بالفعل، وقد تكون بفعلتها هذه مثار كلام جارح طوال عمرها، وما يفعله العطار ابن الأصول هذا لهو من المروءة والصدق والشهامة، حتى أن بحر النيل لم يستطع أن يرفض الطلب، وإن كان من داخله متوترا وغير قادر على اتخاذ قرار سريع. بحر النيل لديه خمس بنات وليس لديه ولد، وهذا هو سبب زواجه الثاني. لكن معدن العطار الطيب يوحي إليه بأن الموافقة أقرب من الرفض. قال الأب إنه فوجئ بالطلب، ومن حق قمر أن تقول رأيها. سألها فصمتت مستغربة لهذا الطلب السريع. ارتاح الأب لكن قبل أن يغادر الغرفة قالت له:

"هل تسمح لي يا أبي أن أجلس معه في وجودك، لديَّ بعض الاستفسارات؟"

"تعرفين أنني لا أرفض لك أي طلب!"

خرجت قمر في أجمل حلة، بملابس جميلة لا تكشف إلا يديها ووجهها، لونها مازال مخطوفا. جلست في جرأة واحترام وسألته بصوت واضح خجول:

"لماذا طلبت يدي يا سيد العطار وأنت لا تعرف عني شيئا؟"

"أنت ابنة رجل معروف وذي أصل وربَّاك تربية صالحة، وأنا لن أَطلب يد من لا أصل لها ولا فصل، رأَيت فيك عزة نفس وجرأة وأصالة أحببتها. ليس من حقي أن أرغمك ولا سلطان

لي على ذلك، ولن أذل ابنة من بيت عز وأنا قادر أن أوفر لك استمرار عزك أينما تحبين، ولست أطلبك بديْن إنقاذك؛ فهذه خسة ليست من شيمتي. الله هو المنقذ، وكنت أنا مجرد يد الله لك على الأرض!"

كان أبوها يتنقل بين عينيها وبين كلام العطار، يستشف من كلامه صدقا ويستشف من لحظ ابنته ـه افقة ولو مستترة.

كلام العطار كان صادقا وإقدامه كان واضحا وإصراره عليها بث في نفسها روحا عالية هزت ثمار أحلامها، كان هو قدرها، ذاك الآتي من الجنوب بسمرته وبسمته ولكنته. تزوجا وانتقلت معه للسودان لتكون وليفته الفاتنة في بيت جميل على النيل، صار يرافقها بعض الليالي الصيفية لينزلا معا إلى النيل لساعة يستمتعان فيها بالعوم، وبنى لها بيتا آخر وسط أهلها ينزلان فيه وقتما أرادت. ومع المولود الأول أهداها بيتا في الإسكندرية، يطل على البحر حيث كان يبقى معظم الوقت في تجارته الشمالية، كان ينفق عليها بوسع دون مَنٍّ ويعتبرها فأل خير للخير الذي غمره من بعد اقترانه بها، و لم تحرم في حياته من شيء. عاشت معه وأنجب منها ثلاثة أولاد وبنتا أسماها بدر.

أحبها مثلما لم يحب من قبل. كلما استيقظ صباحا كان يقبل جبهتها، وبعد صلاته تجلس أمامه وهو يسبح الله في حسنها وطبعها، ثم يغمرها بدعواته ليحفظها الله له ولأولاده، فتقترب منه ليحتضنها في سعادة لا يعرفها سواهما، ثم يقوم لإفطار جهزته فيمازحها كما تعوَّد كل صباح،

ويحكي لها عن طرائف السفر ويخفي عنها أي حديث عن المشقة، ثم يخبرها بما نوى من عمل أو رحيل وتأتي أخته رحمة لتبقى معها حتى عودته. كانتا مثل أختين لا تتفارقان إلا بصعوبة، وبكياسة قمر وطبيعتها المبهجة أحبها الجميع وصارت وردة الحي الزاهرة التي تتمتع بكل احترام في بيت ميسرة ود المبروك العطار وفي كل الحي.

كانت قمر بجمالها الذي نضج وفاض بعد زواجها تثير كل خلية فيه، خاصة كلما رآها مبتلة إثر استحمام. كانت تهرب منه بدلال فيمسكها ويغرقها في قبلات تستسلم لها، ويذكرها بيوم إنقاذها ونعمة الله عليهما بفأل هذا الحادث النادر الجميل، فتذوب ذوبانا يتكور منه بطنها بعد أشهر قليلة. كانت امرأة جمالها يزداد في حصافتها، حكيمة تعرف كيف ترضيه، وكان يعرف كيف يرضيها بفيضان المحبة وراحة البال فتغمره بقُرّة عينه من البنين والبنات!

قال آدم لليلى:

"الغريب أن الجد العطار مات غرقا في حكاية أخرى أعجب، لكني سأحكيها لك في وقت آخر لأنها حكاية طويلة!"

أمطرت في هذا اليوم من شهر أغسطس على غير توقع بعد أن كاد الصهد يقتل كل ساكن ومتحرك، قبل المطر بقليل سكنت الدنيا سكونا

مريحا ثم هبت نسائم منعشة، تبعها مطر غزير لساعة ثم توقف. تنشقت ندى أم آدم بعمق هذا الدعاش الصاعد من الأرض وتفاءلت خيرا، ثم هبّت لركن البيت البعيد الذي يحوي مستطيلا خشبيا بامتداد الجدار، ممتلئا بالرمل الناعم النظيف، داخل صندوق بديع من القيشاني المغربي الملون مغطى بألواح رقيقة من خشب البلوط النمساوي الصالح للأجواء العارية والمنقوش بحفريات لقصائد فارسية جميلة الحرف والمنظر. غطاء يمنع القطط وحيوانات الليل أو طيور النهار من تلويثه. تعودت أن تقوم بعمل "مساس لأقدامها بالمشي عليه حافية لوقت طويل، وهو رمل أحضره الجد خصيصا من شمال العريش من بقعة لا يوجد رمل في العالم في روعته، يقول بعض الناس إن النبي موسى وقف عند هذا الموقع حين شق البحر بعصاه، ويقول آخرون إن الوقفة الأولى لراحة للعذراء مريم كانت عند هذا الشط، وإنها حمّمت ابنها النبي عيسى الحمّام الأول داخل مصر في هذا المكان.

هذا الرمل الذي يتحول لبياض عجيب بعد المطر، كان ملمسه على أقدامها مريحا راحة الجنة. تمنت أمه يومها أن يعجل الله بأمنيتها الأزلية وأن تلد في هذا اليوم، وأن يكون الميلاد كما حلمت وتمنت طول عمرها. استدعت حلمها الأثير الذي لن تنساه والذي لم تحك عنه لأحد إلا لآدم في عيد ميلاده السابع؛ ففي أوائل حملها به، رأت في حلمها صبية صغيرة. قالت أمه إنها كانت تتأمل هذه الصبية الجميلة وهي تمشي في الطريق، وتعرف أنها ستكون السيدة العذراء مريم ولا يعرف غيرها هذا، كانت الصبية في العاشرة أو الثانية عشرة، حسنها خفي وخجول بضفيرتين

سميكتين بلون أسود فاحم ومبهج. وقفت ندى أمامها، فاقتربت العذراء باسمة ومسحت على بطن ندى ثم نظرت في عينيها فتمتمت ندى بكلمة احتفظت بها سرا. استعادت الأم هذا الحلم حين بلغ آدم السابعة، وتمنت أن يتحقق بحق العذراء مريم أم عيسى النبي الرسول!

قالت أم آدم:

"عليَّ نذر يجب أن أوفيه!"

البيت الواسع الذي انتقلت إليه ندى بعد الزواج وهو أكبر بيت في الحي. بَنَته لها أمها روضة، وأشرفت بنفسها على أن يكون بيتا مختلفا عن البيوت؛ أرادته أن يكون أجمل من بيتها هي، بل أزهى بيت في الحي. قبل ميلاد ندى كانت الجدة روضة قد عاينت الأرض واشترتها، مساحة كبيرة استغرب الناس في ذاك الوقت أن تشتري كل هذه المساحة في هذا الفراغ الكبير، كلفت يومها جرجس البيطار باختيار المكان في كل أنحاء القاهرة، وكان جرجس يعمل لدى الخديوي، وهو الذي اختار له منطقة حلوان كأصح مكان طبيعي لإقامة مستشفي خاص لعائلة الخديوي. كان جرجس البيطار صديقا للجد ومعروفا بدربته وعلومه الطبية والبيطرية، كان يحسب درجة نقاء المكان بأن يترك لحوم الغزلان المذبوحة حديثا معلقة في الهواء لأيام ومحجوبة عن الشمس في فترات معينة من مواسم السنة، وكان يحسب بداية درجة تعفن اللحوم في هذه المناطق، فيتأكد بهذا من صلاحية المكان عن غيره في الصحة والمرض، وقد اكتشف منطقة حلوان والمعادي ومنطقة المطرية وعين شمس وعزبة

النخل والمرج كأفضل المناطق ذات الهواء الصحي الجاف، فضلا عن أن ماء آبارها الجوفية قريب من سطح الأرض ويعد من أفضل المياه وأعذبها، والماء والهواء هما العنصران الرئيسيان لكل حياة.

استغرب الناس في ذاك الوقت أن تشتري الجدة روضة كل هذه المساحة في هذا الفراغ العريض، وأنها بالتأكيد قد خانها التوفيق وستندم يوما ما على هذه الفكرة الحمقاء. كانت الأرض بالضبط على حدود بداية الصحراء في أقصى الشمال الشرقي وعلى حدود الأخضر الخصب في شمالها. منطقة فيها من الصحراء المنبسطة الكثير وفيها من الأرض الطينية أكثر. قبل بضعة شهور من مولد ندى، كانت الجدة تنتظر قدوم المولود ولا تدري هل سيكون ولدا أو بنتا. كانت قد جهزت سبع شتلات لسبع شجرات اعتنت بها عناية كبيرة قبل أسابيع قليلة، هي التي أنفقت عمرها في الاهتمام بالزرع والورود. كانت الشتلات السبع لنخلة ورمانة وزيتونة وتينة وليمونة وجوافة ومانجو. كلفت 'أبو مبسوطة الجنايني'، ليزرعها في مواقيت معينة حسب التواريخ القبطية التي تحفظها، طلبت منه أن يغرس الشتلات في الأرض الطينية في المواقع التي حددتها بنظام معين كل اثنتين متقابلتان: التينة أمامها الزيتونة والرمانة أمامها الليمونة والجوافة أمامها المانجو والنخلة وحدها، جعلتها في شكل رأس حربة رأسها النخلة، وبين كل شتلة وأخرى مجاورة لها سبع خطوات، وبين المتقابلات كالتالي: بين التينة والزيتونة إحدى وعشرون ذراعا، بين الرمانة والليمونة أربع عشرة ذراعا، وبين الجوافة والمانجو سبع أذرع. وطلبت منه أن يسور المكان بسور طيني بطول يعلو قامة رجل بالغ بخمسة أشبار على

الأقل، وأن يغرس بامتداده شجرات الكافور والنخيل والكروم والجميز وحنك السبع والكازوارينا وشعر البنت وسنط النيل والنيم والجميز والتوت والنخل الملكي الأبيض، وأن يصنع حوضا عاليا في الوسط يملؤه بماء البئر، وهذا الحوض له فتحات متعددة تؤدي إلى قنوات تفتح كل منها في الوقت المناسب لري الشجرات حسب احتياجاتها، وأن يتعهد 'أبو مبسوطة الجنايني' المكان منذ ذاك الوقت بالعناية الفائقة وأن يجلب فيما بعد شجرات ونباتات أخرى ستخبره بها، مثل أشجار الجهنمية وحنك السبع والفل المصري وشجر الحبة الغالية وخف الجمل وأبو المكارم والخروع، ليجمل المكان بها. كانت قد استقدمت متخصصا في البحث عن الآبار الجوفية يسمونه "السومطري" أو "الفايد" نسبة لشجرة نادرة اسمها (فايدا) تنمو في هذه المناطق وربما اندثرت حاليا لاستخدام كثير من الرعاة لها كحطب، "والسومطري" أو "الفايد" هو شخص تتوافر له قدرة نادرة على معرفة أمكنة الآبار المختفية تحت الأرض، ليس هذا فقط بل تحديد مسار البئر وأقرب مكان منه إلى سطح الأرض، فهو يستخدم غصن شجرة (فايدا) للبحث به عن الماء. والغصن له ثلاثة أطراف، يمسك الفايد طرفين بيديه الممتدتين على ارتفاع وجهه رافعا الغصن بفرعه الثالث الحر لأعلى ويسير في المنطقة التي يمسحها. حين يقترب من عرق ماء تحت الأرض يلتوي الغصن بقوة إلى أسفل، يقاومه الفايد بالرفع لأعلى ويستمر في السير، وحين يصعب عليه رفع طرف الغصن لأعلى كأنه مشدود بمغناطيس يجذبه لأسفل؛ يعني هذا أن وريد الماء في هذا المكان قوي وقريب، في ذاك الوقت يبدأ البحث عن الماء أو الحفر.

رسمت الجدة روضة بئرين في المكان لري هذه الشتلات. وسمَّت المكان "جنّات" نجحت كل خططها واستغرب الناس، فبعد سنوات قليلة ازدهرت دوحة (الروضة)، هكذا كانوا يطلقون على اسمها، كما كانوا يسمون أم آدم باسم (الندى) احتراما، مثلما كانوا يسمون الجدة الكبيرة (السَّلْمَى) وجدتي باسم الروضة. كان عيبا على الأغراب نطق اسمها دون الألف واللام. صار للجدة روضة دوحة خضراء جلبت أجمل الطيور، وصار المارة والرحل يركنون تحت أسوارها الظليلة، فعملت سبيلا لهم. بدأ الناس يتوافدون عليها من أمكنة بعيدة لأخذ مشورتها في الزرع وللحصول على بذور وشتلات منها، فكانت لا تبخل عليهم بالمشورة ولا بالشتلات.

البيت مع الوقت تغير وبُنيت أسواره بالحجارة، وأصبح لا يشبه بيوت الناس لا من الخارج ولا من الداخل. جعلته الجدة روضة في دورين وكل البيوت المعروفة في هذا المكان الممتد كانت من دور واحد. لما عاد الجد من المغرب جلب معه أكبر حمل من القيشاني رآه الحي، من منطقة أصيلا وطنجة التي انتقلت منها جودة الصنعة لاحقا إلى إسبانيا وإيطاليا. جلب نوعا اسمه قيشاني سيدي سليمان بأروع الأشكال والألوان. وجلب معه بنَّاءيْن مغربيين من مراكش صمما له البوابة والمدخل، وفقا لرغبة روضة، كان كلما عاد من تجارته من المغرب جلب معه كميات كبيرة من أجمل أشكال القيشاني. صمم في حوش البيت نافورة ثُمانيّة رائعة بالقيشاني الصغير المنمنم من نوع مولاي بوسلهام، هذا النوع الذي اندثر، واسم مولاي بوسلهام يرجع لأحد الأولياء،

يقال إنه أتى من مصر إلى المدينة واستقر بها؛ والسلهام هو البرنس أو العباءة. وجلب معه الصناع المهرة وأجزل لهم في العطاء. اشترط عليهم شرطا وحيدا وهو ألا يبيتوا داخل غرف البيت بأي حال من الأحوال أثناء فترة العمل، أقام لهم بيتا مؤقتا بالقرب منه، فيه كافة ما يلزمهم، فيما بعد عاد منهم إلى بلاده من عاد، وبقي منهم من بقي وتزوج وأنجب وعاش بقية حياته في مصر.

ولما انتهت روضة من بناء البيت أحضرت بدوية معروفة بالرقية وعلاج الناس. بخرت البيت لسبعة أيام كل يوم خمس مرات، أثناء مواقيت رفع الأذان، وقرأت أدعية كثيرة وحرقت كميات من البخور المجلوبة من السودان ومن بلاد شنقيط مثل بخور الشاف وبخور الصندل وخشب الطلح، وخصوصا بخور التيمان[1] الشهير. أجزل لها جدي العطاء ثم أحضر شيخا قرأ القرآن كاملا في أربعين ليلة بالتمام والكمال. ولم يكن يسمح بدخول أي أحد إلا بقدمه اليمنى لهذا البيت، وهو يتمتم ببعض الأدعية القديمة التي توارثها عن الأجداد.

(1) بخور التيمان ينسب إلى التوأمان وهو من أشهر أنواع البخور في السودان ويعتقد البعض بأنه قادر على طرد الأرواح الشريرة وفك السحر وكف العين، وكان يُعرف قديما باسم (الكناسة)، لأنه تم اكتشافه بالصدفة حينما تم كنس الدكان لتنظيفه وتم حرق هذه الكناسة؛ فكان لها رائحة عطرية جذابة، مما أدى بالتوأمان أو التيمان لجمعها والاحتفاظ بها بعد أن أضافوا إليها بعض الأعشاب ليكون لها اسم (بخور التيمان)، الذي أصبح يستخدم في كثير من المناسبات، ويقال إنه يتكون من سبعة أعشاب لذا يطلق عليه اسم (المسبع)، وهي: الشب والقرض وصمغ اللبان والسدر والكمون وعين الديك والحلتيت (والأخير نوع من الصمغ النباتي يستخدم منذ القدم لطرد الجن والشياطين).

كانت ليلى تستمع بشغف كبير لحكاية آدم عن العائلة، تشغف بطريقة آدم الساحرة في الغوص للماضي واستعادته بهذه النصاعة. تحول آدم إلى شهريار الحكاء وصارت ليلى هي شهرزاد المنصتة للحكاية دون تهديد من سطوة سيف أو زمن. سألته ليلى:

"حكايتك تلد عشرات الحكايات الشيقة يا آدم، لا أريد أن أقاطعك، احك كما تريد.. أنا كلي أذن!"

قال آدم:

"أنا أختصر كثيرا من الحكايات؛ فهو عمر طويل. عشت في عائلة لا تكف عن الحكي واسترجاع تاريخها القديم وكان هذا من حسن حظي، كأنهم قد رهنوني لأكون دفتر العائلة المتنقل عبر الزمن والامتداد الواصل للجيل القادم. لم أحك سوى نتف قليلة متفرقة وسطحية للبعض، لكني شرعت منذ أكثر من عام في كتابة تفاصيل العائلة، لتبقى لدى بنات وأبناء أخواتي، لكنى أراهم غير مكترثين بتاريخ العائلة، الحاضر يجرفهم معه؛ لذا سجلت الكثير كتابة ومازلت أفعل.

"وهل ستطلعني على ما كتبت يا آدم؟"

"بكل تأكيد، لكن حين أنتهي منه. أنا الآن في الدفتر الخامس وكل دفتر في حدود مائة صفحة. أكتب فقط حين أشعر بأن الكلام يتدفق، كأني أتلقاه من أمي ومن كل الأقارب، سأحكي لك الآن ما قالته أمي:

حكت لي أمي بابتهاج عن زمن مولدي، قالت إنها في صباح يوم الطلق استيقظتْ مبكرا واستحمّتْ ثلاث مرات دون أن تدرك السبب. رملت قدميها في حوض الرمل الأبيض ثم غسلت قدميها ورجليها عند الفسقية مرات. سمعت هديل يمامة على شجرة الكافور القريبة، رفعت رأسها تتأملها، فشمت روائح الياسمين في نسيم الصباح، الظلال المرمية على الممر المؤدي إلى النخلة بدا مشجعا على المشي إليها. تفاءلت وقامت تتمشى بحس مطمئن يؤكد لها أن المولود هذه المرة سيكون ولدا.

كان عليها طبقا للمواريث القديمة والعادات والتقاليد في العائلة، أن تنذر نذرا كبيرا يخصها هي لو تحقق أملها، غير نذر أبي وجدي. نذرت أمي نذرا عجيبا، أن تحج للقدس بسبب رؤيا العذراء مريم، وأن تطعم أربعين مسكينا يوميا طوال شهر رمضان الذي يحل بعد مولد الولد! نذْر أبي كان نذرا اعتياديا ينم عن الكرم الشديد كما يفعل معظم الناس؛ قرر أن يذبح ثلاثة ثيران لو كنت ولدا ويدعو أهل الحي جميعا لعشاء جماعي.

كانت أمي ندى مضطجعة في حوش البيت الكبير عند المغرب تتأمل القيشاني ورسومه الزرقاء البديعة وتشعر بوجع خفيف فتقف ثم تجلس. ولأنها تمرّست في الولادة مرات صبرت وتأملت خيرا، وشعرت بارتياح دفين لم تعرف سببه. كانت ترتاح للحظات ثم تشعر بآلام الطلق فتجلس أو تقوم لتمشي. لما أرهقها التعب وهدها. كادت تنام وهي تتأمل بزوغ النجوم في السماء وتنصت لحفيف الشجر في الجنينة الواسعة وصوت

الطيور التي هجعت للمبيت في أعشاشها، في هذا المساء صار صوت حفيف الشجر لها فجأة - كما قالت لي - مثل صوت الموج. أقسمت إنها كانت تسمع صوت الموج بوضوح وتشم رائحة البحر. كانت تستمع لأغنية فيروز التي كانت تصدح من الراديو المركون داخل غرفة النوم والذي يغمر صوته الواضح كل أرجاء البيت: "شايف البحر شو كبير.. كبر البحر باحبك!"

حب أمي لي فاق محبتها لكل شيء في الدنيا. كانت تحكي لي طوال الوقت حكايات لا تنتهي وتكررها من زوايا أخرى، فأسمعها كأنها للمرة الأولى، وقد أحسنت بهذا في سد ثغرات مهمة لي في سيرة العائلة. كنت لا أملّ أبدا من أي تكرار، وكان أجمل ما في حكاياتها هو تلك الأغنيات التي كانت تتخللها بصوتها العذب. كنت أضحك بشبع؛ فأرى منها ساعتها أجمل نظرة في عمري وأنا غارق في الضحك اللذيذ. بعد موت أبي أسرت لي أمي - بعد تمهيد جعلته على درجات من البوح والإخفاء حتى جاءت لحظته المناسبة - حكت لي عن حبها الأول والعميق الذي لم تعرف غيره على حد قولها. كلامها هزني فجأة. لعلها قصدت هذه الصدمة لأفيق لحكاية لم أعرف أنني سأحكيها يوما ما عنها.

أسرت لي أنها شغفت برجل آخر وهو الذي أهداها شرائط فيروز كلها وجهاز "ريكوردر" للاستماع للشرائط. كانت نادمة أنها أوجعت شعوره برد فعل لم يكن يستحقه، لكنها غيرة المرأة كما قالت: 'الغيرة أمر ليس باليد، الغيرة كالعطسة لا يمكن حبسها، قد تكون كلسعة شمس عابرة أو

كضربة شمس مؤذية، ومن لا يغار بمقدار لا يعرف طعم الحب، والغيرة المعتدلة مثل نسيم في صيف والمبالغة فيها تجعلها كعاصفة تخلع المحبة من جذورها'

كررتْ اسمه مرات – مهدي – دون أن أربطه بزوج الخالة نعيمة؛ الرجل الدمث الوقور هادئ الطباع الذي لم ألحظ منه أو من أمي أي شيء يشي بما حكت. أحب أمي وشغفت به وهما في شهد الشباب. لم ير غيرها و لم تر غيره. كلما التقيا في فرح شعرا أن الفرح القادم هو فرحهما. ترقص فتخلب لب الشباب ويرقص فيخلب لب الفتيات. أصر أبوه على أن يزوجه لابنة عمه، قرأ فاتحته وهو يافع و لم يأخذ مهدي الابن الأمر مأخذ الجد، وعندما وصل الابن لسن العشرين شرع الأب في الإسراع بخطبة لم يستطع الابن أن يرفضها في ذاك الزمن، فغضبت أمي من عدم وقوفه ضد التيار والحفاظ على حبهما، رأته جبنا منه وضعفا وقلة حيلة، فقررت أن ترد عليه في وقت قصير بالموافقة على الخطبة ممن صار أبي. تألم مهدي وتكسرت في روحه كل مباهج الحياة، ثم عجل بفسخ خطبته بعد موت أبيه المفاجئ، على أمل عودتها إليه، لكنها كانت ماضية في تأديبه، قالت أمي أسوأ عقاب للمحبين هو الحب الذي لا يعرف الغفران ويتسوّر بالهجر لم يتزوج مهدي لسنوات وكان عناد أمي سببا في نصف تعاستها وسبب كل تعاسته.

بقلبها ظلت تحبه وتكابر، احترمتْ أبي وأخلصتْ له؛ أحبته محبة عشرة ومحبة زوج لا محبة حبيب، لكنها لم تفكر أبدا أن تخونه و لم تقدر أيضا أن تخون قلبها أو مشاعرها. قالت لي: 'قلب المرأة يا آدم ملك أبدي للحبيب؛

فيا سعد من أسعد قلبها بقلبه فأزهت روحه بروحها! وليس ضروريا أن تعيش المرأة عمرها كله في سعادة، يكفيها أن تعيش السعادة الحقة الصافية يوما واحدا؛ فباستطاعتها أن تنسخ هذا اليوم وتعيشه في خيالها آلاف الأيام دون ملل!'

أتذكر أمي في فترات صباي حيث كنت ألازمها كثيرا وكيف كانت تبكي بكاء مختلفا عن كل بكاء رأيته لبشر؛ بكاء نصفه صامت ونصفه الآخر مموه بخدعة الضحك الكاذب. كانت تبدو غريبة الأطوار في حالات شجنها، لكني تعودت ذلك منها. كانت تلاطفني بإفراط وتصطحبني معها لأي مكان تذهب إليه. لم يستطع أبي أن يأخذني منها. حاول أن يدربني على رجولة مبكرة بعيدا عن النعومة الخالصة المتاحة لي بكرم من نساء العائلة، وكان في الوقت نفسه لا يرتاح للهو أخواتي الخمس بي أو معي وتزييني كدمية صغيرة بالورود والعقود والأساور. كان يخشى من هذا الحنو المبالغ فيه وهذا الانحراف في التزيين أن يؤثرا عليّ ويطبعاني بطراوة أنثوية قد تؤثر في ظنه على مجرى حياتي وعلى خشونة رجل قادم من السلالة بقوة.

حملت أنا في حياتي هذا القلب العاشق الرهيف نفسه؛ قلب أمي. لم يتوصل أحد لسر استماعها الدائم إلى فيروز. حفظت معها أغنياتها وكان الناس يستغربون من مداومتها على الاستماع لأغنيات غير مصرية، وأنها تعيش خيالا غريبا يقال بكلام غريب. لكن أمي كانت تعشق أغنيات كثيرة لأم كلثوم ونجاة وشادية وسيد درويش، لكن فيروز كانت شغفها

الأكبر كما كانت شغوفة بالزمن الماضي!

كنت أحب أمي كثيرا وكنت سرها أكثر من كوني سرا لأبي. تعودت منها ذلك فلم أستغرب من بوحها كأنها تحكي لصديقة حميمة، صرت أكثر تفهما لكل ما تحكيه لي، لكن بوحها لي كان بلا نهاية، حتى أختي الكبرى نورا أو أي من أخواتي البنات لم يصلن لمكانة البوح والأسرار التي سربتها لي أمي خلال الأعوام الجميلة التي عشتها معها.

كنت كتوما مثل أمي، فحكت لي أسرار النساء لأتعلم وأحب لا لأكره. حكت لي عن رشيدة التي تبدي ورعا كاذبا مبالغا فيه، لكنها في غياب زوجها – المتزوج من أخرى – كانت تعاشر مدرس ابنتها الصغيرة معاشرة الأزواج. كانت تصلي وتصوم يومي الاثنين والخميس، لكنها عشقته والحرمان أهلكها، ويوم جلس في الصالة يشاهد برنامجا ترفيهيا خرجت عليه شبه عارية من الحمام محتجة تصرخ: 'حرام.. حرام!'، وحولت القناة لقناة دينية يكفر فيها الشيخ كل من لا يشبهه. جلست تبكي وقطعت عنه الترفيه الأهون. تكرر الأمر مرات بالصورة نفسها، حتى سئم منها ومن طريقتها. هجرها، فزادت صلواتها واستغفاراتها.

حكت لي عن بسيمة التي هجرها زوجها وهي شابة دون سبب مقنع، سافر وحين رجع، عاد برفقة زوجة أخرى لا تساوي خصلة منها، استغرب الناس من ارتباطه بهذه الجديدة الغريبة. ولما ذهبت بسيمة لطالب الحقوق في الطابق العلوي تستفسر منه عن حق الطلاق، وقعت في غرامه ووقع في غرامها. صارت تقوم معه بأغرب الفنون في ممارسة الجنس، يتفرجان

فيها على أحد أفلام البورنو، ثم يحاولان تنفيذ ما شاهدا، كانت أكثر المشاهد إثارة لهما هي تلك المشاهد القاسية. تلذذت بالألم بأن يصفعها وأن يضربها، وأحبت منه أن يسبها ويعاملها كعبدة. العبودية كانت رديفا للاستمتاع الجنسي والرضا. حكت لي أمي عشرات الحكايات، كانت مستودعا للأسرار التي شاركتني وحدي فيها، باعتباري جزءا منها وأن السر الذي كانت تبوح لي به إنما هو لنفسها!

ما لم أنسه لها قولها لي: 'لا تتزوج من تحبها.. تزوج من تحبك.. إن استطعت أن تجمع بين المحبَّتَيْن فستكون محظوظا. مع الوقت وحين كبرت عرفت ما كنت أمثله لأمي. تركت لي كل تاريخها الشخصي من طفولتها حتى آخر يوم في حياتها بكل تفاصيله.

ضحك آدم فجأة كأنه تذكر شيئا. نظرت ليلى إليه كعادتها بنظرة الاستفسار الجذابة حين تطرح السؤال بعينيها لا فمها، فتسمح له بذلك أن يسترسلِ في الحكي من الزاوية التي يراها، هي متشوقة لكل ما يحكيه. بادر تساؤل عينيها بالقول:

"تذكرت الآن عمتي بلا سبب معين، فقط خطرت على ذهني. كانت عمتي قاسية، أخلاقية متشددة بطريقة شبه مرضية؛ ففي المرات القليلة التي كانت تتغيب فيها 'الدادة' زينات عن الحضور لاستلامنا وتوصيلنا للمدرسة، كنا نضطر لمصاحبة العمة التي تظل تراقب عيون أخواتي طوال الطريق، تسير بانحناءة مائلة وغريبة، بحيث يكون وجهها في وجه البنات، وكلما اقترب شاب

استشعرت ملامح الخطر كإشارات لا مرئية، تراها هي فقط عبر مجسات أخلاقها، وبمجرد شعورها باقتراب نظرات أو ابتسامات، تكب عبوسها في وجه البنات وتنزل كلمات تقريعها كالطلقات: 'أدب يا عديمات التربية! مفيش بسمة ولا ضحكة ولا نظرة! أدب يا قليلات الحيا!' كانت لا تتورع أن تشُكّ القادم بنظرة نارية في عينيه تربكه، وتكاد تزيحه في مشيتها الميري من الطريق والويل له لو نطق أو تبرم منها.

أخواتي كن يذهبن عادة للمدرسة بصحبة دادة زينات. تصحبهن صباحا وتعيدهن بعد الظهر. كانت عمتي تستفرد بها لتحفظها لائحة شفوية في الحفاظ على البنات بأنهن لسن أي بنات، بل هن بنات أكبر عائلة في الحي، وأنها تعول عليها في حمايتهن من أي حركة انحراف، والانحرافات كانت في عرف عمتي: الضحك في الطريق مثلا أو البطء في المشي أو التلكؤ أمام أحد المحلات للتطلع إلى أي شيء. الشيء الوحيد الذي كانت تثابر عليه عمتي لأخواتي البنات هو الحفاظ على أناقتهن التامة ونظافتهن وتصفيف شعرهن على أجمل الموضات، وعدم استعمال أي نوع من أدوات التجميل التي تستعملها النساء ما عدا الحناء والكحل. كانت تعمل بتناقض غريب؛ تجمّل البنات بشكل مبهر كأبهى عرائس في الحي وتمنع العيون عنهن في آن. لم أتوصل أبدا لحكمتها الكامنة وراء هذا التصرف الغريب.

لكن الأكثر غرابة في عمتي رغم صرامتها الشديدة، أنها كانت تتمحك

في وجود الرجال الزائرين، تصر على تقديم المشروبات بنفسها، ثم تتأملهم من خلف الستار تسأل عنهم كأنها لا تهتم، وتلقى الأسئلة كأنها لا تبالي وهي في تشوق لسماع كل التفاصيل، ثم تبدي في المقابل خشوعا شديدا واستغفارا ملتهبا في صلواتها وأحاديثها الجهيرة.

عمتي شهباز باسمها التركي الغريب في العائلة، لا أدري من اختاره لها، لكنني علمت في وقت لا حق معنى الاسم وهو (ملاك)؛ فهم كانوا يتباهون في عائلتنا بحسن اختيار الأسماء. فقط عندما يتوقف الناس عند اسمي (فيروز) يشعر البعض في العائلة بغرابة الاسم رغم اعتيادهم عليه. فجأة يؤرقهم هذا الاسم النسائي لشاب يكبر في السن وسيصبح اسمه نسويا بجدارة، يشعرون أن هذا الاسم اللطيف المداعب الجميل الذي ناسب الطفل لسنوات – ولصباه إلى حد ما – قد يكون جالبا النحس له أو مهيئا على الأقل لعثرات قادمة في الحياة لا يد له فيها.

تعود ليلى لتسأله هذه المرة بوضوح؛ فمثل هذا السؤال لن تبوح به عيناها مهما فعلت:

"ولكن متى تغير اسمك من فيروز إلى آدم؟"

يلاحظ فجأة على جبينها سحابة جزع وارتباك. تقفز سريعا من مكانها خوف أن يكون الطعام قد بدأ في الاحتراق. يقوم خلفها ضاحكا، يطمئنها ألا تنزعج حتى لو احترق الأكل، لكن انزعاجها يطبع صرامة تطول قليلا. يضاحكها:

"جمال وجهك وابتسامتك عندي أهم من احتراق ألف وجبة يا ليلى.. صدقيني!"

تنفرج أساريرها ويعود جمالها الذي تراه في عيني آدم، وتتذكر كيف كانت تتعرض للسخرية من فاروق لو طال الشياط أو الحريق طعامها مرة، بسبب انشغالها في مائة مهمة ومهمة. نظرته وحدها التي لا تساويها نظرة في العالم تجعلها تبتسم رغما عنها؛ تلك الابتسامة التي تبثها روح آدم فيها. تنشرح أن الطعام في طريقه إلى النضج بعد دقائق. تقوم لتجهز المائدة فيساعدها آدم بوضع الملاعق والأطباق والشراب. يلمسها في كل حركة لها، يتحركان كقطين عاشقين يتلامسان، يعوّدها على التخلي عن استعجالها في مهام لا تحتاج للعجلة.

ما زالت متشوقة لحديثه. تكرر سؤالها له بمرح:

"لم تقل لي يا فيروز، متى تغير اسمك إلى آدم؟"

"هذه أيضا قصة طويلة سأحكيها لك بلا شك، لكني أسرفت هذا النهار في الحديث. الآن أنا جائع وهذه الرائحة ستجعلني ألتهمك مع الطعام دون أن أشعر. سأحكي لك أثناء الطعام حكايات أخرى طريفة، فهذا صحي ويساعد على الهضم، وبعد الأكل سآخذك في رحلة عبر الدانوب، ما رأيك؟"

"وهل لي رأي أمام الدانوب يا فيروز؟"

تشعر ليلى للمرة الأولى بمعنى أن يأكل المرء مرتاحا مبتسما، غير منتظر

أن يكون فيما يشبه الامتحان على المائدة. تكاد تغيب أثناء الطعام في حلم جميل، تطرده برفق وتبقى في واقع عيني آدم واستحسانه الحقيقي لطعامها. يقوم من مكانه ويمسك كفيها ويطبع عليهما قبلة امتنان. ينظر لها وتنظر له ويأكلان في صمت احتفائي مقدس!

8

"أنت حرة!"

للمرة الألف تستفزها هذه الجملة، حين لا يشاركها في حسم أمر تراه جوهريا، وللمرة الألف يتنازل عن هذه المشاركة وعن الدعم وعن الرأي وعن حضورها بالمناقشة أو عن غيابها بالسؤال.

كم تتمنى المرأة أن تسمع من الرجل هذا الرد: (أنت حرة!)، حين تتعلق الحرية بأمور تافهة غير مصيرية أو نسائية ولا تخصه من قريب أو بعيد ولا تقلل من شأنه ولا تجعله في موقف مخز! لكنه يتدخل كثيرا في هذه الخصوصيات ويسأل، حتى يسيئه العلم بها لأنه يؤولها غالبا تأويلا خاطئا.

تتمنى المرأة من رجلها أن يكون حنونا كأب عندما تتوق لضمة حنان من تشتتها؛ ولأن يكون أخا يخشى عليها ويقدرها؛ ولأن يكون صديقا يسدي لها المشورة الصادقة وتسر له بما يقلقها؛ ولأن يكون ابنا يلاطفها ويخفف عنها ويترك نفسه في أوقات ضعفه يرمي عجزه في حضنها؛ ولأن يكون زوجا يبهج قلبها وروحها وجسمها بكل ما تشتهي.

لم يكن فاروق - يوما ما - واحدا من هؤلاء الرجال، كان نسخة متفردة في قسوتها، ليس في عنف بدني محبب مما تشتهيه الأنثى بل في عنف نفسي لا مرئي مهلك. فتوره يغتالها بسم بطيء. اللامبالاة في العلاقة الزوجية بمثابة حفر متمهل لقبر العلاقة! تحس بأنها تستيقظ يوميا لتجد نفسها موظفة وعاملة في مصلحة تسمي "مؤسسة الزواج" مؤسسة خاملة تضطر فيها لتنفيذ أعمال روتينية تتكرر كل يوم بحذافيرها. لا مفاجآت سارة، لا تغيير، لا بهجة، لا حياة. برنامج يومي ممل. تستعرض ليلى في ذهنها سنوات طويلة، حاولت فيها أن تبهجه، لكنه لا يبتهج؛ أن تفاجئه وتغيّر من طباعه، لكنه نجح في الثبات على شخصيته. وجهه يطالع الجريدة أكثر مما ينظر إلى وجهها. يشاهد التلفزيون ويرد على نشرات الأخبار وعلى مذيعي المباريات أكثر مما ينتبه لحديثها أو أسئلتها أو حتى ردودها. لا تتذكر متى قبّلها آخر مرة أو لمسها لمسة حنان علّمت في وجدانها. تشعر أنها من داخلها تهرم وتشيخ أسرع مما يبدو على شكلها الخارجي. روحها تكتئب تدريجيا وتخشى عليها من الاحتراق التام. تعرف أنه حتى إذا امتلك عواطف جياشة تجاهها فما كانت عواطفه لتسعدها، ربما لأن الرجل، أي رجل، كي يصل إلى قلب المرأة يجب

أن يمرّ عبر عقلها أولا، وتقتنع به قناعة مطلقة لا تشوبها شائبة، وربما لأنها ككل النساء، توقفت عند هذه النقطة، وبحثت عن شماعة تعلق عليها تعاستها، وكان فاروق تلك الشماعة. لولا حاتم ورانيا لانفصلت عنه منذ سنوات، وعلى الرغم من شعورها الجارف بالحب تجاههما لا تعتني بهما من منطلق هذا الحب، بل لأنهما مسئوليتها. هما لا يعرفان أن أما مختلفة تماما عما يعرفونها مقتولة بداخلها، قتلتها استكانة فاروق في حياته الرتيبة، أو اعتقاده بأن الرتابة ما هي إلا نظام حياتي مريح يجب أن ينتهجه. تتساءل أحيانا هل استسلامها الخافي هو ما يصوغ علاقتها شبه الفاترة بهما، وهل يشعران أنهما يتعاملان مع جثة حية؟ هل يفتقدان صورة أمٍّ أخرى في مخيلتهما كان من الممكن أن تكونها لو كانت سعيدة؟

"أنت حرة!"

يا لها من كلمة قصيرة قاتلة! تخرج ليلى من الصالة حانقة مكسورة. تدخل غرفة النوم وتجلس على طرف السرير. توقف دموعها التي بدأت تسيل على خديها بحرارة وتقول لنفسها:

"أنا حرة!"

* *

جهزت ليلى كل أوراقها في وقت أطول مما توقعت. بعد التصريح بخبر سفرها مباشرة، ألح حاتم ورانيا على مرافقتها، لكنها، وبقلب يتوجع أقنَعَتْهُما بالبقاء في مصر، وبالسفر كالعادة إلى جدهما في الإسكندرية،

وبأنها في مهمة عمل عائلية أكثر منها فسحة وأنهما لن يستطيعا البقاء معها في بيت ياسين الضيق، ولن يتمكنا من الخروج وحدهما. كان وجعها أكثر لعلمها بتخلي فاروق عن وجوده معهما في غيابها؛ فمنذ زواجهما وهما ينفصلان صيفا انفصالا إضافيا، هي تتجه نحو الإسكندرية لأهلها وهو يتجه نحو المنيا لأهله لخمسة أسابيع كل عام، وهو لن يتنازل في أي ظرف من الظروف ليغير جدوله المعتاد!

كانت في حاجة إلى التوحد؛ لأن تحس عن حق بمعني الحرية، لأن تتخفف من ثقل تُجَرْجرُه سنوات بلا معنى. تساءلت: هل هي أُمّ بغيضة حقا لو قامت بذلك مرة! تشعر للمرة الأولى في حياتها بأحاسيس متناقضة بين التحرر والتشتت، بين الراحة والقلق، أملها كان من خلال هذه الرحلة أن تلملم شتات النفس لتعود شخصا مختلفا، إنسانا يحب الحياة ويُقْبل عليها. هي فرصتها الأخيرة للعثور على نفسها، حتى ولو اضطرت للعيش في بيت ياسين زمنا، وهو بيت تثق بقوة أنه لن يريحها، لكنه التغيير الذي تحتاج إليه بأي حال، تغيير إن لم تجد فيه بعض السعادة المفقودة، فعلى الأقل سيتيح لها استعراض حياتها، ربما استطاعت العثور على مفتاح شخصيتها.

في أغوار نفسها لم تصل إلى ارتياح مقنع يؤيد سفرها أو بقاءها، وقعت في حالة البين بين. ظاهريا كانت تعد للسفر وداخليا كان تؤجل حسم القرار. حاولت أن تخفف من قلق النفس بتصرف ما. اتصلت بياسين وذكرت له أنها لن تستطيع أن تبقى إلا لستة أسابيع فقط وليس لثلاثة أشهر كما كان يريد. أرجعت السبب إلى عدم قدرتها على ترك

حاتم ورانيا بدونها كل هذه المدة، بهذا القول طمأنت روحها، بأنها تتنازل طواعية عن الممنوح لها بل تضيق على نفسها. هو أيضا لم يبد أي مبادرة لأن تحضرهما معها ولو على سبيل المجاملة. يلمح دائما أن شقته صغيرة لا تتحمَّل مبيت الضيوف. في زيارتهما السابقة كان قد جهَّز لهما حجرة مزدوجة في فندق بسعر معقول و لم يساهم في أي تكاليف. اعتبر أن ما أسماه ببحثه المضني عن الفندق وإيجاده ونقلهم من المطار إليه، بمثابة المساهمة الكافية، حتى فاروق تغاضى عن المساهمة المالية باعتبار أنها صاحبة الفكرة، واضطرت هي بلا تردد لصرف ربع مدخراتها، خلال سنوات، من أجل رحلة واحدة قصيرة إلى فيينا، دون أن يطرف لأي من الرجلين أي جفن، لا فاروق ولا ياسين. على كل حال كان إغفاله دعوة ابنيها مريحا لشعورها الخفي بتأنيب الضمير، وسببا كافيا – حتى إذا كانت تعرف في قرار نفسها أنه غير حقيقي – لتسافر بدونهما.

حين يمعن الوقت في بطئه حد السأم، يفاجئنا في نهايته بركض نلهث فيه معه، فجأة انتهت امتحانات رانيا وحاتم وانتهت هي من التدريس وتصحيح الامتحانات. جهزت أوراق سفرها إلى فيينا بين انشغال حياتي وآخر، كأنها مغيبة، أو كأن السفر القادم مجرد فكرة قد لا تخرج إلى حيز التنفيذ، لا تذكر من عناء إنهاء الأوراق سوى سماجة مسئول السفارة وهو يستنكر طول الفترة التي تريد البقاء فيها في فيينا بعنجهية غير مبررة: "ستة أسابيع وقت طويل قوي!" فأخبرته بألمانية سليمة لم يكن يتوقعها: "فعلا، حتما سأسأم سريعا، لديَّ حياتي وأولادي هنا!" هي بالطبع لم

تكن تقصد تسفيه قيمة الرحلة، أو البلد التي هي بصدد السفر إليه، لكنها رأت ضرورة ألا تتركه دون أن تخزه بكلماتها.

حين تسلمت جواز سفرها بالتأشيرة للبقاء في فيينا لستة أسابيع، لم يكن هذا ما يفرحها بقدر ما أفرحتها بطاقة السفر. منذ أن اقتنتها قبل ثلاثة أسابيع – قبيل بدء الرحلة – وهي تطالعها كل يوم مثل تميمة حظ، تنظر في الرقم السحري (797)، يطمئنها عدم تغيره، يطمئنها رمز وجود آدم عليه. يطمئنها هذا الرابط به أو المفتاح إليه، تستريح وتشملها غبطة غامضة تمحو غمًّا دفينا مبهما فيها.

خامرها إحساس مربك في الطريق إلى المطار عندما اكتشفت أنها تنصت لكل كلمة من حاتم ورانيا بكل وضوح، بينما يأتيها كلام فاروق من بعيد كأنه صدى معدني لقطار متهالك. كادت أن تطلب منه أن يعود إلى البيت، ويترك لها حاتم ورانيا. أن يعفيها في اللحظات الأخيرة من الشعاع السلبي الذي يخرج منه ويتكسر، أشعة تشبه الأسهم تخترق جسمها وتدميه. ندمت لأنها خرجت مبكرة عمدا، كانت فكرتها أن تجلس معهم خارج البيت. أن يعرجوا على جروبي لتناول القهوة. ليقضوا وقتهم الأخير معا.

طلب كل من حاتم ورانيا آيس كريم وطلبت هي قهوة "مظبوط" وطلب فاروق كابتشينو واختار قطعتي جاتوه. كانت عيناها على ولديها، ترى بقايا طفولتهما تبزغ في بهجتهما وهما يقارنان المذاق المختلف للآيس كريم ويتبادلان إطعام بعضهما بشقاوة، تتطلع إليهما،

لا تريد أن تلتقي نظراتهم. كيلا يتسرب إليهما قلقها وما يعتمل في جوفها من مشاعر فاروق انشغل في الجرائد التي اشتراها من الكشك المجاور. لم يهتم بأنها اللحظات الأخيرة. شعرت ليلى أن موجاته السلبية بدأت تنصب عليها، وأنها أخطأت بهذه الوقفة لأنها تُشعرها بالأسى أكثر. سألت رانيا وحاتم مرة أخرى عما يطلبان من فيينا، لتمعن في الهرب مما تفكر فيه، فابتهجا لأنهما كانا قد جهزا لها قائمة طويلة بما يرغبان، وضعاها في شنطتها خفية صباح يوم سفرها: شيكولاته وملابس وقائمة طويلة رأتها ليلى حين أخرجتها بسرور من حقيبة يدها. ضحكت وقالت مازحة:

"لن أُحضر لكما شيئا!"

قبل أن يبادلها أولادها المزاح بآخر، كان فاروق قد أسقط الجريدة على المائدة وخلع نظارته، متحفزا للحظة المشاركة أو طرح السؤال عليه، لكن ليلى تغافلت ذلك، فابتدرها بطفولية:

"وهذه قائمة أيضا بما أطلبه!"

ختمها بضحكة. أمسكت ليلى القائمة واستغربت أنه لم يشتر هذه الأشياء أثناء زيارتهم للمرة الأولى، وتذكرت أنه وقتها عاين هذه المطلوبات بدقة وأجَّل الشراء كل مرة لليوم التالي، "لا بأس!" قالت لنفسها وأكملت: "إذا اقتصر وجوده في حياتها الفترة القادمة على شراء هذه القائمة فلا بأس دستها في حقيبتها بلا اكتراث. ضاحكت أولادها قليلا وفضلت أن تسرع للمطار.

كان الوداع مؤلما. للمرة الأولى تشعر بحضن أولادها عميقا يغوص في ضلوعها. تماسكت، كتمت البكاء وحولته لمزاح وضحك، ثم قبلتهما بحرارة. شعرت بثقل خطواتها وهي تمر من بوابة التفتيش. التفتت من الداخل ولوَّحَت بوجه أجبرته على الابتسام. كان حاتم أكثر صخبا وضحكا، بينما فاض حزن في عيني رانيا. أما فاروق، فكان مثل عمود حجري منتصب وبارد، لا يلفت انتباه أحد.

* *

الانتظار القصير أشقاها. أرادت أن تتسلل من أفكارها القابعة معها في المكان نفسه، قامت تتأمل المحلات وهي لا تنوي شراء أي شيء، كانت تبتسم وتهز رأسها في وجه البائعات اللاتي يتسمن تلك الابتسامة السطحية الممنوحة لكل عابر في محاولة منهن لجذبه للشراء. اكتشفت أن أفكارها تتبعها أينما ذهبت. تماسكت. نظرت في ساعتها وفي شاشات جداول السفر وظلت تتلكأ في ممرات السوق الحرة، دون أن ترى شيئا إلا صورة رانيا وحاتم.

"تعلن شركة مصر للطيران عن قيام رحلتها رقم 797 المتجهة إلى فيينا. على حضرات السادة الركاب التوجه إلى صالة السفر رقم 7"

سماعها للرقم 797 أدخل فيها إحساسا بالاطمئنان، إحساسا غذّته الأسابيع القليلة الماضية، الرقم الرامز إلى التحليق نحو جنة تتوق إليها؛ تتوقعها وتخشاها في آنٍ. حتى رقم صالة السفر في تلك اللحظة كان يمثل

آدم. قالت في نفسها:

> **"يا ربي! إن طيفه يحوم حولي منذ بدء قراري بالسفر إليه، هل يا ترى أعيش وهمًا ساذجا أم هي أقدار رتبتها الآلهة بتقدير ليس فيه عشواء ولا صدفة؟"**

توجهت للبوابة رقم 7. اتصلت تليفونيا لتسمع صوت ولديها. وجلست في يدها جواز السفر وكعب التذكرة عليه رقم الرحلة ورقم المقعد. كان كل جسمها وعاء رقيقا من الدموع ينتظر وخزة. أخرجت من حقيبتها الشال الحريري الأزرق الفاتح ذا المفاتيح والعلامات الموسيقية الذي أهداها إياه آدم في الزيارة الأخيرة في المطار. تأملته وهي تستعيد ذاك اليوم بحنين كبير. ارتعشت وهي ترى رقم 7 عليه. رفعته وربطت به عنقها فشعرت بدفء يحتويها لبعض الوقت.

حين ارتفعت الطائرة عن الأرض هاجمتها الوخزات، رشح منها الأسى والحنين. كانت المشاعر المتباينة تعلو بها وتنخفض، تسربت الدموع ساخنة. ألصقت رأسها بنافذة الطائرة وهي ترى أرض مصر من عل. ترى اللون الصحراوي الباهت والأخضر المغبش في طبقة رمادية ناسبت رؤيتها وحزن انخلاعها إلى الفضاء. رأت آثارها على هذه الأرض وحزنت أن لا أحد غيرها يرى آثارها عليها، ولا أحد سيتألم لغيابها إلا ولديها، وإذا قضيا إجازة ممتعة فلن يتذكراها إلا للحظات. حاولت أن تشغل نفسها بقراءة الجريدة لكنها ظلت ثابتة على الصفحة الأولى، تقرأ العناوين العريضة مرات دون استيعاب، فضّلت متابعة الفيلم المعروض

الذي لم تنتبه لعنوانه، بعد دقائق ملت منه، ثم اكتشفت أنها لم تأكل شيئا من وجبتها التي بردت قبل أن تدرك أن المضيفة وضعتها أمامها منذ فترة، فأعادتها شاكرة. واستسلمت للتفكير في عبارة (أنت حرة) مرة أخرى.

وسط السحاب تغبّشت ملامح الأرض ثم اختفت وتاه الأفق. بقي الفضاء الرحيب بسطوته. تدخل الطائرة في دهاليز الغيمات من غيمة إلى أخرى كأنها تغتسل في فضاء السموات. استسلمت بعد لحظات لهذا العبور الكوني المهيب، أحست براحة، وبدأت تستعيد ملامح ومحطات حياتها دون ترتيب. أغلقت عينيها وأخذت السماعة وحولت بين المحطات، فوقفت عند أغنية أسرت في عروقها سكينة وجرّت منها البسمة الأولى الحقيقية، كانت أغنية لأم كلثوم:

قُربك نعيم الروح والعين	**ونظْرتك سحر وإلهام**
وبسمتك فرحة قلبين	**عايشِين على الأمل البَسّام**

ارتاحت للأغنية واسترخت حتى نامت.

في نعاسها تبدّى لها الحلم القديم بصورة رائقة سماوية متحررة. الحلم نفسه يتكرر بشكل أكثر بهاء هذه المرة:

رأت نفسها تقوم من نومها لترتفع نحو الفضاء، حافية تسير بخفة فوق السحابات بقميص نوم أبيض سماوي، ظلت تنتقل من سحابة لأخرى بقفزات طويلة رشيقة كالغزالة كأنها في حقل قطن ناصع البياض، يتلقى هبوطها عليه برفق، ظلت تسير في هيوم السحابات وتشكيلاتها، حتى

وقفت أمام جدار شفاف صلب من الجليد لم تتمكن من عبوره لكنها كانت ترى ما خلفه، منظرا خلابا ذا خضرة تزهي النفس. ظلت لوقت طويل تبحث عن مدخل من هذا الجدار وهي منبهرة بالمنظر الداخلي، وتتمنى أن تدخل إليه. فجأة ذابت أمامها طاقة دائرية سمحت لها بالدخول. دخلت، أول ما شعرت به هو الدفء، بخلاف مكانها الذي كانت به في الخارج. في الداخل رأت في الفضاء كوكبا يشبه البدر في نوره، لا يؤلم العين عند النظر إليه، له طبيعة الشمس في دفء الشعاع. كان أمامها مرج فسيح مغطى بعشب ندي أخضر، في درجة اخضرار مذهلة لم ترها من قبل. ينحدر انحدارا مريحا نحو أفق من هضاب بيضاء من الثلوج، في بطنه بحيرة فيروزية اللون بمياه متلألئة، تحت أشعة الكوكب تتسرب من بين فروع أجمة أشجار بيضاء تتهادى مع الريح في الناحية الأخرى. هكذا، وجدت نفسها في مكان عجيب باعث على السكينة، مكان شعرت أنه يشبهها وينتظرها لتكمله. شعرت بألفة في المكان حاولت أن تتذكر أين رأته من قبل؛ فهو يبدو مألوفا لها، لا تتذكر متى وأين زارته من قبل، تجولت هنا وهناك تكتشفه متتبعة تغريد طيور بيضاء لم تنتبه لتواجدها بهذا العدد الكبير ولا بأشكالها البديعة. تراها للمرة الأولى، حتى قادتها قدماها إلى مكان ظليل بين ورود يغلب عليها اللون الأبيض والأزرق السماوي في وسطه أرجوحة، اعتلتها وبدأت في التأرجح، روادها للحظة أنها هي الثابتة والكون تحت قدميها هو الذي يتأرجح. رمت نفسها بخفة من على الأرجوحة وتركت جسمها يتدحرج على العشب الطري حتى مياه البحيرة، وقرب حافتها اغترفت

من مياهها غرفة، بللت بها وجهها، شعرت بدفء الماء على وجهها. ثم بدأت في الرقص بلا انتظار، خلعت رداءها وطوحت به بعيدا، لتجرب الرقص عارية.

الأفعال في الأحلام لا تحسب بمعايير الصحو، عري الأحلام ليس مخجلا ولا عيبا ولا يترك في الشخص شعورا بالخزي أو الخجل، العجيب أن الأحلام يغلب عليها عادة أحاسيس الخوف والذعر أو البهجة والارتياح. تحررت من ردائها في بساطة، رفعت رأسها إلى الفضاء الأعلى ودارت حول نفسها، كان الفضاء يدور في ألوان من البياض، كان كل شيء يضحك بصوت يثير البهجة في الروح، تكاد تسمع أصوات كل شيء: هسيس ريح وخرير ماء وحفيف أوراق شجر، صدح طيور، أصوات حيوانات أليفة غير مرئية، انتبهت إلى صوت يناديها باسمها؛ صوت تكاد توقن أنها تعرفه جيدا، أفرحها سماعه وتوجهت نحوه كالمسحورة مسيّرة لم تأبه بعريها؛ حين كادت تقترب من الصوت وتتعرف على المنادي، شمت رائحة تعرفها جيدا، الصوت ما زال يناديها من وسط ضباب ينقشع. فجأة تلاشت كل الأصوات في لحظة، سمعت باب الحلم يوصد. استيقظت على صوت الإعلام الداخلي للطائرة يدعو المسافرين لضبط المقاعد استعدادا للهبوط. كانت مازالت عالقة في تهاويم الحلم تبحث عن ملامح المنادي. عبر النافذة تأملت تلك المستطيلات والمربعات التي تشبه سجاجيد خضراء ممتدة. والبيوت الملضومة معًا في فصوص كعنقود عنب وأخرى تمتد في أشكال هندسية دائرية مركزها بناء ضخم، خمنت أنها كنيسة أو قصر،

وتلك الأنهار المتفرعة بأذرعها العديدة. وخطوط الشوارع الواضحة، وبقع سماوية متعددة الأشكال والأحجام لحمامات سباحة خاصة داخل البيوت. صارت الملامح تتضح أكثر والطائرة تهبط.

لم يطرأ على ذهنها قبل أن تمس العجلات أرض المطار سوى حاتم ورانيا.

خرجت من الطائرة مباشرة إلى الممر الطويل المضاء نهارا بأضواء قوية. مرت من الجوازات بسهولة، قبل أن تصل إلى حقيبتها وتجذبها من السير الدائري، وتخرج.

مفاجأة غير متوقعة كانت بانتظارها، وجدت آدم بصحبة ياسين في المطار لاستقبالها. أمنية لم تفكر حتى في جلب متعتها إلى ذهنها لا قبل السفر ولا أثناءه. ارتباك وفرح وقلق وتذكّر وحنين وتعجل وبطء؛ جملة مشاعر اجتاحتها في لحظة واحدة، فكادت قدرتها على الوقوف تنهار، جرت الخطوات القليلة وارتمت في حضن ياسين مغمضة العينين، أما خيالها فلم يكن يرى سوى آدم في وقفته جوار أخيها بانتظار مصافحتها. تخوفت أن تمتد لحظات تخيلها فرفعت جفنيها، ومدت يدها إلى آدم سلمت عليه، ونسيت يدها قليلا في يده، ثم سحبتها ببطء. انتبهت إلى أنه ينظر إلى عنقها، فارتفعت يدها بتلقائية لتلمس الشال الحريري الأزرق؛ هدية آدم لها آنذاك في المطار. ابتسم ابتسامة كمن يمنحها قبلة لقاء قبل أن يأخذ عنها حقيبة يدها. سارت متخففة من

أحمالها، ثقيلة بالمشاعر، ترد على كل أسئلة ياسين بكلمة واحدة:

"الحمد لله بخير!"

تعرف أنه يسأل عن كل أفراد العائلة واحدا واحدا. سيرها على يسار ياسين والاثنان إلى يمينها، يسَّرَ لها أن تخطف بعض النظرات من آدم في الجوار. كرر آدم سؤاله عن الأهل في الإجمال وعن أحوالها وعملها حتى يتمكن من النظر إليها. ر ا سيارة آدم. وجلس ياسين إلى جواره في الأمام فارتاحت ليلى في الخلف. تعلقت به طوال الطريق، لكنها أجبرت نفسها على النظر إلى ياسين وهي لا تراه بل طيف السائق كان الأكثر سطوة عليها. على المرآة الداخلية كانت عينا آدم تركزان عليها كل برهة. الطريق بدا قصيرا لها. اكتشفت هذا عندما توقفت السيارة وأعلن ياسين عن وصولهم. ربما بدا الطريق كذلك لأن نظرته أشعرتها بدعة وطمأنينة، رغم الصمت الغالب شعرت بأنوثتها باذخة في حضوره. ودَّعته وشكرته على توصيلها ودعاه ياسين على الغداء في اليوم التالي، اعتذر لعدم رغبته في إرباك يومهم واحتفائهم بالضيفة. لكن إصرار ياسين وعينا ليلى اللذان حملا ألف رجاء له بأن يقبل، دون أن تنطق بحرف، وكأنه قرأ ما في ذهنها. رد بالموافقة!

صعدت ليلى منتزعة نفسها من أحاسيسها، سلمت على فاطمة احتضنت عبد الله واحتوته في صدرها وقبلته بفرح وسعادة حقيقية. وراحت تبحث في ملامحه عن ملامح ياسين أو حتى عن أشباه له في

العائلة. جهَّز لها التليفون لتتصل بالعائلة تطمئنها على سلامة وصولها، ثم استأذنت لتدخل الحمام. اختلَت بنفسها وسط مشاعر لم تعرف لها اسمًا ولا تصريفا إلا ببكاء حار فتحت الصنبور ليطغى صوت المياه على صوتها شبه المكتوم. كانت المرآة تواجهها. ظلت تنظر إلى صورتها وتبكي، كانت هناك.من تبكي معها؛ من تشاركها تلك اللوعة والحنين والفقد وارتباك المشاعر والإحساس بذنب لا تعرفه، مضفورا بارتياح وسكينة وضجر واغتراب. تركت نفسها تماما لما يعتمل بداخلها، لارتباك المشاعر الذي لم يكنِ له تصريف سوى الدموع التي انثالت حارَّة تغسل ما بداخلها، وبعد أن انتهت غسلت وجهها بماء بارد واستعادت فقط ملامح الوجه المرهق من السفر وخرجت للعشاء.

أثناء تجهيز فاطمة للعشاء أخرجت ليلى الهدايا التي أحضرتها لهم معها من مصر. أخرجت لياسين حجرا صغيرا وقالت له:

> **"هذا الحجر لك يا ياسين، لكنه يريد أن يعود لمصر معك. يعيش لمدة عامين فقط في الغربة ثم يموت، الذنب ذنبك لو مات هنا!"**

كانت قد خاطت بنفسها طقما جميلا لعبد الله، من القطن المصري الناعم، وقدمت لفاطمة حلقا وسوارا فضيا. كما أحضرت لياسين – بناء على طلبه – كمية من الأطباق المكتوب عليها آيات قرآنية، وسجادة ومسبحة.

جلسوا بعد العشاء يحكون قليلا عن أشياء كثيرة لا رابط فيها، كل ما

يطرأ على الذهن كان يخرج في أسئلة قصيرة وردود سريعة. ثم استأذنا لأنهما تعودا على النوم المبكر، ودخلت غرفتها التي جهزاها لها. تأملت عناوين الكتب في المكتبة وفتحت التلفزيون وأغلقته ثم فتحته وتركت الصوت خفيضا للغاية. سمعت بكاء عبد الله فابتسمت. تذكرت حاتم ورانيا، تمنت لو تستطيع أن تحادثهما مرة أخرى. ذهبت إلى الحمام وأخذت حماما ساخنا. في البانيو راحت بأفكارها في عالم بعيد عنها قريب من ذهنها. تستغرب أن ثلاثة أشخاص يلحون على ذاكرتها طوال الوقت بصورتهم: رانيا وحاتم وآدم. تتذكر غيرهم بالتأكيد، لكن صور الآخرين تبدو بلا ملامح واضحة، مجرد أسماء لأشخاص تعرفهم تحتوي ذاكرتها على صور مهزوزة لهم أو باهتة.

فكرت أنه من الأفضل أن يكون لديها تليفونها الخاص، لا لتتصل بحاتم ورانيا متى أرادت، بل لتمنح القدَر فرصة ليشاغبها، هي ربما في هذه اللحظة تمنت أن تهدي آدم طريقا سهلا يسلكه إليها. عندما فكرت هكذا ابتسمت، لا لشيء غير إحساسها بأن قدرتها على الحب أو المغامرة تعود إليها، لذا قررت أن تخاطب ياسين لتشتري شريحة برقم محلي.

حاولت أن تتلهَّى بشيء ما، تذكرت الجريدة المصرية التي كانت معها في الطائرة، فأخرجتها من حقيبة يدها وفتحتها لتقرأ ما فيها، لكنها لم تستطع التركيز في أي شيء. سرح ذهنها إلى السفر والطائرة والحلم. عند مغازلة الحلم لها؛ فضلت أن تستغل الفرصة وتذهب معه لسريرها ربما يساعدها ذلك على النوم. أطفأت الأنوار. شعرت بالسرير الوثير تحتها

مريحا للغاية لكنها مؤمنة أن الأسرّة كي تكون مريحة يجب أن تكون مألوفة تماما، فالألفة تستدرج الأحلام، وعليها يخلع المرء تعبه ويغوص في عالم آخر بعيدا عن أرض الواقع. حاولت أن تراود الأحلام، لكن مثل هذه الأحلام لا تقبل الغلظة أو الإجبار. بعد إرهاق طويل وتقلب متكرر لم تقدر أن تخدع الأحلام ولكنها خدعت للنوم. في الصباح استيقظت على صوت فاطمة توقظها لتفطر معهما. قامت وأخذت دشا سريعا. ثم عادت لتحمل عبد الله وتداعبه. فرحت كثيرا أنه ألف صوتها فورا وأهداها ابتسامات لا تحصى. استراح كل من ياسين وفاطمة للمشهد، واطمأنا لمهمة الأيام القادمة.

قال لها ياسين بطريقة عملية سريعة:

"قررنا أنا وفاطمة أن تكوني مع عبد الله من الاثنين للجمعة، ولك الحرية في نهاية الأسبوع، لتخرجي وتفعلي ما تشائين. طبعا سنخرج خلال الأسبوع أيضا، وقد نقوم ببعض الرحلات معًا، لكن نهاية الأسبوع سترتاحين من هَمّ عبد الله.

"هذا جميل ويناسبني، ليست هناك أي مشكلة!"

تابعت فاطمة:

"صحيح نحن في عطلة دراسية الآن، لكن الدراسات العليا لا تعترف بعطلات، سأعمل طوال الأسبوع هنا وفي بعض المكتبات، سأكون أيضا قريبة منكما.

"لا بأس، سأجعل عبد الله يبكي ويضحك ويعطس بالعربية بعد أسبوع!"

انشغلت ليلى مع فاطمة في التعرف على كل الأشياء الضرورية التي ستحتاجها في الشقة، تابعها ياسين ببعض الملاحظات الإضافية. كان ذهنها مشتتا. في انتظار الغداء بكل ترقب. و لم تكن جائعة لكن جوعا آخر كانت تشعر به. ساعدت فاطمة قليلا في تحضير الطعام واللعب مع عبد الله واسترجاع بعض الحكايات القديمة لياسين. وجدته في أقصى حالات الفرح الطفولية حين ذكرته ببعض الأمكنة والأحداث القديمة بل وبعض الأشخاص الذين نسيهم، حتى الشيخ عزوز لم تنسه، استعرضت أمام أخيها شخصيته كرسم كاريكاتوري مضحك، ونعتته لأول مرة بما كانت تختزنه عنه طيلة الأعوام السابقة:

"هل تذكر الشيخ عزوز؟"

"ومن لا يذكره.. رجل متدين يعرف الله!"

تمادت في التصريح قائلة:

"تدين ظاهري.. لكنه لا يفتأ يتحرش بمؤخرات الفتيات الصغيرات إذا أتيح له هذا!"

"كيف تقولين هذا الكلام؟ هذه جرأة لا ينبغي أن تستخدميها عند التحدث عنه!"

لم تستطع أن تخبره أنه استخدمها لإشباع رغباته – ربما – أكثر من

مرة، حتى اكتشفت فيما بعد، عندما دلتها أنوثتها أن ما يفعله يسمى تحرشا، أو بلفظ أقل حدة انتهاكا. فجأة تغير ياسين تماما، وبدا ذاك الآخر الذي كان يظهر لها في السابق، فلا تعرف مَنْ منهما أخوها. صمتت و لم تستطع أن تكمل الحوار. اعتقدت أن هذا التذكير وهذه الروح المنشرحة التي بدت منه ستبقى طويلا، لكنها ستكتشف من الآن وخلال الأيام القادمة أن الكآبة أصحبت أصيلة في شخصيته، والبهجة هي الاستثناء، وقد تكون منحصرة في أوقات تذكر الماضي. كأنه يرفض ما يبهجه باعتبار الفرح نقيض التدين. حتى نضحت سحنته بملامح سخط وبدا على طبعه قلة المزاح. غلب على كلامه تزمت ديني لم يكن موجودا في السابق. تعقيباته الدينية عن كل شيء تخرج في المناسب وغير المناسب. خمّنتْ أن مكان عمله قد طبعه إلى حد كبير بهذه المسحة التي ضاع منها هذا التسامح والمزاح خفيف الظل. حتى أنه غضب منها يوما غضبا متفجرا حين تفوهت بدعابة ساخرة على مبالغات المتدينين، قائلة: "هل تصدق يا ياسين أن هناك فتوى سمعتها من شيوخ الفضائيات تجيز للحاج رمي الجمرات بالنبلة؟" فرد بما جعل استفزازها ينطلق من مربطه: "شيوخ الفضائيات يا ليلى؟ لماذا أستشعر السخرية من كلامك كلما تحدثت عن الدين؟" صدمت من رد فعله لأنها اعتقدت للحظة أنه سيندهش من محتوى الفتوى فأكملت حتى تتأكد: "هناك فتوى أخرى أيضا استفزتني؛ عن ضرورة إرضاع المرأة لزميلها في العمل كي يصبح محرّمًا لها ولا يبقى لوجوده معها في الغرفة أي شبهة!" فما كان منه إلا أن أعلن استياءه لسخريتها من رجال الدين!

وشعرت أنه أخذها مأخذ الجد واعتبر نفسه مقصودا بكلامها بشكل غير مباشر. ظل متبرما طوال اليوم، والمثير في الأمر أن هذه الفتاوى نفسها التي ذكرتها ليلى، قالها هو ذات يوم في مصر. بينما كانت فاطمة غارقة في الضحك من قلبها على هذا الشطط.

دق جرس البوابة الخارجية ورفع ياسين السماعة مرحبا بآدم. سقطت الملاعق من يد ليلى، لملمتها وغسلتها وأعادتها للمائدة وظلت متوترة. دخل آدم أنيقا كعادته ضاحكا. قدم باقة من ورود الفلامينجو لفاطمة، أهدى لليلي شقائق النعمان. يعرف أنها تفهم في أنواع الزهور ومعانيها. داعب عبد الله بكلمات عربية. ثم بادر ليلى بسؤال إن كان لديها جهاز موبايل. قالت نعم. فقال إنه اشترى لها شريحة برقم محلي واقتني لها رصيدا يمكنها من بعض الاتصالات الخارجية للاتصال بحاتم ورانيا وقتما تريد. نظرت إليه بدهشة، هل اطلع على ما فكرت فيه ليلة أمس؟ أم ترى كانت لديه الرغبة نفسها؛ تمهيد طريق يوصل كُلاًّ منهما بالآخر! كم كانت ممتنة له! كادت تقف وتقبله على لفتته، بينما تجاهل ياسين الحال وشكره بفتور لا يتناسب مع فعله، ذاكرا له أسماء الشركات الرخيصة التي يمكن الاتصال بها من تليفون البيت الثابت، لكن آدم لم يذكر له أنه بواسطة هذا "الموبايل بإمكانها الاتصال في أي وقت شاءت ومن أي مكان.

بعد الغداء ساعدها في وضع الشريحة الجديدة، قال لها:

"لديك الآن رقم جديد، فضلت أن يكون سهلا عليك للحفظ والتذكر، ورقمك هو كالتالي: ياسين، آدم، ياسين، آدم، مصر

للطيران! سأكتبه لك في ورقة لكن عليك أن تحفظي هذه الصيغة. هيا كرري!"

"ياسين، آدم، ياسين، آدم، مصر للطيران! لكن ما معنى هذا؟"

سألته ليلى وهي تضحك باستغراب، كان استغراب وفضول ياسين وفاطمة أكبر. سجل لها الرقم وهو يتبسم قائلا:

"كود الشركة لن تنسيه، قصدت بياسين هو رقم الحي الذي يسكنه وهو 2 ثم 7 وهو الحي الذي أسكن فيه ثم رقم رحلتك إلى فيينا 797 يعني رقمك 2727797، أعتقد أن هذا رقم سهل الحفظ؟"

اندهش الجميع فقطع آدم دهشتهم قائلا:

"لديَّ صديق يعمل في شركة (رنج) للاتصالات ويمكنه منح وتسجيل أرقام جديدة غير موجودة، وقد طلبت منه رقما سهلا هو رقمك الآن!"

نقل لها أرقامها من الشريحة، كان رقمه موجودا ضمن الأرقام، رغم أنها لم تجرؤ مرة على الاتصال به من مصر. عرض عليهم بعد تناول الطعام الخروج للتمشية على جزيرة الدانوب، تمنت من قلبها أن يرحب ياسين بذلك، لكنه تقاعس وذكر أن ليلى مازالت مرهقة من رحلة الأمس. لم تشأ هي أن تحرج كذبته وتبدي رغبتها. صمتت. لكن ياسين تدارك:

"ليكن في الغد أفضل!"

"ليكن الغد إذن!"

رد آدم ثم بدأ يسرد على ليلى بطريقة لطيفة الأشياء التي ينبغي عليها أن تزورها في فيينا والأماكن خارج فيينا. قاطع ياسين مخاطبا آدم:

"إن فترتها للأسف قصيرة لم ترغب إلا في البقاء إلا لستة أسابيع!"

ونظر نحو ليلى متابعا:

"يمكنني أن أمدها لك من هنا لو أردت!"

قالت:

"تكفي نهايات الأسبوع لرؤية الكثير في فيينا!"

انصرف آدم ومرَّ المساء هادئا، ليلا اتصلت ليلى بفاروق وبالأولاد للاطمئنان قبل سفرهم. فجاءها صوت حاتم ورانيا مبتهجا، مما جعلها تنفض إحساس الذنب الذي شعرت به تجاههما، ثم حاولت الاسترخاء للتخلص من الإحساس المربك الذي يلازمها كلما تواجدت في مكان جديد. هب عليها طيف آدم كملاك جاء ليطيّب الروح. فكرت أن تتصل به - على الأقل - لتشكره. مدت يدها إلى الهاتف وضغطت على رقم هاتفه قبل أن تنسحب جرأتها مجددا، رن جرس التليفون:

"آلو مرحبا يا ليلى!"

"هل أزعجك في هذا الوقت المتأخر؟"

"يسعدني اتصالك كثيرا!"

ارتبكت لأنها لم تتوقع أن يعرفها فورا وهمست كمن أيقظته من النوم، لكن رده أعاد لها ثقتها وارتياحها، تابعت:

"أحببت أن أشكرك مرتين.. مرة على استقبالك لي في المطار ومرة على لطفك بإحضار شريحة تليفون خاصة بي!"

"لا تقولي هذا!"

كانت وجنتاها تحمران وتنضح بشرتها بسخونة خفيفة كالعذراوات، أكملت حتى لا يكتشف خجلها:

"هذه لفتة حساسة منك!"

"هل أنت خجولة من حديثنا؟"

سألها و لم ينتظر إجابة، كأنه يراها، ويسعد بهذا الخجل الأنثوي النادر ثم أكمل:

"أنا سعيد بحضورك إلى فيينا.

قال جملته وصمت، كأن صمته حوار مشحون بكل ما لم يقله، حوار مقصود وخاص، لا تصلح له سوى تلك المساحة الفارغة من الكلام؛ مساحة مليئة ببياض الترقب. هي أيضا بادلته الصمت، اكتفت بما تشعر به، حتى إذا لم يكن حقيقة، مستمتعة بقدرة روحها على الشعور بمثل تلك المشاعر، وقبل أن تنطق باغتها بإجابة لسؤال لم تقُله، عندما قال:

"أتمنى ذلك!"

حاولت أن تسأله عما يتمناه لكنها لم تفعل، فأجابت على سؤال لم يقله:

"نعم أريد أن أزور المتحف!"

فضحك كثيرا قبل أن يقول:

"بالتأكيد لديك أمكنة بعينها ترغبين في رؤيتها!"

"نعم.. أتمنى زيارة قصر الشونبرون مرة أخرى!"

أجاب بكلمات قصيرة لكنها حاوية:

"وغير ذلك؟ يمكننا أن نبدأ من السبت القادم!"

"شكرا آدم!"

ساد صمت مجددا، ثم انتابت ليلى حالة من البكاء، لم تستطع أن تؤجلها. كانت تشعر أن البكاء في حضرة رجل كآدم نوع من البوح، أو التطهر، لم تشغل بالها كثيرا، كم هي سترتاح إذا بكت في حضرته على الطرف الآخر من السماعة، وعندما أدرك آدم بلل دمعاتها، لم يحرجها بالسؤال بل تكلم ليسد ثغرة الشجن التي اجتاحتها:

"هذه أروع الأيام للخروج والاستمتاع. ثقي بالوقت يا ليلى، ربما يدخر لك لحظات سعادة لا تتوقعينها."

ثم تابع سريعا:

"أراكم في الغد كما اتفقنا!"

ردت بخفوت شديد ووجهها يبتسم:

"وهو كذلك!"

ما إن أغلقت ليلى الهاتف حتى تركت لبكائها العنان، أرادت أن تتخلص من شحنة انفعالات مكتومة لا يساعد الكلام على تحريرها. بينما هناك على الجانب الآخر في المدينة نفسها تقلب آدم في سريره. كان قلقا عليها. يشعر أن حكاية ما كانت مؤجلة بينه وبينها تبدأ في ممارسة الحياة الآن، وأن دوره محتوم حدوثه فيها مهما قاوم. تقلب مرات في سريره. الحلم الذي كتمه لأيام و لم يرغب في أن يفلته من معقله. يتسرب الآن منه، كلوح ثلج نسي بالخطأ في الشمس. يذوب الحلم النائم في ثلجه الآن وتتسرب حكايته كجدول رقراق. الحلم يتصدر ذهنه كأنه مر منذ لحظة: الركض خلفها، تهربها بإثارة وتدلل، ضحكتها، صعودها شجرة المانجو، لمسها. عينه التي لم تفارقها. أنفاسها المتهدجة ثم أنفاسه. بذات الصوت الفرح القديم يصيح:

"يا إلهي.. هل هذا معقول؟ ليلى هنا الآن، هنا في فيينا!"

نهض ليقف في الشرفة. تذكر ملامحها، ملامح الأمس في المطار وأثناء الغداء. بدت بهية وجميلة. كل تصرفاتها تروق له؛ صوتها، طريقة حديثها، لفتاتها، نظرتها الفاتنة الحيية. يعرف أنها متزوجة وتحب أولادها.

لا يعرف الكثير عن فاروق، لكنه رآه في رحلته في فيينا، مختلفا تماما عنها في كل تصرفاته. تعجّب وقتها أنه لم يلحظ أي شيء يربطهما غير الأولاد. أحس أنها امرأة ممتلئة بطاقة وحيوية وفرح بالحياة، وأن روحها تخفي الكثير. لكنها تبدو سارحة في أغلب الأحيان. لاحظ أن شيئا من الهم يغلف مشاعرها، أحس بهذا في زيارتها الأولى مع العائلة. ارتاح لها آنذاك كثيرا، لذا أراد في الرحلة الأولى أن يخفف عنها ويسعد أولادها ويكون لطيفا مع فاروق، ويحفظ علاقة الصداقة بينه وبين ياسين التي تحولت مع الزمن لعشرة.

من المهلك أن تحب امرأة متزوجة، وأن تنتظرها مثل شاطئ ينتظر موجة. يسحبها البحر إليه مهما أطالت المكوث على الشاطئ؛ الشاطئ الذي ليس له سوى الانتظار والصبر وكثير من الوجع!

ظل آدم يراجع ذكرى زيارتها الأولى ويخلطها بالحلم وبالواقع ويتعجب من مسار الأقدار. لم يعرف ما تخبئه الأيام له، لكنه كان فياضا بالتلهف والشجن والارتباك وكمية لا بأس بها من السهاد. خرجت إليه إيزيس وتمسحت في قدميه بطريقتها المألوفة، فأعادت في لحظة إلى الأرض أفكاره الهائمة في السماء. تنهد - وهو قليلا ما يتنهد - وهذا يعني الكثير. قال لنفسه قبل أن يدخل ويغلق الشرفة:

"ليتك حرة يا ليلى!"

* * *

في اليوم التالي كانت ليلى مستعدة للخروج مساء مع العائلة، شغوفة أكثر برؤية آدم. ياسين دعا أهل فاطمة للعشاء معهم على شرف وجود ليلى، وأخبرهما كعادته في آخر لحظة. استاءت فاطمة من تصرفه. ليلى ابتلعت الخبر في صمت وداخلها كدر لم تفصح عنه. تأسف لآدم تليفونيا ودعاه للعشاء معهم، لكن آدم اعتذر في أدب بأنه يرغب في أن يتركهم على حريتهم. مرت الليلة رسمية إلى حد كبير في وجود أهل فاطمة، فهم برغم لطفهم الشديد يتصرفون برسمية كبيرة داخل بيت ابنتهم، ظلت ليلى سارحة بوجدانها طوال الوقت في مكان آخر كانت تتمنى الوجود فيه. في الليل، ضغطت على رقم هاتف آدم، ما إن رن جرس التليفون حتى رد على الفور؛ أفرحتها هذه اللهفة التي أحست بها، حدثت نفسها سرا:

"أجل هناك في هذا العالم من ينتظر، ومن كابد الشوق وصبر أنصفته الأقدار!"

تحدثا كثيرا وقاطعا بعضهما مرات وكان الصمت البهيج بينهما أطول من الكلام؛ صمتا ناسب الانتظار، وترك الكلام المؤجل لوقته المناسب. ختمت ليلى كلامها بالقول:

"ليتك جئت يا آدم! لقد طبخت اليوم صينية مسقعة مصرية بنفسي، تتوق لها بالتأكيد!"

"هذه خيانة لا تغتفر يا ليلى.. لابد من عقابك بأن تطبخي مثلها مرة أخرى!"

مرت الأيام الأولى بيسر في بيت ياسين وفاطمة. باستثناء رهافة مشاعر البدايات التي غلفت تعاملهم معا، ظل عبد الله طفلا هادئا يعشق اللعب بلا هوادة مع ليلى ثم يخدع للنوم. فاطمة كانت مواظبة على زيارة المكتبات والانكباب على أطروحة عن "تدنيس وتقديس الجسد في الفن والدين"، تناقشت مع ليلى عميقا في هذا الموضوع. تعجبت فاطمة أن ليلى لديها خلفية لا بأس بها عن الموضوع من وجهة نظر الشرق والغرب. كان الوقت يمر لطيفا مع عبد الله وشيّقا مع فاطمة وكئيبا في وجود ياسين.

منذ أن غادر ياسين القاهرة إلى فيينا بعد أن تأكد من وجود ليلى تحت جناح فاروق، ارتاح كأنه نقل عبئا إلى مسئول شرعي عليه أن يكمل معها المهمة. سافر إلى أوروبا وتحققت رغبته بالهجرة بأي وسيلة، نزلت إليه ماريانّه من السماء لتحقق له الأمنية الدفينة؛ هكذا ياسين منذ مولده، تتحقق رغباته بيسر دون عناء، واستطاعت شخصيته أن تتمدد وتنكمش وفق ترمومتر داخلي، وعوامل خارجية مساعدة، ماريانّه الجميلة وحيدة أبويها. سارت حياته معها في البداية موفقة رغم اعتماده على يسر عائلتها التي تمتلك محل جزارة، هو محل صغير ولكنهم يكسبون منه جيدا. ساعدته عائلتها بإخلاص وتوقعت منه مستقبلا طيبا يناسب ابنتهما. عاش لفترة سعيدا معها وتزوجا حتى قبل أن يجد أي عمل مناسب. لكنهم في المرات النادرة التي احتاجا فيها إلى وجوده ومساعدته في محل الجزارة أو نقل اللحوم كان يتهرب. خجل أن يعمل في محل الجزارة، لم يكن عنده مشكلة

مع لحم الخنزير أبدا، فهي ليست قضية عنده كما كان البعض يتخيل، بل هو الخجل من المهنة، اعتبرها أقل من مستواه.

ما أعجب الأقدار! ياسين اليساري الاشتراكي الليبرالي التقدمي، يستنكف الآن أن يعمل في محل جزارة. الأصح أنه يستنكف العمل أصلا، لم يكن يرى في عمل ماريانّه في محل الجزارة أي خجل. استطاع بحيلته أن يجد حلا يخفف عنه الحرج، قرر أن يستكمل دراسته في جامعة فيينا، واختار دراسة الفلسفة، وساعدته العائلة وماريانه بتوفير الوقت والمال، لكنه لم يبذل جهدا لتحقيق هدفه، لأنه لم يكن هدفا حقيقيا. لم يحقق في الجامعة أي تقدم وأصبح الموقف محرجا له. ترك الدراسة و لم يبق أمامه إلا البحث بجدية عن عمل بعيدا عنهم أو مساعدة العائلة في محلهم الناجح، ولكي يتهرب من العمل في محل الجزارة بحث بالفعل عن عمل. لم يكن له أصدقاء كثيرون. تفتق ذهنه أن يذهب إلى النادي المصري في فيينا الذي يجمع جالية كبيرة من المصريين. هناك بدأ يقضي وقتا طويلا، لم يكن يقصد التقرب إلى رواد النادي، هو عادة يمنح كل ما يفعله سببا نبيلا، ربما اعتقد وهو يفعل هذا أنه يجب أن يمنح ولاءه للمصريين المقيمين في فيينا كنوع من الوطنية وإعلاء روح الانتماء، كما كان يعتقد أيضا أنه ما ابتعد عن العمل مع أهل زوجته في محل الجزارة إلا لأن هذا شأن عائلي يجب أن يكون بمنأى عنه. لم يكن غريبا أن يصدقه الآخرون، الغريب أنه كان بعد حين يصدق تبريراته وقد يجادل من يواجهه ويتهمه بسوء الفهم. ظل يسهر ويلعب الطاولة

أو الدومينو والشطرنج ويستمع إلى أغاني أم كلثوم وتلاوة الشيخ عبد الباسط عبد الصمد ويتابع مباريات كرة القدم، ثم بدأ للمرة الأولى في عمره يشاركهم -من وجهة النظر نفسها- في صلاة الجمعة هناك. توطدت علاقته مع الوقت بالبعض، فقدموا له المساعدة التي تمناها، استطاع أن يعمل في إحدى السفارات النفطية كمترجم، ثم تحول عمله مع الوقت من مترجم إلى سائق ومترجم، ثم إلى سائق ومترجم وجالب للطلبات ونقل ما يحتاجون إليه؛ ففي كل مرة يستغنون فيها عن عامل أو موظف، يقسمون العمل على بقية الموجودين، ومن يتذمر منهم يتم استبداله فورا، دون أي حقوق، ووفقا للعقد الساري بين الطرفين الذي لا يضمن أي تأمينات اجتماعية ولا أي حق بالمعاشات. كانوا يعاملونه معاملة سخرة. المرتب زهيد للغاية مقارنة باسم المنصب. مع الوقت بدأ يؤكد ولاءه لهم شكلا وموضوعا. طالت ذقنه وبدأ للمرة الأولى يضمّن ردوده أحاديث وسورا يحفظها، واستغنى فجأة عن كل الأقوال الفلسفية واليسارية التي كانت على لسانه كالوشم. لقي بهذا التحول رضا صاحب العمل بجدارة، فكلفه بكتابة مقالة مطولة مؤيدة بالصور في إحدى مجلات البلاد، لشخصية الشهر، وشخصية الشهر هذه هي أي شخصية نمساوية تحولت إلى الإسلام، يلتقي بها ويحاورها ويكتب مقدمة فاقعة عن هذا التحول النوراني، مشيرا إلى أن العالم يتحول تدريجيا إلى الطريق الصحيح، مع تضمين النص أن هذه الأعداد في تزايد ملحوظ وأنه خلال نصف قرن سيتحول نصف أوروبا للإسلام. كانت مثل هذه الأخبار تلقى صدى عاليا في الدول الإسلامية وتخصص

لها برامج أخرى إضافية لإلقاء الأضواء على الاختراق العظيم، وهكذا أصبحت بعض السفارات تعتقد أن من صلب عملها كسب بعض هؤلاء المتحولين في صفها، حتى لو جهلوا كل شيء عن هذا الدين الجديد؛ فالانضمام وحده يكفي ويزيد!

ثم حدثت المشكلة التي استعان ياسين لحلها بليلى في مصر، عندما اتصل بها في منتصف ليلة شتوية قارصة، لم يراع أنها نائمة في هذا الوقت، بل لم يراع أنها لا تعرف شيئا عن أصل المشكلة، إنما أخبرها بمجرد الاتصال بضرورة إقناع زوجته بالحجاب، حتى قبل أن تعتنق الإسلام! لم تفهم شيئا، و لم يُرِد لها أن تفهم أي شيء، كل ما كان يريده أن تؤدي له هذه المهمة دون الغوص في تفاصيل مشكلته، لكن ليلى اطلعت على كل شيء فيما بعد، واكتملت الصورة. بدأت المشكلة عندما انخرط ياسين في محيطه الجديد، واستطاع أن يكيف شخصيته لتلائم هذا التغيير، ثم طال التغير شكله وهيئته وكل ما له علاقة بتصرفاته، لكنهم أوعزوا إليه أن يُحجّب زوجته النمساوية ماريانّه بعد أن رأوها معه في أحد الاحتفالات سافرة على غير توقع. وعلى طريقتهم بالتدخل في الخصوصيات وتوجيه النقد غير المباشر له، بدأ الأمر يتعقد. حاول معها، فدب المسمار الأول في نعش العلاقة. حاول أن يقنعها بأهمية تغيير ديانتها. انزعجت وقالت له باحتجاج:

"هل تقبل أن تغير ديانتك؟"

فوجئ بالسؤال:

"هذا ارتداد! فضلا عن ذلك لا يمكنني أن أغير دیانتي هكذا ببساطة!"

"وتتصور أنه يمكنني أن أغير أنا ديانتي بكل بساطة؟!"

كعادة ياسين شعر بالمباغتة، فحاول أن يؤجل الحديث في هذا النفق المظلم، لكنها أرادت أن يكمل حديثه معها للنهاية، ولا يغير الموضوع ككل مرة. في السابق استطاع أن ينهي أي حوار بينهما، لم يكن عليه سوى أن يقوم بترديد بعض الجمل غير المترابطة. كانت تنسحب من المناقشة وتنهيها، لأنه – إضافة إلى جمله غير المترابطة تلك – كان يقطع الحوار وقتما يريد ويبدؤه بشكل آخر وقتما أراد. لكن الأمر حساس هذه المرة أكثر، خصوصا بعد أن تجسسوا على عمل عائلتها في مجال الجزارة، ولم يعجبهم أنهم متخصصون في بيع لحم الخنزير بالتحديد. جربوا معه أن يقنعهم بأن يستبدلوا بيع لحوم الخنازير ببيع لحوم البقر، على أن يقدموا له خدمة مقابل هذا التنازل؛ أن يوفر لهم الكميات التي تستهلكها السفارة، وعندما عرض الأمر على أبيها رفض بحسم، لأن الأمر كان مسألة مبدأ. وقفت هي أيضا في مقدمة الرفض والاحتجاج. حتى وصل التوتر إلى منتهاه.

حقا ليلى لم تتدخل وقتذاك، واعتبرت طلب ياسين منها نوعا من العته، أغلقت سماعة الهاتف ونسيت وعدها له بالمساعدة. كانت على ثقة أن زوجته لن تقبل تدخلها، ولن تقبل الحجاب أو تغيير ديانتها بهذه الطريقة الساذجة المتبجحة، خاصة وأن ياسين أخبرها في لحظة صفاء سابقة، أن

هؤلاء في السفارة غير ورعين في الحقيقة، لكن التدين سبب أساسي للبقاء بمنأى عن أي خطر، لا يهم تناولهم للكحول ومعاشرة فتيات الليل، لا يهم مخالفة الصوم أو ترك الصلاة إذا كان الأمر بعيدا عن العيون، الأهم ألا يطلع أحد على الأفعال، لتظل مثل هذه التصرفات سرا لا يدريه أحد، حتى إذا تشكك الآخرون في أحد، فمن الممكن أن ينفيه، وأن يدعي أن ثمة حاقدين يتقولون عليه بما ليس فيه.

كانت طبيعة ياسين المسيطرة عليه هي استغراقه في الولاء لفكرة يؤيدها ظاهريا ويعرف حولها الكثير دون أن يقتنع بها من داخله بصدق، حتى ينسى نفسه تماما وينسى طموحاته وأفكاره. تغير بإفراط. مع الوقت ساءت علاقته بها وبعائلتها، أهلها أيضا شعروا أن جلده انسلخ و لم يعُد ياسين القديم الذي تعرفوا عليه في القاهرة، هذا الشخص الذكيّ المحبّ لتراث بلده وتاريخه والمحافظ على أشياء كثيرة لو اهتم بها لما وصل الحال لما وصل إليه. ماريانّه لم تتركه هكذا بسهولة. ظلت مُصرّة على محاولاتها لاستعادة زوجها القديم وحياتها معه. كانت تحبه بصدق وتؤمن بقدراته أكثر منه ووقفت في صفه أمام أقاربها ووالديها حتى في أوقات عدم صوابه، لكنه خيب ظنها وأفحمها، وكان سببا في أصعب وجع مَرَّ في تاريخها، حين خيَّرها في صلف نهائي بين أن تغير دينها واسمها وتتحجب أو أن ينفصلا. تجاوز بهذا التصرف كل الأعراف عند عائلتها، فلم يبق سوى الانفصال.

وكان البديل جاهزا، بعد فترة قصيرة نصحه رئيسه في العمل بأن

يتزوج امرأة، كانت قد دخلت إلى الإسلام طواعية وغيَّرت اسمها من كريستا إلى فاطمة. كانت شخصية طيبة وطبيعتها الأصيلة لن تتغير تحت أي دين. تزوجها في المسجد، وهما معا الآن منذ أربع سنوات. العجيب أنه ارتاح لهذا التغيير، نسي تاريخه الجميل مع ماريانّه سريعا، مرد راحته كمن في تخلصه من طبيعة زوجته ورفض مجتمعه الجديد لها ولعائلتها وأسئلة العمل الفضولية عن زوجته إن كانت مسلمة أم لا

*

اعتادت ليلى كل ليلة الاتصال بعائلتها. على الرغم من مشاعرها تجاه فاروق، وسعادتها الغامضة بوجود آدم قربها وصوته الذي يأتيها دافئا عبر الهاتف، كان يحز فيها تجاهل فاروق الاتصال بها. وكعادة الأنثى، كانت تُقرّعه أمام ياسين وتكيل عليه اللعنات، وتجد أمامه وأمام زوجته رغبة دفينة في تعريته وإظهاره بمظهر من يتجاهل زوجته، ربما لتقرع ياسين بشكل غير مباشر على ما فعله بها بتزويجه لها، هي لم تشغل بالها كثيرا و لم يؤنبها ضميرها على القيام بهذا، لأن فاروق فعلا لم يكن يتصل بها، وربما لأن الاتصال بها كان سيكلفه رصيد هاتفه بالكامل إذا حدثها دقيقة واحدة، وهو رصيد كان سيكفيه شهرا كاملا إذا استخدمه للاتصال المحلي! لكنها كانت تتصل عند جدهما في الإسكندرية للاطمئنان على ولديها وعلى سير أمورهما. وبعد أن يريحها الاتصال نسبيا، تبقى ملامح قلق تهيم في غرفتها، فلا تشعر بالملاذ المريح لها إلا حين تتصل قبل النوم بآدم، الذي ما إن يَرَ رقمها على شاشة الموبايل حتى يغلق الخط ليتصل بها بنفسه. كان الاثنان ينتظران عطلة نهاية

الأسبوع الأول كتلميذين ينتظران عطلة الصيف بلهفة. تفرع الحديث مرات عن أحداث يومهما وعن بعض المصطلحات والكلمات العامية التي مرت على ليلى في الراديو أو التلفزيون ومعانيها، فكان يضحك معها من نطقها للكلمات ويشرح لها، كما تعلمت من فاطمة الكثير من الكلمات والجمل العامية التي صارت تنطقها بطريقة مضحكة. هذا الاتصال الليلي خفف عنها هواجسها ووحدتها وجعلها تستريح قليلا في نومها، لكنه لم يجعل آدم يشعر بالارتياح الكامل على الطرف الآخر من المدينة نفسها.

جاءت نهاية الأسبوع سريعة، لكن لسوء الحظ وكأن الظروف تشاكسهما، كان هناك ضيوفا طارئين على مؤتمر اضطر ياسين بسببه أن يشارك الوفد في تنقلاته ويعمل يومي السبت والأحد. لم يعرف كيف يتصرف لأنه وعد ليلى بالتنزه نهاية كل الأسبوع، ليحررها قليلا من الالتزام برعاية عبد الله.

اعتذر ياسين مساء الخميس، وارتبكت فاطمة، فهي وحدها لن تستطيع التصرف مع الطفل الصغير بالبقاء لأربع أو خمس ساعات معه خارج البيت. بادرت ليلى بحل مريح لهما من جانبها:

"مازلت أذكر المدينة ولديّ الخريطة إذا استدعى الأمر!"

في قرار نفسها تمنت لو تقبّل ياسين فكرة خروجها للتنزه بنفسها، أن يرحمها من عيني الصقر اللتيْن كانتا ترقبانها قديما، كأنها ارتكبت فعلا فاضحا، يريد أن يتأكد مما فعلته بوضعها تحت مجهر مراقبته، ظلت بقايا

هذا الإحساس تلازمها كلما خرجا معها، للحظة تمنت أن تتوه في المدينة العتيقة أو بين الحارات القديمة، أن تشعر أنها تسير في مدينة لا يعرفها فيها أحد، وتصافح وجوها تثق أنها لا تعرفها، يغزوها إحساس الانعتاق تماما، لن تفعل ما يصنف لدى الآخرين بالعيب أو الحرام، لكن إحساسها بأنها حرة تماما من كل من يعرفها وتعرفه سيحرر روحها، ربما فيه نقطة انطلاق جديدة تماما، بداية جديدة، مفتتح قوس! لم تصدق نفسها عندما وافق ياسين فورا محررا نفسه من أي ارتباط قد يكبله هو أو فاطمة بها. لكن فاطمة تحرجت من اندفاع ياسين، وتخليه عن النزهات التي وعد بها ليلى، والتي ربما، ما قبلت المجيء إلى فيينا إلا من أجلها، لذا قررت أن تتفرغ لها بعض الوقت، ترشدها إلى الأماكن التي تفضلها، وتعلمها طريقة جيدة للتحرك بأقل تكلفة إذا ما فكرت في استخدام المواصلات للتنقل. وبتفكير الأوروبيين العملي الحاسم، قالت:

"من الممكن أن أمنحك ثلاث ساعات من وقتي وجهدي يا ليلى.. سنخرج معا."

حكت لآدم في التليفون ليلا عن التغيرات التي طرأت على خطتهم، واندهش، لأن ياسين لم يحك معه، ولم يكلف نفسه إخباره بانشغاله، لكنه قرر تجاهل عتابه في الأمر نهائيا. أخذهما الحديث هنا وهناك، ونسيم يهب من جهات خافية، تشعر ليلى أن حضور آدم طاغ، فهو من هؤلاء الرجال الذين يستحوذون على العقل لمجرد وجودهم، سألها بغتة:

"لماذا لا تشعرين بالسعادة؟"

لكنها لم ترد، توقفت كأن سلم الصعود انتهى فجأة، سادت لحظات صمت، فعاد آدم للحديث مجددا:

"على كل، أضمن لك أن السعادة على بعد خطوتين منك!"

بدا لها كمن يقرأ الطالع فابتسمت دون صوت وكادت تتحدث لولا كلامه:

"أراك تبتسمين.. هل أخطأت؟"

فقالت ضاحكة:

"لم تخطئ!"

"ألم أقل لك.. ارتفعت عني الحجب، وأعرف لماذا تشعرين بالتعاسة، وأثق أن زهور السعادة ستتفتح على نافذتك عاجلا!"

وإلى أن انتهت المكالمة، لم يتفقا على اللقاء، ربما اكتفت أنها أخبرته بوجهتها، واكتفى أنها كانت حريصة على إخباره، ورأيا في هذا اتفاقا ضمنيا على اللقاء.

خرجت ليلى مع فاطمة وعبد الله في صباح السبت للتمشية في الحي الأول. نزلا في ميدان شتيفان عند الكاتدرائية. جلسا معًا في مقهى أوروبا في الدور الثاني واستمتعت ليلى بأطيب مذاق للقهوة. ثم تمشيا معا وهما يدفعان عبد الله النائم في عربته أمامهما بالتبادل. ذكرت ليلى أنها تريد أن تمشي في طريق "جرابن" لتذهب حتى "بوابة ميخائيلا" مرورا عبر متحف

تاريخ الشعوب حتى مجمع الفنون لتشاهد معرضا قرأت تنويها عنه في ساحة المطار لإيجون شيلي الذي تحب لوحاته بجنون.

حين خرجت من ساحة الأبطال طالعها تمثال الإمبراطورة تريزيا الذي يتوسط ساحة متحف تاريخ الفنون ومتحف التاريخ الطبيعي، اجتاحتها رعشة كهربت بدنها، ففي داخل متحف تاريخ الفنون الذي على اليسار تكررت بودار الرعشة الأولى التي لن تنساها والتي هزتها قبل ثلاثة أعوام وعشرة أيام. الأمكنة تثبت أن لها بالفعل سطوة لا يمكن للزمن أن يغيرها. من هنا مرت روحها وتبدلت، وها هي الآن تمس طيفا قديما منها بقي هنا وانتظرها اليوم ليحتضنها بهذا المس الذي رجفها ليعيد لها ذكرى كأنها كانت بالأمس. سرحت، حتى شعرت فاطمة أن كل الكلام الذي قالته في آخر عشر دقائق لم يلق أي استجابة منها. لاحظت أن ليلى قد علقت وجهها بمبنى المتحف ونسيت الدنيا. ظنتها منبهرة بعمارة المهندس البارع سمبرز الذي شيد هذين المتحفين منذ أكثر من قرن في توأم معماري هو من أبدع ما يوجد في فيينا. لم تعد لرشدها إلا عند الوقوف أمام منطقة عبور المشاة، حين تحولت لإشارة إلى حمراء لتوقفهما وتوقف استرجاع ذكرياتها وتنتبه أنها تسير مع فاطمة. كانت عيناها مترقرقتين بدمع خفيف ملحوظ، قبل أن تفض فاطمة سر الشجن بسؤال، بادرت ليلى:

"تذكرتُ رانيا وحاتم، كانا هنا معي قبل سنوات!"

أكملا المسافة القصيرة إلى مجمع الفنون في صمت. ليلى كانت تفكر

بالفعل في ثلاثة أشخاص، هم الأقرب لها في الدنيا. داخل المجمع ودعت فاطمة ليلى وتركتها تذهب لمشاهدة المعرض واتجهت للبيت. فكرت أن تجلس لتشرب فنجانا من القهوة قبل أن تبدأ جولتها. لم يمض أكثر من خمس عشرة دقيقة حتى كان آدم يدخل بقامته الفارعة ووسامته الباذخة من الباب الذي دخلت منه. دون كلمة واحدة، كانت يدها تكمل مصافحة الأمس المنقوصة بمنتهى اللهفة والبطء من كليهما. كرر ترحيبه بوجودها كأنه يراها للمرة الأولى، ألغى لقاءاتهما السابقة تلك التي كانت في حضور ياسين وزوجته، كأنها لم تكن، وبحساسيته المعهودة، كأنه لم يرها من قبل. بدأت عيناه في تلمس ملامحها، ملمحا ملمحا، كمن ينحتها من جديد، أو يحفرها بأعماقه، نظرته لم تشعرها بخجل بل بنوع من السكينة، في عينيه سطوة تخدرها وتلمسها في أعمق مكان لا تعرف له اسما، تلمسها بحنو لم تشعر به مع رجل غيره في عمرها، تراه يعيد تشكيل وجدان محبتها من البداية، وهي مستسلمة بلذة الخلق الجديد، تقرأ في عينيه كلاما سيقوله لها فيما بعد:

> **"أتأكد من كونك هي يا ليلى.. تلك التي كمنت صورتها بداخلي.. وأخيرا وجدتها ووجدتني!"**

أصابها ارتباك، حاولت أن تخفيه بتوجيه الأسئلة إليه، لكنهما أدركا أن إحساس الارتباك الممزوج بالنشوة إحساس ممتع، ولا بأس أن يستسلما له معا، كان كمطلع الربيع، خليطا من روائح الزهور، والتوابل، والنسيم المنعش، والرغبة في الحب، نعم اكتشفا أن الربيع فصل يليق بالحب،

وأن الحب يخلق ربيعه وقتما بدأ، وأينما حل، هكذا كان الحديث الصامت بينهما، استمتعا ببدايات قصتهما معا، لا بأس إن كانت شبيهة بكل قصص الحب الخالدة، وربما ستنتهي أيضا كمعظم القصص، عزاء المحبين أنهم دون غيرهم لمسوا تلك المشاعر الدقيقة كمن يضع يده في ماء نهر للمرة الأولى في عمره، وكما أخذهما الصمت واستمتعا به، بدآ الحديث دون أن يشعرا، عندما بدأت تستفسر عن إنشاء المجمع وتطرقت لمشكلات الفن في مصر في ذاك الوقت والاتجاه المتصاعد لمحاولة تدمير التراث وتشويهه، وأفكار تأجير التاريخ المصري وبيع جزء منه والتنازل عن الثروة القومية من كل الفنون بمنتهى البساطة كأنهم يُورِّدون بصلا أو قطنا. تأسف آدم من أحوال عبثية يتابعها. وسألها إن كانت قد سمعت بفينوس فون فيللين - دورف. وحكى لها عن هذا التمثال الصغير الذي لا يتجاوز ارتفاعه أحد عشر سنتيمترا لكنه علامة ودليل لتاريخ النمسا، وأن هذا التمثال الصغير قد نال من العناية والأضواء في هذه البلاد ما يحسده عليها تمثال رمسيس الثاني في مصر. (فينوس فون فيللين - دورف) هذا الاسم العجيب الصعب القراءة في العربية، هو اسم لأشهر تمثال في النمسا من الحجر الجيري ارتفاعه يبلغ 11 سنتيمترا فقط، ويعود عمره إلى 25 سنة قبل الميلاد، تم اكتشاف التمثال عام 1908 في قرية قريبة من نهر الدانوب. هذا التمثال له عشرات الكتب والبرامج التلفزيونية والمعارض التي تقام في العديد من أنحاء البلاد.

من خلال هذا التمثال، الضئيل الحجم العظيم القيمة، تتم غربلة التاريخ

النمساوي والتاريخ الاجتماعي، ويتم بث أصالة هذا التاريخ في كل جيل لربطه بتراث الأجداد واحترام حياتهم كما كانت والتعلم منها لا السخرية أو التقليل من شأنها.

دخلا المتحف، فوجئت ليلى برسوم إيجون شيلي الفنان البديع صديق جوستاف كليمت، إيجون شيلي توفي قبل أن يتم الثلاثين، بعد أن اختط لنفسه طريقا مميزا في الانطباعية، وقد سُجن بسبب لوحاته المقلقة لمدة أربعة وعشرين يوما بتهمة نشر "أعمال غير أخلاقية" أكثر ما أسعدها هو رؤية هذه اللوحات الباذخة بأحجامها الطبيعية خصوصا للنساء وهذه الجرأة الفنية العالية للعُري، وهذه الأصابع الطويلة المميزة التي راقت لها منذ اللوحة الأولى التي عرفتها له منذ سنوات بعيدة. تذكرت أنها كتبت عنه موضوعا وهي في الصف الثاني الثانوي، وأن عرضها للوحاته – التي لا تقارن بما تراه الآن – قد أثار حنق ثلاث زميلات فجاءت شكاوى من أولياء أمورهن، وتم الرد على تلك الشكاوى بحزم، بأن المدرسة تدرّس طوال عمرها الفنون الأوروبية القديمة والحديثة ضمن منهجها، وأن الموضوع يتناول فنانا فريدا له قيمة عالية في النمسا وأوروبا، ومن يريد تدجين المدرسة على هواه فليبحث عن مدرسة أخرى، يدرس فيها أولاده بعيدا عن الفنون الحديثة. حكت له ليلى الحكاية فضحك.

ثم سألته سؤالا مختلفا ومباغتا:

"هل تفهم الغرب يا آدم؟ هل تخرج منه أحيانا لتتأمله وتنتقده؟"

"لم يسألني أحد من قبل هذا السؤال. من وجهة نظري أرى أن قسوته مستترة مخفية مغلفة بالبسمة، معطوفة بالتبرير والتغيير والمناورة الناعمة. الغرب يبتسم وهو يقتلك وقد يجبرك على الابتسام وأنت تحتضرين، وحين يفضح التاريخ صورته يمكنه أن يعتذر عنها بتسامح ضمني ليبدو دائما طيبا وسيتم تجميل الفعل بحرفية عالية!"

"هل في رأيك يختلف الشرق عن ذلك؟"

"الشرق قسوته علنية فخورة معطوفة بكبرياء الأخلاق والتغيير للأقسى إن لزم الأمر. في الشرق تظهر أسارير الشر على قاتلك، وحين يجلي التاريخ مقطع الصورة سيبقى الوجه شريرا والعمل أشد شرا!"

صمتت ليلى كثيرا بعد كلامه. فقال:

"الجو ما زال جميلا.. ما رأيك في غداء شهي معي؟"

قبل أن يمنحها حق الموافقة، شرح لها الخطة التي وضعها لها بعد الغداء، راقها ثقته في موافقتها على الغداء معه، قال:

"سنذهب معا لقصر الشونبرون للتمشية.

كانت خفيفة وسعيدة وانتابتها أحاسيس غابت عنها لسنوات. كأنها مراهقة. كان كلام آدم عن الشرق والغرب ما زال يبهرها، قالت له في المترو، وهي تقف قبالته:

"في كلامك شيء يشبهني!"

ثم تعمدت – بعد أن توقف المترو في محطة تالية – ألا تمسك أي شيء. بالفعل كادت تسقط بعد أن تحرك المترو فجأة فسقطت في صدره، اعتذرت وشعرت بمراهقتها مرة أخرى، لكنها أطلقت لجموحها العنان. ثم تماسكت كأن شيئا لم يكن وسألته:

"هل مازال الشرق يمثل لك شيئا؟"

نظر لها عميقا و لم يرد، خشيت أن تكون قد تجاوزت بسؤالها منطقة مؤلمة في وجدانه. لكنه طمأنها بردَه القصير:

"حين نصل سأجيبك!"

بدا لها كأن سحابة حزن مرت على صفحة وجهه، صمتت. أرادت أن تغير الموضوع لكنها لم تجد شيئا صالحا للقول. فضلت الصمت ولوهلة أطل وجه رانيا بحزنها وهي تودعها، نسيت هذه المرة عن غير عمد أن تمسك مقبض أو عمود المترو أمسكها آدم بعفوية من ساعدها. فنظرت من النافذة القريبة و لم تجرؤ على تصويب عينيها نحوه. كانت قبضته قوية وضاغطة، لم تحمل أي رغبة أو شبهة تعمد، لكنها كانت قبضة رجل، رجل خلاب وفاتن فحسب.

تمنت لو تأتي محطة قصر الشونبرون بعد عشر محطات أخرى، لكنها كانت المحطة التالية. ما إن نزلا من المترو، حتى تذكرت ليلى الطريق إلى القصر وقالت له:

"سوف أدلك على الطريق، مازلت أتذكره!"

ابتسم وصمت حتى صعدا من المحطة للطريق. وقال:

"لم أنس سؤالك، فهو جدير بالإجابة. كنت أسأل نفسي هذا السؤال كثيرا، لكنني لم أفكر في الإجابة من قبل.

الشرق يهزم عقلي يا ليلى، لولا قلبي المفتون بالشرق لكفرت به. الشرق يكفر بكل خيال، ينتشلني من أجمل الأحلام ليركّب لي حلما على طريقته ويأمرني أن أغفو وأحلم بما أمر. المؤلم أن الحالمين قهرا يزدادون فأصبحوا مع الوقت غرباء وسط الأهل، في غربة لا يحتملها عقل ولا قلب!"

صمت قليلا ثم أكمل:

"هل هناك فرق بالنسبة لك يا ليلى؟"

"أكاد أرى أن الفرق بين الغرب والشرق يبدو مثل شخصين: الأول يعمل بجد ثم ينام مرهَق البدن، والثاني لا يعمل ثم ينام أيضا مرهَق البال. يصحو الأول فيغضب أنه نام وكان يمكنه أن يعمل أكثر. الثاني يصحو فيغضب أنه لم يعمل، فينام من الإحباط مرة أخرى! فهل ترى أنت أيضا الأمر كذلك؟"

"نعم وأكثر من ذلك؛ فمصائب أولي الأمر أشد تنكيلا؛ أولو الأمر في الشرق آلهة لا تُنتَخب بل تُعبد، وتبديل إلهك يعني هلاكك. يستبيح أخضرك ويابسك؛ أقصد أهلك وأرضك، وقد

يضطرك للابتعاد عن ملكوته، ويُبقي من تحبين وما تحبين رهنا منك لديه. إنها مأساة!

في الغرب ليس لهم من الآلهة سوى عروش مؤقتة. آلهة مؤقتة يأكلونها متى وضعت نفسها على طبق العبادة!"

كان آدم قد عرج بها من المدخل نحو اليمين عبر ممر صغير وسط الزهور، متخذا طريقا طويلا تصطف على جانبيه أشجار السرو والحور السامقة، طريق يبدو مثل قوس من الظل الأخضر، في أفقه البعيد نور يغسل العين والروح. قالت له ليلى:

"لا أريد أن أرى غرف القصر. كانت لدي الرغبة في...

"رؤية بيت النخيل الذي سمعت عنه، أليس كذلك؟"

قاطعها فابتسمت. سار معها يحكي لها قصة القصر بالكامل. كانت خطواتها تنحرف تجاهه يجذبها بإرادتها، أجواء المكان تنقلهما لزمنين آخرين، كانت تشعر بأنها في المستقبل، أما هو فكان يعود إلى الماضي. السير في ممرات القصر تحت أكمة الشجيرات، صوت التغريدات المميزة لطيور الشحرور تؤكد حاضرا يتمنيان أن يلتقيا فيه. تتمنى أن يمسك يدها في هذه اللحظة؛ أن يعبر بها إلى المستقبل، يتمنى في نفسه أن تمسك بيده وتعيده للماضي السحيق. وصلا إلى الساحة الأمامية في قلب القصر بورودها وتنسيقها البديع ورأت بيت النخيل من بعيد. قالت لآدم:

"أود أن أجلس هنا أمام هذه الحديقة قليلا. هل يمكن ذلك يا آدم؟"

"بكل سرور!"

"هل لي أن أسألك سؤالا؟"

"طبعا!"

"هل ندمت على بقائك هنا؟ هل أضناك الحنين وفكرت في الرجوع يوما؟"

"في وقت من الأوقات، شعرت أنه قد الأوان لأحرق سفني كي أحرق عودتي. لكني لم آت عبر البحر. ولو كنتُ أتيت عبر البر لأكلت جملي الذي نقلني. أتيت بالطائرة دون روحي التي ارتعبت من التحليق في الفضاء للمرة الأولى. بقيَتْ في أرض ميلادي، تأتيني جزءا جزءا كلما اشتاقت لي أو اشتقت لها، لست متوجعا ولا نادما، لكن قدري جعلني في النهاية أعيش بروح في مكانين، نصف روح هنا ونصف روح هناك، ومن رحمة الأقدار أنني أعيش في مكانين وليس بين مكانين، ومع ذلك فأنا لا أنام كما ينام الناسْ.

كادت ليلى أن تسأله: كيف؟ لكنها تراجعت عن السؤال، لتراجع كلامه. شعرت أنها أمام شخص مختلف لديه ماض يستحق الإنصات، وشعر آدم أنه أمام امرأة مليئة بالأسرار يتشوق للاستماع إلى حكايات تستحق كل هذا الانتظار؛ وفي آن أمام امرأة تجيد طرح الأسئلة المنسية، ماهرة في تحويل المياه الهادئة لبركة الحياة إلى تيار نهر حي يبدأ صخبه المنذور.

لم يكن البوح العاصف المتسارع من أي منهما مناسبا الآن، بل قد يفسد حالة الاطمئنان ونضج الشوق. الصبر هو أجمل علاج ضد اللهفة؛ فليبق الشغف الشفيف ترأف به الحكايات، والأيام القادمة ربما تكون يوما ما لهما.

ضاع ذهنها قليلا داخل بيت النخيل، الجو الساخن جعلها تسرح في أشياء بعيدة وقريبة غير مترابطة. لأول مرة تشم رائحة الأرض في هذه البلاد. قالت ما تشعر به:

"آدم، أشعر بأن الأرض داخل هذا المكان المحبوس تعيش. لها روح تلمسني الآن، لا أعرف كيف!"

قطع آدم حديثه وشرحه عن النباتات وتاريخ المكان، واحترم الصمت والإحساس الذي داهمها. ترك نفسه لعدوى الصمت معها. الطريق الضيق في الداخل سمح لها بأن تستند مرات على ساعده، وأن يمسك بأناملها برفق لتعبر مدخلا أو بوابة. التقط لها بعض الصور بالقرب من نخلة ومن مجموعة ورود استوائية.

خرجا من هناك ببطء شديد!

دعاها للعودة تمشية عبر طريق الأشجار نفسه. بعد اجتيازه، دعاها على فنجان من القهوة في المكان القديم نفسه في أعلى هضبة من القصر: جلورييت. أوقفتها جنة الزهور في باحة القصر:

"هل هذا صحيح يا آدم، يضعون سنويا مائة ألف وردة في هذه الساحة الواسعة؟"

"نعم هذا صحيح!"

لم ترغب من طرح سؤالها في التأكد من معلومة قديمة تعرفها جيدا، بل أرادت أن توقف الزمن لحظات وتنتقل بعينيها من المائة ألف وردة إلى وجهه، أن تهديه إياها بصمت، أن تهديه فرحة مائة ألف وردة تتسرب إلى قلبها. وجهها تورَّد مثل قلبها وروحها. هكذا رآها آدم أيضا، فأخرج الكاميرا وبدأ يصورها تلقائيا. اقترب أحد السياح وطلب من آدم أن يلتقط لهما صورة معا. فعل، ثم سأله الرجل إن كان يريد أن يلتقط لهما أيضا صورة للذكرى، فسأل ليلى إن كانت لا تمانع، فهزت رأسها بالموافقة. وقفت على مسافة منه لكن رأسها بدا مائلا نحوه، ولما طلب منهما الرجل أن يقتربا أكثر. اقتربا فوضع يده على كتفها تلقائيا. سارا بعدها لدقائق في صمت. كانت المرة الأولى التي يحتويها بذراعه جانبيا ولو برفق، لكنها كانت كافية ليظل الصمت المبهج ثالثهما في طريق الصعود. اللهاث الخفيف لم يكن من أثر ارتفاع الهضبة. تباطأت ليلى فتمهل، زاد تباطؤها. مدَّ لها ساعده لتستند عليه. تأبطته. سارا فترة لا يتكلمان. وما ضرورة الكلام حين يتهامس الجسدان. ظلَّ كلٌّ منهما ينظر للآخر بابتسامات خافتة، يتمهلان عمدا في الصعود. ويجتاحهما معا الإحساس نفسه الذي أعادهما لسنوات بعيدة عند عتبات المراهقة وأول سنوات تجريب خفقة القلب الأولى. قال لها:

"اقتربنا يا ليلى!"

ابتسمت أجمل ابتسامة منذ شهور طويلة بل ربما منذ سنوات. سكتت. فقال لها:

"أكاد أقرأ أفكارك، فكري بصوت أهدأ!"

ارتبكت قليلا، فضحك. تابع:

"هل تريدين الاتصال بحاتم ورانيا؟"

ابتسامتها كان يصعب وصف جمالها. قالت:

"كيف عرفت؟"

"ما تعرفيش إني أقدر أقرا أفكارك.. ومن عنيكي الحلوة أعرف كل أسرارك.. هاه هاه هاه هااه!"

ضحك بشكل مسرحي ليذكِّرها بالمشهد الشهير من فيلم (الوردة البيضاء).

جلسا على أقرب مقعد. أخرجت تليفونها لتتصل بابنيها، ما إن سمعت صوت رانيا حتى ابتهج صوتها وغلبت عينها لمعة دامعة بمزيج من فرح وحزن واشتياق. ابتعد آدم مسافة عنها حتى يتيح لها حرية الحديث، ومن مكانه ظل يتأملها بما لا يجعلها تتوتر. لم تشعر بقلق وهو ينظر إليها. رأى وجهها ينير بومضات فرح ممزوجة بحزن.

لم تتكلم طويلا. حادثت حاتم ورانيا. ثم اتصلت بفاطمة تنبئها بأنها لن تعود للغَداء، وأنها في قصر الشونبرون وقد قابلها آدم وهو برفقتها

في بيت النخيل والقصر. تمنت لها وقتا طيبا وأنهت المكالمة. نظرت بعدها لآدم بانشراح كبير، وقفزت كالغزالة لتصعد معه المسافة الأخيرة حتى المقهى. انتبهت أنها تسرع وبهذا ستضيع منها فرصة مساعدته لها. تأخرت من جديد وتباطأت، فاقترب منها رافعا كوعه بساعده فتعلقت بيديها الاثنتين. وسارا معا إلى أعلى!

لما جلسا في مقهى جلورييت أخرج الموبايل ونظر في الصور التي التقطها لهما السائح المار. قال لها:

"للأسف عيناك مغمضتان في الصورة التي ظهرنا فيها معا!"

اقتربت مثل طفلة لتراها، وضعت كفيها على كفيه لتقلل من سطوع الضوء وانعكاسه واقتربت من الشاشة وهو أيضا، جبهتها لمست جبهته برفق تبادلا في هذه اللحظة شيئا غير مرئي. شعرت بصهده الخفيف على ندى جبهتها. كانت له رائحة جذابة، ولها رائحة شوق يضوع!

لم تكن عيناها مغمضتين في الصورة، بل كان وجهها وجه امرأة تحمل روحها مائة ألف وردة!

مر الوقت أسرع من المتوقع. كان الحديث شيقا. تمنت لو بقيت في هذا المكان طَوَال العمر. دعاها بعدها للصعود إلى الدور العلوي لمشاهدة المدينة، قائلا إنه لا يجوز أن يحضرا إلى هنا دون الصعود إلى أعلى مكان في القصر. صعدا معا، وظل يشرح لها أين يسكن بالتقريب وأين تسكن هي، واتجاهات المدينة عبر المعالم التي تعرفها. بدت منتبهة

في البداية ثم راحت تتأمله وهو منشغل في الشرح. تنظر لحركة أصابعه، إلى إشاراته، إلى لفتاته، إلى ابتساماته، إلى أسنانه الناصعة، إلى رشاقة، حركته وشرحه. تنصت لصوته وتتشربه عبر كل جسدها وليس عبر أذنيها فقط.

نزلا من جلوريت وعبرا أبسطة الورود متمهليْن، يسألها عن أشياء كثيرة وقديمة في مصر، وهي تسأله عن حياته بشكل غير مباشر. اكتشفت أنه متسق مع نفسه تماما، لم تجد أي تناقض في كلامه، فهو ينتقد الغرب عن غير كراهية وينتقد الشرق عن محبة. ارتاحت كثيرا لنظرته ورؤيته.

تسرب اليوم الأول منهما في جنات فيينا، خرجت إلى الطريق خفيفة كأنها تطير. سألها إن كانت ترغب في أن ترى متحف تاريخ الفنون في اليوم التالي. وافقت على الفور، وقالت إنها ستلتقيه صباحا في التاسعة والنصف لو ناسبه ذلك. ثم رافقها حتى بيت ياسين وفاطمة. ودعها دون كلمة واحدة، فقط بابتسامة ومصافحة دافئة. دخلت منتشية سعيدة. ياسين كان مرهقا ونام مبكرا، هذا ما قالته فاطمة، فأعفاها غيابه من إخفاء السعادة الجارْفة التي صقلتها. عندما استأذنتها فاطمة لترضع الطفل ثم تنام، ارتاحت ليلى لوجودها وحيدة، فهي لا ترغب في قطع مسار بهجة اليوم، كما تخشى أن يظن بها ياسين بعض الظن، والأكثر راحة أنها أرادت أن تخلد للنوم بأسرع ما يمكن وأن تعطي لنفسها فرصة ما قبل النوم لاستعادة أحداث اليوم من بدايته وجذب آدم لحلمها القريب.

* * *

في صباح اليوم التالي كانت ليلى مرهقة من قلة النوم منتعشة كطفلة تستعد لرحلة مشغوفة إليها. أفطرت مع فاطمة وياسين الذي سألها عن اليوم السابق بلا اكتراث، ثم عرج للسؤال عن آدم سريعا، كان ينظر إلى الطبق وهو يتحدث، ربما أراد أن يزيل الحرج بالتعجل في تناول الموضوع وإظهار انشغاله الشديد، و لم يُبْد أي ارتياب في الأمر. ثم ختم كلامه بعبارة لم تُرحها قائلا:

"الأهم أن تكوني سعيدة."

كانت عبارة مستفزة، لم تفهم القصد من قولها وفي هذا الموضع. لكنها كانت مأخوذة بما ينتظرها مع آدم، فطارت حسب الموعد لتلتقي به أمام متحف تاريخ الفنون كما اتفقا.

كان آدم ينتظر في الموعد تماما، واقفا منتصبا، سماره ناصع في ضوء النهار، يرتدي بنطلونا من الجينـز ومعطفا صيفيا أسود أسفله تي شيرت أسود فتحة رقبته على هيئة رقم 7، تبدو رقبته عند اتصالها بالكتف قوية وجذابة، واقفا كان أمام بوابة المتحف بشعور قديم مربك ومفرح في آن. شعرت بأقدامها تكاد تركض نحوه دون إرادة منها، أبطأت خطواتها بصعوبة، وحين اقتربت كادت ترتمي في حضنه. سلم كلٌّ منهما على الآخر بارتباك المحبين الجدد. ما إن دخلت لبهو المتحف حتى وقفت بانبهار زيارتها الأولى نفسه. قال لها:

"لا أعتقد أنك ترغبين في رؤية الآثار المصرية مرة أخرى.

"بلى.. أريد. لن تصدق أنني مازلت أتذكر حديثنا قبل سنتين

حين سألتك: كيف تم نقل كل هذا إلى هنا؟ ومن سمح به؟ ويومها قلت أنت: إن الكل تاجر بالتاريخ، باعه بثمن زهيد لمصالح شخصية."

"دعينا ندخل أولا وسأقول لك فيما بعد ملاحظة عجيبة."

كررت ليلى مشاهدتها لكل ما شاهدت في المرة الماضية. لم تمل من التطلع لتفاصيل لوحات روبنز وبرويجل وبوش وفيرمير وغيرهم، بل شعرت أنها تستعيد تاريخا عريقا من الفن العظيم، يمثل أسلافها جزءا كبيرا منه.

فجأة قالت له:

"أتمنى أن أشاهد لوحة القبلة لجوستاف كليمت!"

"هي في البرنامج، فليكن ذلك السبت القادم لنذهب معا لقصر البيلفيدير، أو اليوم لو أردت!"

"لو أمكن اليوم سأكون أسعد!"

نزلت معه إلى كافيه المتحف المستدير. الضوء القديم نفسه ينساب من الطاقات العالية إلى الأرضية المرمرية المرسومة بالأسود والأبيض. جلسا في ركن مقابل للركن الذي جلسا فيه قبل ثلاثة أعوام وبضعة أيام وسألها عمّا تشرب، قالت بدلال:

"واحد بُنّي صغير!"

ضحك آدم من سرعة بديهتها، بادرته:

"هل عانيتَ في بدايتك هنا في هذا البلد؟ أقصد روحيا، وجدانيا، نفسيا. النقلة بالتأكيد لم تكن سهلة!"

"نعم. عانيتُ وأصابني الإحباط مرات. أكثر الوجع كان في البدايات، في النقلة السريعة؛ أو الانتزاع المفاجئ، في اختلاف المكان والعادات والتقاليد؛ الإحساس بالاغتراب عندي كان مؤقتا. المؤلم هو الفهم البطيء للغة؛ للكلام؛ حتى للإيماءات والاستغناء عن أهم وأقرب شيء لك في التواصل مع الحياة. عن لسانك ولغتك الأم. تصبحين فجأة مثل طفل يتعلم الإشارة ويطلب تكرار الكلام مرارا. ويقف كثيرا على حواف الكلام، يفهم خطأ مرات فيتصرف خطأ ألف مرة وينفعل الانفعال الخطأ في الوقت الخطأ والمكان الخطأ، لكنها تجربة ضرورية ومفيدة!"

"وهل عانيتَ في هذا كثيرًا؟"

"ليس كثيرا، لكن عانيتُ عميقا! لا أتخيلك عانيت مرة في تعاملك مع لغتك، فأنت لم تغادري مصر!"

"لن تصدق لو قلت لك إنه يمكن للمرء أن يعاني أكثر مع اللغة التي يعرفها ومع أهلها بالأكثر، وهي معاناة أشد ألما من التعامل مع الأغراب، لاسيما حين لا يفهمك أبدا من تعتقد أو تتوقع أنه يفهمك!"

تأمل آدم كلامها بإعجاب واهتمام، تابعت:

"والسيئ حين يفهمك الناس خطأ، والأسوأ حين يُصرّون أنهم فهموك ويصادرون توضيحك أو يؤولون شرحك!"

"هذا فعلا أشد وطأة يا ليلى!"

"هي محنة من يفكر. هذه هي المأساة!"

ثم قامت بتغيير الموضوع فجأة:

"أشعر أنك تبدو منسجما ومتصالحا مع نفسك.

ابتسم آدم:

"ربما أبدو كذلك مظهريا، لكن هناك أحيان كثيرة لا أفهم فيها تصرفاتي تماما. مشاعري تسبقني فأتصرف قبل أن أفكر، ويبقى على العقل فيما بعد المراجعة، وإما الارتياح أو الندم، لكنني لا ألجأ للدفاع عن تصرفاتي.

"الشخص الكامل ليس صديقا محبوبا على الدوام. المشاركة في ارتكاب أخطاء وحماقات بل وخطايا مثل الآخرين، هي مفتاح للتواصل المحبب مع الكثيرين.

ردت ليلي لتؤمّن على كلامه من زاوية أخرى.

مع كل لقاء بآدم تكتشف ليلى فيه ما تحب وما تخشى في آن. تخشى

أن يكون في جفاء فاروق ما يدفعها لأن ترى كل تعامل رقيق منه على أنه رجل استثنائي، وتخشى أن تغوص أكثر في حبه وهو يعاملها بعفوية جذابة لا انفلات منها. لكنها مطمئنة لشيء واحد يعطيها يقينها الآمن، أنها لا تكذب على نفسها ولن تفعل ذلك لمشاعرها مهما كان. آدم من ناحية أخرى جرب الكثير في حياته وتعرف على الكثيرات، كان يجد في كل واحدة شيئا يبجله، لكنه لم يجد المرأة المتكاملة. يوقن أنه لا يوجد شيء اسمه المرأة المتكاملة. هذا مجرد اختراع ذهني لتخدير الأمنيات. الشخص المتكامل لن يحتاج لمن يكمله، سيكتفي بذاته. وستكون كل علاقة به من الخارج مجرد ديكور مؤقت إضافي وغير أصيل، لكنه يشعر بصدق أن في ليلى قبسا منه، بمجرد أن تقترب منه تتغير كيمياء جسده وروحه. تخشى ليلى من أي تصريح مبكر قد يؤدي لحرق سفنها قبل أن تبحر من مينائها. وهو يخشى التورط في علاقة مع امرأة متزوجة ولها حياتها التي لا يعرف عنها إلا القليل. كلاهما يفكر هكذا ويعرف أن الآخر يفكر بالطريقة نفسها، بدا آدم وهو سارح في مربعات الأرضية السوداء كمن يقرأ تاريخا شخصيا محبّرا بالكتابة حتى فاض سواده وساد. وبدت ليلى في سرحانها كأنها اختارت المربعات البيضاء المعبرة عن خواء كبير يحتاج لكتابة. لم يعرفا أن هذا الاختيار المتضافر في السرحان وحده كفيل بخلق عالم جديد ينسجانه على مهل.

سألها ليخفف من رتابة الصمت:

"هل تفضلين التمشية؟"

"لماذا لا نتمشى إلى قصر البيلفيدير، فهو حسب الخريطة لا يبدو بعيدا.

"لو حذاؤك يسمح بالمشي، يمكن أن نقطع المسافة في أربعين دقيقة.

"هيا بنا!"

خرجا من المتحف متجهيْن لطريق "الرنج" الدائري الذي يحيط بالحي الأول ويحتويه في قلبه. وحين اقتربا من تمثال جوته، قال لها:

"هل سمعت عن هذه الحكاية عن جوته؟"

"أي حكاية؟"

"أنه وقع في غرام فتاة شرقية، ولم يعرف كيف يصل إليها، ولما سألها عن مرادها لترضى عنه، قالت له: 'أنت مثل الجميع لا تعرف شيئا عن حياتنا ولا تقاليدنا ولا عاداتنا، أنا في رأسك مثل توابل جديدة تريد أن تتذوقها ولا تعرف من أي أرض تنبت. أنت مثل الآخرين في عالمك العالي المتعالي تسمع ولا ترى وحين تتاح لك الفرصة لترى، ترى ولا تسمع!' هذا الكلام أثاره وجعله يقرأ الكثير من آداب الشرق من أجلها."

"يا لها من محظوظة! يبدو أن جمالها كان فتانا فتاكا.

"أتخيل أن عقلها كان فتانا فتاكا لتهزم سطوة غرور وتكشف المحجوب.

وقفا عند التمثال قليلا وهي تتأمله، بينما كان آدم يختلس صورا لها بالموبايل. عند الأوبرا قال لها:

"أوبرا فيينا أيضا تنتظر تشريفك لها. لو تحبين الأوبرا فسأقتني تذكرتين لتشاهدي عرضا حيا لبحيرة البجع يعرض حاليا لا يجب أن يفوتك!"

"سأوافق بشرط وحيد!"

"ما هو؟"

"أن أدفع قيمة البطاقتين وأدعوك بعدها لعشاء!"

"طيب أوافق على العشاء، لكن ما الداعي لدفع قيمة البطاقتين؟"

"هذا شرطي الذي لا يحتمل المساومة؛ فإما توافق وإما أن تقبل.. اختر ما تريد!"

ضحك آدم مجددا فألحت لسماع الإجابة:

"هاه.. ماذا قلت؟"

"أنا حائر يا ليلى هل أوافق أفضل أم أقبل.. يبدو أنني سأقبل!"

مشيا معا وآدم يشرح من جديد بعض المعلومات الضرورية عن المدينة، وإلى أي الطرق تؤدي هذه المفارق والشوارع وتواريخها، ويُشير لها على البيوت التي عاشت فيها شخصيات شهيرة.

وصلا إلى قصر البيلفيدير في التقدير الذي حدده آدم، دخلا، كانت هناك مجموعة كبيرة من لوحات جوستاف كليمت، ما إن وصلت إلى لوحة القبلة حتى توقفت ليلى وصمتت في صلاة عشق. لم يشأ آدم أن يشوش على تواصلها مع اللوحة، لكنه شعر أنه يريد الوقوف أقرب ما يمكن إليها. وقف خلفها تماما. تأملت اللوحة بسرحان واستمتاع، كأنها غاصت في حلم قديم. سألته عن كليمت وراجعت معه معلوماتها القديمة عنه. لا تعرف السبب الذي جعلها منذ هذه اللحظة تتعمق في تأمل شفتيه وهو يتكلم أو وهو صامت. شعور ما من اللوحة انتقل إليها بما يشبه العدوى. كانت لديها رغبة كبيرة في تقبيله.

نزلا بعد الفرجة على لوحات كليمت وبعض اللوحات الأخرى إلى المقهى في الدور الأرضي، اشترى لها آدم كتابا عن جوستاف كليمت حياته ولوحاته وبطاقة مميزة للوحة القبلة. كتب عليها أثناء تناول القهوة (ترى متى يقبل آدم حواءه؟) أخذتها ليلى لتقرأ ما كتبه، أصابتها كلماته برجفة، وعندما رفعت وجهها إلى وجهه، كانت عيناه تتأمل شفتيها بشهوة جارفة، وقبل أن يعود لهدوئه سحبها من يدها وخرجا.

تمشيا في الطريق الدائري ثم عبر معها حديقة المدينة، وقفت هناك لتتأمل تمثال "شتراوس" الذهبي ثم عبرا بركة الماء. كان المحبون يتناثرون على حواف البركة وعلى حشائش الحديقة. يجلس كل حبيبين متقاربين أو يقبل كل منهما الآخر. كل شيء متناسق ووادع. الغريب أنها رغم هذا الهدوء راودتها حياة القاهرة بصخبها وجنونها واشتاقت للحظة لهذا

العبث القاهري المجنون. التقط لها آدم بعض الصور، لم تنتبه للكثير منها واستكملا السير عبر "أورانيا" فنزل بها إلى ضفة قناة الدانوب. أعجبها المكان كثيرا وأرادت أن تجلس قال لها:

"ما رأيك سنتمشى من هنا حتى البيت؟"

راق لها أن آدم يسألها رأيها فيما ينوي فعله. سلوك مهذب لم تجده من أحد في حياتها من قبل. روق كان يقرر كل شيء دون أن يلتفت مرة إلى رغباتها، يقوم بما يحب هو، على اعتبار أن لرغباته الأولوية وأن اختياراته- كرَب عائلة - سوف تروق للآخرين دون نقاش، لكنها أيضا فكرت في اللحظة التالية، أن آدم لو كان ديكتاتورا في قراراته حتى، لراق لها، ولأصبح للتعنت والسطوة والانفراد بالرأي هوى في نفسها.

كأنها تمنت أمنية تحققت لها في ليلة القدر. سألها:

"ما رأيك في تذوق الآيس كريم من (آيس صالون)؟ هذا أشهر محلات الآيس هنا.

ابتسامتها أجابت بنعم وعيناها أجابتا برد متكرر دائم يُرى ولا يقال: 'أحبك' صعدا من ضفة القناة، متجهين نحو المحل، قال لها:

"اعتدت أن أشتري الآيس من هنا وآكله وأنا أتمشى، يجب أن تجربي طريقتي؟"

في أحيان كثيرة لا تستطيع أن تجيبه سوى بابتسامة رائقة نابعة من كل روحها.

"انتظريني هنا!"

أشار لها أن تجلس على أحد المقاعد المتناثرة بالقرب. كان الازدحام شديدا كالعادة؛ فتأخر قليلا. لما عاد، لم يرها في مكانها. ظل يدور حول نفسه. قلق عليها وهو يمسك في كل يد بالآيس كريم الذي بدأ يسيل من بين أصابعه للأرض. استمر الأمر لدقائق لكنها كانت أطول من اللازم ليشعر بقلق أكثر من اختفائها المفاجئ. فجأة جاءته تركض. نظر إليها ذات نظرة الحسم التي لن تنساها، يوم تركته في المتحف لتسأل النادلة عن دورة المياه. توقعت صوته الآمر خارجا من بين شفتيه في لحظات. اكتست برعشة الخشية والسطوة، قالت بصوت لا يكاد يخرج:

"آسفة رأيت محلا لفساتين العرائس في الفترينة القريبة فانجذبت إليها وأخذتني التصميمات في الفترينة الأخرى في المدخل، ونسيت نفسي قليلا!"

نظرته كانت وافية. رمى الآيس كريم الذي سال من بين يديه:

"سأشتري غيره حالا!"

نظف يديه بمنديل ورقي. وسحبها من يدها كتلميذة، قائلا:

"ابْقَيْ هنا إلى جواري! لا تتحركي!"

كان أجمل أمر سمعته في حياتها. وقفت تتأمل غضبه وأوامره وقد خدرها كلامه مثل فريسة في غابة. تخيلت أول غضبة لآدم من حواء في أول الخليقة.

تمشيا معا، فبادرته:

"عادة المرأة أنها لا تُسرّ لرجل بما سأقوله لك، لكني أشعر أنني منجذبة لقسوتك. هذا الحسم يروق لي، من أعماقي أشعر بالحاجة لأن يستعبدني من أحبه. شخص يعرف كيف يسترقّني بمهارة الحب وسطوة القلب. معك أشعر بحاجتي للاستعباد منك، أن أتذلل لك عن طواعية. هل فيما قلت، شيء من الشذوذ؟"

"لن تصدقيني، إن في أغوار نفسي إحساسا بالسيطرة لا أنكره، وأود أن أمارس هذه الغريزة مع من تستحق، وهي أنت، وأنت فقط. ربما يبدو كلامي غريبا أو متناقضا، لكني أشعر أنني أكتمل بسطوتي عليك، وأن سطوة العاشق عندي تكتمل بطاعة وامتثال المعشوق عندك!"

تنهدت ليلي بصوت عال:

"أرحتني! كنت أخشى أن تكون في نفسي علة. مشاعري تنبئني بأن المرأة في أغوار نفسها لا يمكن أن تركن لرجل لا يكمل نقصا داخلها، ليس النقص الذي شوهه التاريخ الأخلاقي، بل النقص الباحث عن اكتمال الذات، ومشاعري تنبئني أيضا بأن الرجل لا يمكنه أن يركن لامرأة تشعره باكتمالها دونه. إنها دائرة عشق أبدية، لا يعيشها بتوافق وصفاء إلا قلة!"

قضيا وقتا جميلا في التمشية على ضفاف قناة الدانوب. ثم كرر سؤاله

الذي بدأت تعشقه وتتمنى سماعه:

"لنجلس هنا على هذه الباخرة.

وافقت على الفور. كان الجو رائعا، استأذنته للاتصال بفاطمة لتطمئن عليها وتؤكد لها أنها تستمتع بوقتها.

"هل تروق لك الحياة في فيينا يا آدم؟"

سألته فصمت قليلا ونظر نحو الماء، ثم قال:

"فيينا تبدو أحيانا مثل جدة تحنو عليَّ وأحيانا مثل عاشقة جميلة لا تتركني، لكنها تتحول أحيانا مثل عين رصد كبيرة تُشعر أن كل من يسير عليها غريب، لكنها في النهاية مدينة صالحة لممارسة التأمل والاستمتاع بالحياة!"

"وهل تروق لك الحياة في القاهرة يا ليلى؟"

"هناك فرق بين روح القاهرة التي لا تتغير وبين هويتها التي تتغير على الدوام، تنقبض فتنقبض معها وتنبسط فتنبسط معها. تبدو أحيانا مثل ملكة فرعونية تحب الجميع وتفيض بعطفها عليهم وأحيانا مثل ساحرة شريرة يضر سحرها الجميع، لكنها الآن مدينة غير صالحة لممارسة التأمل أو الاستمتاع بالحياة!"

مر الوقت هينا هنيا بين عصف من الأسئلة يدور بينهما بلا هوادة وبين أسئلة تحوم كطيور في فضاء الحرج، تود أن تسأله أسئلة شخصية لكنها

تخشى التعجل فيها فتحرجه، وتخشى في آنٍ تأجيل الأسئلة، فالوقت في فيينا ليس في صالحها. غامرت بسؤال ماكر:

"ما هو الفارق في رأيك بين المرأة الأوروبية والمرأة الشرقية؟"

ضحك آدم ضحكة عذبة راقت لها لكنها أربكتها، ظنت أن سؤالها ساذج:

"سؤال ليس سهلا، أظن أنني لن أنجح في الجواب؛ ففي ظني أن الفارق وهمي وظاهري. أرى السؤال يلوّح بالعلاقة مع الرجل لأكون صادقا.

راق لليلى هذا التصنيف الذي وضعه؛ فهذا تماما ما تسعى إليه، وهو بهذا اختصر سؤالين إضافيين على الأقل. أومأت برأسها فتابع:

"المرأة الغربية واحدة من اثنتين، امرأة تعرف ما تريد وامرأة تجهل ما تريد وهذا قد يكون خيرا أو شرا لهما!"

"والشرقية؟"

"المرأة الشرقية واحدة من اثنتين، امرأة تريد ما تعرف وامرأة تريد ما تجهل وهذا قد يكون خيرا أو شرا لهما!"

"حيرتني، وما الفارق إذن؟"

"ليس هناك فارق صدقيني. نحن نتوهم الفروق، لأننا نتجاوز التاريخ مرة أو نتجاوز شروط المجتمع مرات!"

"وفي أي التصنيفين أقع أنا من وجهة نظرك؟"

ضحك آدم وقال:

"أظن أنك امرأة تعرف ما تجهل فتريد ما تريد، وهذا نادر وجميل!"

استمر الحديث مشوقا لكليهما؛ آدم سعيد فهو منذ زمن طويل لم يتناقش بلغته العربية بثراء يشبع ما لديه من شوق قديم لعالم بعيد، وليلى سعيدة بنقاش ممتع يلمس شيئا فيها يهزها. تشعر بانجذاب لا تخفيه عيناها ولا ميلها الدائم بجسدها تجاهه واقترابها البطيء كلما أنصتت إليه، لتسمع كلامه متحججة بضجيج وهمي غير موجود في هذه المدينة، وهو يعشق منها هذا القرب ويمعن بهمس مقصود كي تقترب. في هذه اللحظة صمَتا للمرة الأولى. نظر كل منهما في عيني الآخر، فباح الصمت بالساكن وفاضت مشاعرهما المحبوسة في اختلاج التنفس؛ فخبط على يدها بربتات حنونة أن يقوما لأن الوقت تأخر عليها.

في الطريق للبيت تمشيا والصمت يغلف مسيرتهما بدفق المشاعر. عند إشارات المرور كان يمسك بيدها ليعبر بها الطريق؛ فكانت تتعطل عمدا كل مرة ليسحبها برفق، يده تطلب يدها، فتمتد اليد بالقبول وتسكن في كفه، كل إشارة خضراء في ذاك المساء كانت تعني أن يمد كفه لكفها لتسكن فيه ويعبر بها للجانب الآخر، حتى وصلا أمام البناية التي يسكن فيها أخوها ياسين. تمنى أن يقبل وجنتيها على الطريقة

الفييناوية في الوداع، وتمنت هي من داخلها لو قبلها في الشارع أو حتى أمام البيت كما رأت - عشرات المرات في هذه المدينة - عشق المحبين في كل الأعمار، ولن يهمها أي شيء؛ فهذا الرجل الذي في قلبها وضعه الله في طريقها لم يكن عبثا، فلا يمكن أن يختبرها فيما تحب إلا بما يحب ويرضى، ولا يمكن أن يطعمها جرعات من الجنة ليمهد لها طريقا إلى النار، وما قدّره لها لن يكون بمعصية ليعذبها بها، بل ليسعدها بها.

قبل أن تفلسف الحالة وتمحو بهجة اليوم التي ملأت كيانها. ودعته بسلام باليد التي عاشت اليوم أجمل أمان عرفته وأعذب تصافح في عمرها. أبقت يدها في يده لوقت أطول من المعتاد في المصافحة!

افترقا وهي لم تفتح البوابة بعد. انتظرت وهي تلوح له، حتى غاب عن العين، أحست بتسارع نبضها كلما ابتعد، بغلاف من وله الفرح والحزن. همست لنفسها:

"ما أجمل هذا اليوم! ما أجمل القرب منك يا آدم!"

ثم كررتها بصوت عال وهي تفتح البوابة وتصعد مرحة، تفكر في الاتصال برانيا وحاتم و لم تهتم بما سيواجهها من أسئلة ياسين أو فاطمة.

آدم ودعها وزاحمه زخم من الأفكار، تنبه بعد مسافة ليست قصيرة أنه يسير في اتجاه عكسي نحو منزله وأنه يعود إلى الطريق الذي عادا توا منه، كمن يلملم العطر منه زادا له. احتوت ليلى ذهنه وأضاعت منه

بوصلة العودة. شعر بقلق كبير، جاهد في محاولة طرد الأفكار أو محاولة تحليلها: امرأة متزوجة ولها أولاد وتعيش في مكان بعيد وشبه عالم آخر، وأولا وأخيرا أخوها صديقه. كل هذا يعدم هذه العلاقة من بدايتها ويقطع أواصر أي رباط، لكن الآلهة لن تجعل قلبه يهنأ بوجودها هكذا دون حكمة، بغض النظر عن أي معارف أخلاقية رافضة. الله هو الذي سيحدد الاختيار والمصير. الناس ليس لهم علم بحكمة الله سيتصرفون فيما يتعلق بالأحاسيس وفق ماض لم يتعلموا منه ووفق منطق لا منطق فيه. ستتحكم فيهم غريزة الانتقام قبل غريزة التراحم والقبول.

* *

كان ياسين وفاطمة جالسيْن في غرفة المعيشة يتحدثان بصوت هادئ حين فتحت ليلى الباب. رحبا بها. وسألاها عن يومها كيف كان وإن كانت استمتعت. اختصرت اليوم عند نقاط معينة محايدة وأبدت فرحها أكثر بما شاهدت، ذكرت اسم آدم بشكل عرضي وشكرت تفضله بمصاحبتها. فاطمة بمشاعر ومجسات المرأة أحست بليلى، رأت لمعة البهجة الطافية على الوجه، لم تكن بهجة مشاهدة معالم ومتاحف المدينة بقدر ما كانت بهجة الوصول لأعتاب سعادة ما. ياسين صمت. نظر إليها مليا كأنه يسبر غورها، ثم عاد لاحتساء كوب الشاي بهدوء، شعرت أن نوازع داخله تربكه وتجعله يريد أن يسأل عن شيء ما يقلقه. ليلى ظلت على صمتها لبعض الوقت ولسبب غامض في نفسها ارتاحت لعدم إقدامه على إخرج أي سؤال.

كالمنومة تحدثت ليلى إليهما، الضوء الخافت جعلها تتمكن من التخفف من نظرات الفضول ومن استعادة اليوم في ذهنها من بدايته كشريط فيلم. صورة آدم كانت مركز تخيلاتها؛ كل فعل وحركة ولفتة منه، بينما لسانها يحكي تفاصيل أخرى محايدة. بعد أن خفت الحديث، استأذنت منهما لتأخذ حماما قبل النوم كما تعودت.

على الجانب الآخر من المدينة كان آدم غائصا في البانيو الساخن، يسترجع اليوم بإحساس قلب هانئ وارتباك مهيمن لذيذ يؤرقه تداخلهما. كان قد أخذ هاتفه معه ووضعه إلى جوار البانيو وترك نفسه للماء الساخن يجلي له الذكريات القريبة ويثبتها. ليلى كانت أيضا غائصة في البانيو محاولة إنقاذ كفها اليمنى من أي بلل. اليد التي احتضنت كفه في ذاك اليوم مرات. تشممت كفها لتستحضره ومسحت بها على وجهها، قبلت آثار يده التي في يدها، وأخيرا بعد أن سرى في جسدها استسلمت لوضعها في الماء.

ما إن دخلت غرفتها حتى دق هاتفها، لم يكن سوى صوت آدم الحنون:

"شعرت بالفقد بمجرد أن تركتك.. ليتنا بقينا معا!"

لم تجب فأكمل:

"قليل من الوقت أفضل من اللا وقت!"

كان كلامه هامسا، حاملا بحة حزن مميزة. فكرت هل عاشت كل

هذا العمر لتجد الحب أخيرا؟ عندما صارحت نفسها بالكلمة شعرت بخوف ورهبة، ترى هل ما تشعر به حياله حب فعلا؟ أم مجرد تجربة لوقت مستقطع لتهون عليها أيامها؟ أخذتها الأفكار، على الرغم من وجود آدم على الطرف الآخر. خمنت أن الأفكار نفسها تداهمه. فاجأها صوته قائلا:

"تصبحين على حب يا ليلى!"

قالها وأغلق قبل أن تجيب.

مر الأسبوع الثاني بطيئا. روتين شبه صارم. صحو مبكر وإفطار شبه صامت، حاولت فاطمة أن تلطف.الأجواء الصباحية لكن ياسين يظل دائما صامتا، يشيع بتجهمه جوا من الارتباك المشوب بالحيرة. أما عبد الله، فاستطاعت ليلى بعد يومين أن تكون صديقته الحميمة التي يهرع إليها، حتى بعد عودة أمه وتجهيزها الغداء، يظل ملتصقا بليلى. فاطمة تدخل بعد الانتهاء من تناول الطعام إلى غرفة المكتب لتكتب في أطروحتها. تنشغل ليلى في القراءة ومتابعة عبد الله ورؤية بعض البرامج التلفزيونية.

على قناة أخرى خفية في ذهنها ترى عالمين آخرين، عالم فيه حاتم ورانيا يلهوان وصورة باهتة الملامح لفاروق، وعالم يتحرك فيه آدم في فيينا قريبا منها. في المساء، يعود ياسين ويتم تحضير العشاء. يتناولون الطعام في جو يماثل كآبة الصباح ذاتها أو تزيد. لم يكن مدهشا لليلى أنه لا يحكي

عن عمله شيئا مترابطا ومفهوما، ما أدهشها قبول زوجته أسلوبه، وقدرتها على التعايش معه. كأنه يؤدي دورا لا يحبه ولا يحب أن يستعيده.

في إحدى محادثات آدم الليلية، أبدت له اهتمامها بطبيعة عمله وبرغبتها في الاطلاع على طريقة ترميم أحد الأعمال. عرض عليها فورا زيارته في نهاية الأسبوع التالي لو لم يكن لديها أي برنامج عائلي، لتأتي إليه في ورشة الترميم التابعة للمكتبة وترَى كيف يرمم الكتب أو المخطوطات. قال كلامه بلا حرج، لم يبد أنه يقصد استدراجها لينفرد بها. "يبدو أنه لا يمتلك روح المتحرش ككل من عرفتهم من الرجال في السابق!" هذا ما قالته لنفسها وهي تسمع عرضه. لم تجد بداخلها صدى للرفض، لكن الأصعب بالنسبة إليها كان كيفية إخبار أخيها برغبتها في الذهاب إليه دون أن تبدو في عينيها أمنيتها في إقدام آدم على التحرش بها. ظلت مترددة كلما التقت بياسين على الطعام صباحا ومساء، كيف تخرج صوتها لتخبره دون أي مشاعر تنم عما تشعر به. فولاذية وجهه كانت تثنيها عن فتح الحوار، لكنها أفصحت أخيرا قبل الموعد بساعات، وفوجئت بأنه لم يقل سوى:

"سأرافقك حتى مكتبه ثم أغادر!"

كان منظره مثيرا للشفقة وهو يخبرها بهذا، لم تفهم تحديدا ما الأفكار التي يصوغها بداخله وتجعله يبدو بهذه الهيئة، لكنها لم تهتم. في الصباح فعل ما قاله بالضبط، وعند باب مكتب آدم صافحها بنظرته وتركها بمفردها.

فرح آدم بوجودها، لكنه اغتم عندما علم بما فعله ياسين، توقع عندما أخبرته ليلى مساء في الهاتف أنه لن يترك ليلى قبل أن يسلم عليه، ثم غيَّر الموضوع قائلا:

"ربما لديه ما يشغله!"

بهذه الجملة قررا أن يتناسيا حنقه على لقائهما، أو يؤجلا الحديث عنه، قررا ألا يفسد طيفه بهجة النهار، ووجودهما معا. كان قد جهز كتابا في حاجة للترميم، كتابا قديما متهرئا لكنه لم يدخلها إلى ورشته قبل أن يقول:

"افتقدتك!"

لم تجب فأكمل:

"أعرف أنك شعرت بافتقادي أيضا.

ثم سحبها من يدها ودخلا ورشته، شعرت بكفه التي تعرَّف جسمها عليها فاستكان إليها وسكنها، تغيرت شخصيته بمجرد عبور الباب ليتحدث بجدية عن عمله كأنه شخص آخر تماما:

"أول ما نفعله، أننا نفتح الأغلفة وكثيرا ما نجدها محشوة بصفحات من الكتاب نفسه، فيها أخطاء في النسخ أو مكررة تُستخدم كبطانة، ونفضل أن نستخرجها ونحشو الأغلفة بحشو حديث أكثر متانة!"

من حظ ليني أن الغلاف كان به فعلا بعض من هذه الصفحات. أخرجها آدم بمشرط حاد كمن يجري عملية جراحية دقيقة، ثم وضعها لدقائق داخل صندوق زجاجي مفرغ للهواء وهو جهاز لمعالجة أوراق المخطوطات والكتب وفكها. أخرج بعد قليل الصفحات وقدمها لليلى. كانت منسوخة بحبر أسود يميل في بعض المقاطع إلى اللون البني الغامق مع وجود بعض الرسوم في شكل مربعات ومستطيلات ودوائر عن الفلك، بعض الصفحات بدت كمسودة بها بقع حبر أخفت مقاطع منها، ويبدو أن هذا هو السبب الذي جعلها تختفي من المتن لتصبح حشوا.

ليلى أبدت اهتماما كبيرا بالعمل وبالجهاز وبطريقة فض الصفحات ثم بالنصوص، مما جعله يستغرق في الشرح كأنه في قاعة الدرس وليلى تلميذة تكتشف بهجة العلم التطبيقي.

اهتمام آدم بليلى لم يعد خافيا، لكنهما لم يدخلا إلى هذه المنطقة الملغمة بأي تلميح ولو غير مباشر. التعامل بهذه الطريقة أربكها، بعد أن استعذبته في بداية فترة مجيئها، لكن صمتهما على الرغم من إحساسهما جعلها تشعر بأن ثمة مؤامرة تحاك ضدها، و لم يمهلها ياسين لتعتقد خطأ ما فكرت فيه، بل واجهها بشكل مباشر عند المواجهة الأولى، و لم يترك لحسن الظن مكانا بينهما. تقدمت فاطمة في الأطروحة في وقت وجيز، وظلت ليلى تلتقي بآدم في نهاية كل أسبوع، لم تكن تدري أن كل لقاء بينهما لا يعني سوى أن الفترة المقدرة لها في فيينا تتآكل. تغاضى ياسين تدريجيا عن الاستفسار

من ليلى عن آدم المرافق شبه الدائم لها، و لم يستفسر منها عن تأخرها أطول من المعتاد كلما تركت خبرا مفاده أن آدم بصحبتها. كانت تعود منشرحة متألقة بشجن فريد يغلفها. حينها فكر ياسين في أن يمدد لها وقت إقامتها في فيينا لتبقى في خدمة صغيره لأطول وقت ممكن، مستغلا حالة البهجة في تواجدها مع آدم. صارحها برغبته في مساء عادت فيه تزف انشراحها وتألقها في غلالة غير خفية، صمتت وهي لا تستطيع أن تحسم أمرها، نازعتها فكرة البقاء، هاجس يهمس لها بأن الأقدار تقدم لها هدية نادرة وتخصها بشيء سيعوضها عن حياتها الخاوية. لكنها فجأة شعرت في ياسين بخديعة مستترة لإبقائها في فيينا لمصلحته فقط. لم يناقش ياسين معها أي شيء من أحاسيسها، ولا حتى ظنه بوجود شرخ ما في حياتها العائلية يستشعره ولا يرغب في الاقتراب منه. شعرت بشيء من الوجع الخفي؛ فأخوها بأنانية حمقاء يتغاضى عن كل شيء من أجل أن تبقى. لا تهمه أخته ولا أحاسيسها ولا حاجتها لمؤازرة صادقة ولو بأقل مشاركة في حوار!

سألته بمباشرة بصوت هادئ وكلمات حادة لم تعرف كيف تجمعت بداخلها كبركة مياه آسنة:

"هل تريدني أن أبقى لأني سعيدة بصحبة آدم يا ياسين؟"

فقال بصراحة تزيد على صراحتها وتفجعها:

"ولِمَ لا؟ آدم شخص لطيف.. فلِمَ تستعجلين العودة؟ مازلنا بحاجة إليك!"

"أنت تريدني أن أبقى لأنكما بحاجة إليَّ فقط؟"

فقال ببرود لا يناسب فجيعتها:

"وأنت تسعدين بالبقاء من أجل آدم يا ليلى.. المسألة تبادل منفعة.

"تبادل المنفعة بهذه الطريقة عملية تستغني عن الحس السليم للبشر، انتهاز الفرص فيها للأقوى!"

"أمازلتم في عالمكم العربي تضخمون الأمور.. وتتخلون - تحت الشعارات الزائفة - عن سعادتكم؟"

لم تجد ما تقوله. فقط صمتت، فتركها إلى غرفته لينام، لم تكن فاطمة موجودة عندما عرض عليها البقاء، لكن ليلى لم تستبعد معرفتها بالعرض، هما يشبهان بعضهما البعض، وإلا كيف بقيا معا وسيبقيان؟ هذا ما راودها.

دخلت غرفتها، لا تعرف كيف اتصلت بآدم، وحكت له ما حدث بينها وبين أخيها، على الرغم من أنهما لم يمنحا ما يشعران به اسم "حب"، ظلت علاقتهما طوال الفترة السابقة صداقة علنية ومَيْلا مستترا، إضافة إلى مشاعر أخرى غير معلومة، كالبهارات في الطعام، لا يهم اسمها كثيرا. فوجئت بآدم يقول لها:

"ولماذا لا تبقين يا ليلى؟"

"هل يروق لك تفكير ياسين؟"

"لا، على الإطلاق، لكنه يريد بطريقته الفجة ما نريده نحن بمشاعرنا الصادقة.

"لا تقبل روحي هذه المعادلة يا آدم!"

"نحن نخلق دستورنا وشرعيتنا فيما بيننا، لا تهم التسميات، لن يهمنا الآخرون، ألا تريدين البقاء بقربي؟"

فجأة اكتشفت أنها أخبرته بكل ما تشعر به، لكن على لسان أخيها، كأنها صرحت له أنها تحبه عندما أخبرته بما قاله ياسين، وفي المقابل، هو صرح لها بحبه، عندما باح بالمشاعر الصادقة بالبقاء بقربه.

"أليس القدر عجيبا يا ليلى؟"

انتشلها من أفكارها بهذه الجملة، فلم تجد سوى البكاء ردا عليه.

عندما أغلقت الهاتف عادت إلى اكتئابها وشعورها بالحنق على ياسين، كانت شخصيته سببا في كل ما مر بها من حوادث مؤلمة، و لم يهاجر قبل أن يقضي عليها تماما، لم يسألها عن حياتها ولو مرة بعد أن ورطها في زيجة غير سعيدة ليتحرر، مع أنه كان في ذاك الوقت من أعتى المنادين بتحرر المرأة. في الخارج كان ينادي بشعاراته الطنانة وفي الداخل ينفذ دستورا مخالفا. الآن يلعب الدور نفسه وها هو يعود لاستعمالها لتحقيق مصلحته بقسوة. حياته حلقات منفصلة تماما عن بعضها البعض، كأنها

لعدة أشخاص يختلفون في كل الصفات والأفكار، يُخلص للمرحلة التي يعيشها إخلاصا حتى تكاد تعتقد أنه قد وهب كل وجدانه لها، لكنه حين ينتقل لطور آخر يمحو الطور القديم بكامله. لا يعرف أحد هل يستعين على الأقل بخبراته السابقة أم يحرقها أيضا كما يحرق في كل مرة مراكب وصوله لكل أرض جديدة.

هذه الصدمة المستترة الموجعة، منحتها ليلة مسهدة ظلت فيها تفكر فيما حدث طوال حياتها، وانتهى الأمر بعصف ذهنها لتفكر فيما قاله آدم في نهاية حديثهما منذ ساعات، هل تستطيع أن تكون "هي بلا أعباء أنانية الآخرين التي ترزح على أكتافها طيلة الحياة؛ أن تهتم بكينونتها التي تسيل منها كتمثال من الشمع جنب أفران الذكورة. كادت أن تحسم الأمر بالبقاء فترة إضافية في فيينا، لا لتجعله يدرك من الآن أنها على علاقة بآدم، وتقتله بهذه الفكرة الطائشة كما فكرت في بداية الليلة، ولا لأن تستفزه ليواجهها مرة لتخرج ما بداخلها وتتوقف عن الحياة على هامش الحياة، بل لأنه باقتراح الحل الذي يحقق مصلحته، وجد لها حلا لم تكن لتفكر فيه مهما أعيت فكرها.

تركت برامجها الأسبوعية لآدم يرتبها لها كما يشاء. يعرف أنها تعشق الموسيقى، فأخذها عدة مرات إلى الكونسرت – هاوس في فيينا، استمعت وشاهدت ثلاثة من أجمل العروض في حياتها لثلاثة من عمالقة الموسيقى، بدأ معها بحفل كونسيرت للموسيقار يوهان سباستيان باخ بمقطوعاته التي جلبت إليها أحاسيس أجمل ما فاتها من الزمن القديم، هكذا شعرت مع

موسيقاه الأزلية وحدثته فيما بعد، خصوصا "منوعات جولبيرج" على البيانو.

في تلك الليلة الفريدة في عمرها لم تقدر أن تمنع نفسها عن نهنهة مكتومة طوال العرض. أحس بها و لم يسألها و لم يوقفها عن بكائها. كل ما فعله أن أمسك بكفها لوقت طويل وتركها تغتسل بدموعها. غسلتها الموسيقى بما لم تتخيل أو تتوقع. قال ليؤكد لها شيئا ستنتبه له فيما بعد:

"هذه القطعة رقمها 797 لباخ، وهناك أيضا مقطوعة شهيرة لشوبرت بالرقم نفسه سوف أهديها لك، لتقارني بينهما!"

في المرة الثانية دعاها للكونسيرت هاوس لعرض موسيقيّ للموسيقار النمساوي الأشهر فولفجانج أماديوس موتسارت. استمعت هذه المرة بفرح كبير إلى "سيمفونية جوبيتر 41" التي نقلتها إلى أرجوحة في الفضاء، ثم مقطوعة "الناي السحري" التي ذكّرتها – دون أن تدري ولا تعرف لماذا – بطفولة وعبث ومراهقة الشباب، ثم مقطوعة دون جيوفاني الرهيبة التي هزت أعماقها، وأخيرا مقطوعة "فان جوخ" الخرافية التي أعادتها إلى كل أحلامها الجميلة. قالت بعد تلك الأمسية لآدم:

"لم أكن أتخيل يوما أنّ للموسيقى هذا الفعل السحري، موتسارت هذا أحضرني وثبتني في الحاضر بأجمل ما شعرت به في حياتي!"

في المرة الثالثة حضرت معه عرضا لموسيقى لودفيج فان بيتهوفن، لم

تستطع أن تغالب دموعها والفرقة تنتقل إلى مقطوعة (سوناتا ضوء القمر) ثم إلى مقطوعة (أنشودة الفرح). شعرتْ بأطوار جديدة، كأنها انتقلت للمستقبل، سكينة وتأمل وإحساس بطعم الحياة، اختتم العرض بالمقطوعة القصيرة الأشهر (إلى إليزا). قالت أحاسيسها لآدم، أسعده كلامها ووعدها بأن يهديها كل السيمفونيات التسع إضافة إلى أسطواناب الكونشيرتو الخمس المعروفة. سألته:

"هل صحيح أن مقطوعة (إلى إليزَه) كانت لإحدى تلميذاته التي هام بها وتمنى الزواج منها لكنها فارقته وتزوجت أحد النبلاء، أم كتبها لشابة صغيرة كانت قد تعرضت لمرض؟"

"ما أتذكره هو ما قيل عن أنه في العام 1808 قابل مغنية اسمها إليزابيت روكل وأن هذه القطعة كتبت من أجلها، لكن هذا قول غير مؤكد! المهم أن القطعة أصبحت خالدة رغم قصرها، فهي تطلق أحاسيس عميقة في الوجدان في كل مرة يستمع المرء إليها، ألم تفعل فيك هذا الفعل؟"

"لا يمكنك أن تتخيل ما فعلت في الموسيقى في فيينا. لو قيل لي إن الجنة ستكون بلا موسيقى؛ فلن أرغب في الذهاب إليها!"

في كل لقاء كان آدم يحمل لها أسطوانات سي دي جديدة لما تعرفه وما لم تستمع إليه من قبل، نقلها بين موتسارت وتشايكوفسكي وشتراوس وبيتهوفن وباخ وشومان وفاجنر وبرامز وسكلارتي وفيردي وفيفالدي

وهايدن وتيليمان بمنتهي السهولة والبساطة وبحكايات شيقة عن حياتهم وموسيقاهم. ثم عرفها على موسيقى الجاز وحضرت معه بعض الحفلات الجميلة في (بورجي أند بيس)[1] في الحي الأول. نقلها على سحابات الموسيقى حتى كادت ترفض النزول إلى الواقع من شدة التعلق بها!

في أوبرا فيينا شاهدت للمرة الأولى باليه (بحيرة البجع)، كانت تتنهد بانفعال وتشهق بطريقتها المكتومة، الإحساس الذي غمرها فيما وراء المشاهدة فاق خيالها وهز أعمق مكان في وجدانها. شاركها آدم الإحساس وأمسك كفها مرات، بل قبَّل كفها بمحبة صادقة أثناء العرض.

فتح لها آدم دهاليز المدن وروح الفن، فتح لها بوابات جنة كادت تفلت منها. كان يصون مشاعرها كما يليق بها، لا يستبق أي شيء، يرد على أسئلتها الصامتة الكثيرة بإشارة للوحة في معرض أو متحف أو بمشاركة إشباع المشاعر من جدول أو شجرة أو زهرة أو جبل أو حيوان أو طائر في الطبيعة أو حتى بحركة طفل بريء في الطريق. ينبهها بالإشارة أو الإيماءة فقط لأن تتابع. ذهبت معه إلى مدينة سالتسبورج وإلى بحيرة القمر الرائعة وإلى بيت موتسارت وإلى مدينة جراتس، وإلى مدينة كريمس على الدانوب ورأت جنات الكروم السابحة فوق الهضاب وتتدلى إلى النهر، استمتعت بالصعود لجبال الألب وتأمل

(1) Borgy & Bess: من أشهر قاعات موسيقى الجاز في فيينا، تأسست عام 1993 ويعزف ويغني فيها أشهر الفنانين في العالم.

الدنيا من هذا العلو. زارا معا مدن الشمال المتاخمة لحدود جمهورية التشيك لبيوت الفلاحين الرائعة، تعرفت على صديقاته وأصدقائه الذين احتفوا بها كأنها صديقة قديمة عادت إليهم. قضت أياما شكّلها فيها من جديد.

عبد الله الصغير هو الذي أبقاها في علاقة متوازنة من الانهيار والانفجار في وجه ياسين. ولولا المسحة الإنسانية التي ربطت فاطمة بها، وحبها الجارف غير المتوقع لعبد الله لانتقلت في تهور فاضح للإقامة مع آدم.

تجربة انكشاف ياسين خلقت صدعا عميقا بداخلها لم تعرف كيف سترممه.

قالت لنفسها:

"أنا حرة أيضا يا ياسين! من الآن لن أعلق نفسي على مشانق مثل هذا النوع من الرجال. كدت أفقد ثقتي في وجود رجل وحيد لم تلوثه الحياة بخلل رجولي لا يدركه.

جلست ليلى على طرف سريرها. للمرة الأولى لم تتصل برانيا ولا حاتم ولا آدم. لم تدُر بها الدنيا. بل هي التي أدارت الدنيا بنفسها في تلك اللحظة من بدايتها، رمت الأسى عن ذهنها وفكرت في أن تزور آدم في اليوم التالي في شقته؛ أن تحسم أمرا معلقا لا يصل لسماء فيها رب يرحم ولا ينزل على أرض فتحيا أو تموت.

ستكون في الغد مع آدم وستقول له كلاما حبيسا منذ الأزل، وعليه أن

يقبله أو يرفضه أو يبقى محايدا، لكم تود أن تصرح له بجملة واحدة حملتها كل نساء العالم منذ الأزل! لا تهم النتيجة. المهم أن تخرجها للدنيا قبل أن تموت. ثلاثة الآن هم محور حياتها: في قلبها وفي روحها وفي جسدها: حاتم ورانيا وآدم!

في القاهرة في جلستها على طرف السرير، بعد أن دارت في مخيلتها سيرة حياتها مع فاروق، لم تعثر على أسبوع وحيد في حياتها تتذكره يسعدها، حتى اللحظات التي حاولت أن تسحبها من الذاكرة عنوة، ظهر لها مع هذا العمر الطويل زيفها وكذب فاروق على مشاعرها طوال هذه السنوات. إنسان وحيد الخلية يعيش لنفسه فقط. كادت في لحظة أن تكفر بكل رجال العالم، لولا بصيص من أمل الحياة بزغ في حياتها ليعيد لها آدميتها، ولولا حاتم ورانيا لاستسلمت لقدرها وذابت في أمراض نفسية وغابت عن الدنيا.

إذن أنا حرة يا فاروق كما قلت، وأنا أقولها لك منذ هذه الساعة وأمام ربي الذي سيقبلها مني مهما قال الناس، ومهما اتهمت بسببها!

"أنت حرة!"

يا لها من كلمة قصيرة قاتلة. تخرج ليلى من الصالة حانقة، وتدخل غرفة النوم. لا يتسع المكان لروحها الحائرة. تجلس على طرف السرير توقف دموعها التي بدأت تتسرب وتقول لنفسها:

"أشهدك يا ربي، أنني أطلق زوجي فاروق طلاقا بائنا لا رجعة فيه منذ هذه الساعة وأنني محرمة عليه!"

توقفت دموع ليلى فجأة بعد قولها هذه الجملة. شعور عجيب سرى في روحها وخفف عنها. رأت الغرفة المظلمة مبتهجة. سمعت فجأة صوت فاروق في الصالة كصوت الغريب الذي لا يعنيها، شعرت أنها في الوقت الذي تخلصت فيه من فاروق، كأنها استعادت إحساسا عميقا بنفسها وبالحياة.

للمرة الأولى تنام ليلى في الصالة ليلا وفاروق في غرفة النوم.

صدى الجملة ما زال يرن في رأسها، حتى نبست هي بالجملة في خفوت أشبه بالتخلص من كابوس يزهق الروح:

"أنت حرة!"

يا لها من كلمة قصيرة قاتلة! مسحتْ دموعها التي بدأت تتسرب وقالت لنفسها:

"هل كان عليَّ أن أسمع جملة (أنت حرة) ألف مرة منك يا فاروق حتى أطبقها فعلا!"

9

"قالوا لي: إذا لم تتمكني من الزواج ممن أحببت؛ فحبي من ستتزوجين!"

"هذه حكمة منقوصة. لكن في أي معادلة منهما نجحت يا ليلى؟"

"لم أنجح في أن أتزوج ممن أحببت؛ فعانيتُ مع من تزوجت، لم يجعلني أستطيع أن أحبه. فشلت في الاثنين يا آدم. هل تعرف ماذا يعني هذا؟"

"طبعا! تعاسة بلا حدود!"

"التعاسة إحساس هيّن لما تعانيه المرأة مع فشل مركب كهذا؛ فهي تظل حبيسة ماض مكدس بالغم لا يفارق ذاكرتها، وحاضر يتسرب كالماء من بين الأصابع ويسقط في إناء الماضي، وفي رعب من مستقبل تخشاه!"

"أنا مازلت مصرا على أن الحاضر هو الأهم وهو الجدير بالعيش!"

"هذا كلام رجل حر يا آدم!"

"وهل هناك فرق في نظرك؟"

"التحرر هو الفرق، تحرر المرأة يُفهم في عالمنا الشرقي دائما على أنه تفكك وإباحية وتهتك وقاموس رديء من الصفات السلبية. إنه فرق مصطلح يحمل إرثا من القهر والتعسف.

"أنت حرة بأخطاء لكن بلا خطيئة!"

"كيف؟"

"كل إنسان حر يخطئ، ومن يدرك خطأه قد يسلم من الخطيئة!"

"وهل تسمح لنا الحياة أن نمر عبرها بلا خطيئة؟ أم أننا نخدع أنفسنا؟"

"نحن نخلط بين الخطأ والخطيئة في الحب.

"كيف؟"

"الشخص الذي يمكر في الحب يقترف خطأ، والشخص الذي يبرر مكره ويخدع في الحب يرتكب الخطيئة، بعيدا عن المفاهيم الأخلاقية رغم استعانتنا بكلماتها.

كانت ليلى تفكر في كلامه فتصمت، وتراجع حياتها عبر معانيها. شعر بتوترها فكرر جملة مهمة هي فصل الكلام عنده، قال:

"أنت في أعماقك حرة بأخطاء لكن بلا خطيئة وأعتبر نفسي مثلك!"

ساد صمت طويل نسبيا، صمت مريح لكلاهما، محوا فيه معا فترة من الماضي وشعرا بإحساس خسارة الزمن الذي مضى من عمرهما دون أن يلتقيا، كأنه أنصت إلى صوت شعورها الداخلي قال دون سبب واضح، مثل جملة اعتراضية:

"نتعرف فجأة على أشخاص، ونظن أن التعارف قد جاء في وقت متأخر، ولو تأملنا بصدق فإن ساعة واحدة معهم كافية لنشكر كل الحياة!"

ردها كان نظرة إليه وهي تتشرب كلماته في سكون. قطعت الصمت بسؤال حاسم وضروري ومختصر:

"هل تحبني؟"

"كانت أمنيتي أن أجد امرأة خيالية تخرج عليّ من الواقع وليس امرأة واقعية تولد من الخيال. لا تنسي أن بعض البشر شر على الآلهة!

انتظرتك وأنا لا أعرف من ستكونين لكنني كنت موقنا بوجودك وصابرا على حضورك، وبأن هناك إلهًا يرتب لنا لقاء! كيف لا أحبك وأنت تعيشين في دمي منذ وُلدتُ دون أن أعرف كيف أجد نفسي في نفسي.

"أعاهدك منذ اللحظة أن أكون شقيقة روحك؛ أن أكون فؤادا ينبض دفئا لفؤادك وأن أبقى على العهد الذي بيننا ما حييت!"

هذه المناجاة بينهما كانت صادقة وضرورية لرأب صدع الزمن عند ليلى وشرخ المسافة عند آدم، كانت عهدا إضافيا حرا يتجدد برباط شفوي، لا يهم أن يكون أرضيا أو سماويا. في إحساسهما العميق كانا يدركان أن الخالق لم يخلق مثل هذا اللقاء لسبب عبثي، ولو تضافرت الجهود لإخفاق التلاقي بينهما، لفاز مَنْ خَلقَ المحبة بنصر وصالهما. كانت ليلى ترى آدم في كل لقاء أبهى. تمسح بوجوده كل آثار فاروق الخاسرة وكل الخيبات التي سبقته وكل من ترك في روحها ندبة. تراه بعين اليقين فاتنا، فيه من قبس الآلهة رحمة. هو أيضا كان يراها أزهى امرأة في الوجود. كان ينحت في مرمر تألق شخصيتها كل يوم ليكتشف كنزا لن يتنازل عنه، كنزا ردمت عليه أزمنة أرّقتها بالوحل بلا رحمة.

"كانت أمنية حياتي أن أتمكن من التسرب إلى مخي، لأمحو منه أياما

بكاملها، بل سنوات. كنت على استعداد لمحو أكثر من نصف عمري حتى ولو بقي رأسي بأقل الذكريات، أن أجنب قلبي هذا الإحساس بالوخز في كل لحظة والمرارة الملازمة لكل حلو يعبرني وأنا مغيبة. تمنيت أياما محايدة في عمري تمنحني بعض الركون إلى الراحة؛ أياما لا تشعل في حياتي حرائق الذكريات الموجعة!"

كانا معا في لحظات استثنائية من الزمن يصفيان عمرهما معا، ينخلان عنهما الشوائب ويمزجانها في عمر واحد لما تبقى من العمر. عرجت ليلى على سؤال كل امرأة تعشق وتَغار وتستوثق وتعبّر عن وجودها وعن حرصها على الحبيب:

"كيف مرت النساء في حياتك؟ ألم تسرق قلبك واحدة منهن، كي تفكر مرة في البقاء معها للأبد؟"

"أتعرفين يا ليلى! لقد ارتكبتُ حماقات بعدد شعر رأسي ولم أتعلم منها، فالمرء يتعلم من الأخطاء أكثر من تعلمه من الحماقات؛ فهو يكتشف الحماقات بعد وقت أطول من اللازم وفي الغالب يكابر ويدافع عنها. لم أرتكب إثما يؤنبني عليه ضميري بمعيار المكان والزمان، بعض الناس يظنون أنني حكيم، لكني أقبض على نفسي متلبسا بحماقات يتغاضون هم عنها، ربما لأنهم يمارسون مثلها، والاعتياد يُبْهِم الحماقات والتكرار يُلبسها تدريجيا ثوب القبول والإباحة، وقد ترفعها ممارسة الجماعة إلى فضيلة!"

تحتاج ليلى لضمة حنان، ولعله هو الذي يشعر بحاجته لأن يحتويها في

صدره ليسمع رجة قلبها فيه.

"وأنا لم أشعر يوما بطاقة جسمي الفائرة وعنفواني النائم كبركان مثلما أشعر بهما معك. أذوب وأتشكل من جديد بعد كل نظرة منك، بعد كل لمسة، جسمي يفور بقربك يطلبك ويعشقك ويحس بسطوتك، ولا أخجل من أحاسيسي بل أنزوي فيك ليكون قلبي معك وتكون روحي منك. في وجودك أترك لجسمي العنان ليطلبك مثلما لم أفعل في عمري.

أنا امرأة بجسم مهزوم من التاريخ، بقلب مجروح ونصف روح، لم أفهم جسمي، فتعذبْتُ وتشوَّهَتْ علاقتي به. لم أشعر أن هناك من أحَبَّه بل من استعمله بأنانية وقسوة، فانفجر بركان كراهيتي عارما، وحين حاولت أن أعطي قلبي لأي منهم، لم يكن مستعدا لهذا المنح، فاروق أيضا، ظل طوال هذه السنوات يعتبرني مخلوقا ناقصا؛ فاعتبرته بالمقابل مخلوقا زائدا. أما ما تبقى من روحي فقد حار ما بين جسم لا يستقر فيه وقلب لا يسعه، فبقيت روحي تحوم في فضاء بلا أرض تقف عليها حتى استقرت أخيرا عندك وفيك يا آدم!"

"هل كانت لك علاقة مع رجل آخر أثناء زواجك؟"

صمتت ليلى، على الرغم من نيتها التي بيتت لها قبل لقائهما في أن تخبره بعلاقتها مع رجل الظلام ذاك، الذي وضعته صديقتها كحَل مؤقت للضجر، إلا أنها عجزت عن الكلام. نظر آدم إليها مطولا، وهي توجه

رأسها بعيدا كيلا تلتقي نظراتهما، قال:

"لا بأس خنت جسمي مرات أيضا، لكني خرجت من هذه التجارب بحكمة أن الامتناع عن مقاربة ما لا تشتهيه روحي سمو وصلاة لها، وليس حرمانا.

ظلت كما هي شاردة فأكمل:

"تعلمت من الحياة أن الجسم الخالي من الرغبة في الحبيب هو جسم خاو من حيوية وجوده، وأن ممارسة الجنس الخالية من رباط الروح هي مجرد غريزة منقوصة. الجنس دنس بالغصْب من مغتصب ولو كان حبيبا، والإشباع الذي يشبع القلب ويهزه بالوجد ويوفق له الروح هو أصل الحياة. أظن أن من لم يجرب – بعد العهد الرابط بينه وبين من يعشق – ممارسة غريزة الجسم بمتعة القلب وفيض الروح لن يصل لمنتهى الوجد ولن يرتاح. أراها علاقة عاشق بمعشوق؛ التئاما وانسجاما، لو ضلت لحار صاحبها أو مارس العنف أو ارتد على نفسه بعزلة خاملة، دائرا في متاهة لذات مؤقتة قاصرة!"

دفعها كلامه الهادئ إلى العودة إلى الحوار، متجاوزة ما كان يناقشه إلى نقطة أخرى:

"هناك شيء يقلقني، سأكون صريحة معك، لن أخفي عنك رغبتي وجنوني وتوقي لك؛ ولن أؤجل مشاعري المتأججة أو ولهي بك؛ لكن لا أدري لِمَ تروق لي الرقة في الحبيب حتى أذوب

فيها ولَمِ أشتهي منه القسوة، لم هذا التناقض الذي أتوق إليه؟"

"كأن المرأة مخلوقة من نار وطين يا ليلى، نارها قد تحتاج لرقة للسيطرة عليها، ويحتاج طينها لقسوة إعادة التشكيل، أو ربما تحتاج نارها لقسوة للسيطرة عليها، وطينها يحتاج لرقة إعادة التشكيل. أتخيل أنه في أعماق كل امرأة احتياج إلى رجل شاعري يغلفها بالعشق ويذيبها بالرقة، وتحتاج في آن لرجل شهواني بدائي بمعنى البدائية المجبولة على الميل للتوحش. رجل يُفلت جنون طينها ونارها. يطفئ أغلب النار ويترك جذوة الحريق الشهواني متأهبة للاندلاع، وأن يشكل طينها بعون الآلهة لتكون على مقاس روحه.

تتبعت حركة شفتيه وهو يتابع بهدوء وثقة:

"أظن أن المرأة تحتاج القطبين في رجل واحد، وسعيدة الحظ هي التي توفق في أن يكونا معا في واحد، وهي تشغف بهذا المُركَّب الرجولي وتتمناه. الرجل أيضا مهما أنكر نوازعه؛ يحتاج إلى امرأة فاضلة ومنفلتة في آنٍ، لكن غروره يستر رغبته، فيعاقب المنفلتة إن انفلتت في الوقت الذي يراه خطأ، ويقهر الفاضلة إن تمسكت بالفضيلة في وقت طلبه هو للانفلات! هل أسرفت في الكلام أو تفلسفت يا ليلى؟"

التقطت أنفاسها وابتسمت بانبهار قائلة:

"أسمعك بكل كياني. كلامك يغزوني وفكرك يبهرني. أمْرَضتني

بغيابك وتمَرّضني توا بحضورك، فأشتهيك وأشتاق إليك ولا أشبع من وجودك. ما أسعد امرأة تعبر عن شهوتها للحياة لمن تحبه ويحبها ويفهمها! أنا أعيشك في نومي وأحلم بك في صحوي يا آدم، وسيأتي الوقت الذي أسرد لك فيه كل أحلامي لأنها لك، ثم أعيشها معك واقعا؛ فالحلم أيضا قسمة الواقع!"

"لابد أن أسرد عليك حلما، وأعترف بداية بأنك صرت سر أحلامي منذ وقت لا أستطيع تحديده بالضبط، فقبل شهور قليلة حلمت بك ذات ليلة. حاولتُ بعدها مرات استدعاء أي طرف من الحلم دون جدوى، أردت أن أتعرف عليك أكثر عبر الحلم، أن أغوص في شخصيتك لكني لا أومن بتفسير الأحلام، بل ببعثها توقفت منذ ذاك الحلم عن ممارسة الجنس، كنت شرها عن سأم، أمارس الجنس كفحل فوضوي. لم يحقق لي الجنس أي إشباع لأنه كان في اتجاه واحد، فرغبات مثل الجوع والعطش يشبعها اتجاه واحد، لكن الجنس يحتاج لإشباع متبادل: أخذ وعطاء، ويبدو أنني كنت أعطي ولا آخذ، أو آخذ بلا انتباه فأبذر العطاء بحمق. أتذكر أسماء كل من مارست معهن الجنس ولا أتذكر شكل أجسامهن. أتعرفين لِمَ صفعتك وأنا أرتعش عليك للمرة الأولى؛ لأنني أردتُ أن أفيق من حلمي عبر جسمي الذي كان ساريا وراسيا فيك، ولأني أدركت جسمك الذي تأوه فتوجعت أنا، فرسوت على ميناء سرك وعرفت مستقري. أردت أن أتأكد أنك هنا وأنني جزء من كيانك. أردت أن أوقظ جسمي

بصدمة إفاقة لينبض، أن تعيدي الحياة إليه، وهذا هو سبب خواري الشاهق المستلذ المتوجع المفتون المجنون الذي كان.

رأيت عينيك يا ليلى. رأيت كيف تنظرين إليَّ برعب الخشوع والرغبة الحرة، فصرت أصلّي على جسمك بخشوع أكبر ورغبة أكبر. وعضضتك هذه العضة التي ستبقى وشما على كتفك. كنت أعض نفسي. حصنتك بي وطعّمتك ضد أي جسم يقترب. انتهى جسمك إليّ فعدت أنا إلى صواب جسمي ورشد فحولتي، إليك أنت فقط.

كانا يتلامسان أثناء الحديث ليخففا من شحنة العشق، يحتضنها ليتذوق حنان طراوتها وطلاوتها، تتعاشق أصابعهما ويترك أنفاسه ترعى مع أنفاسها في مروج الرغبات القادمة. على عينيها سؤال يخرج ليّنا من بين شفتيها:

"هل تشعر بندم ما عن علاقاتك مع النساء؟"

"ليس ندما. ظننت فقط مرات أنني أضعت زمني في مكان غير صحيح أو مع نساء خطأ. معظم من الْتقيتُهن كان بهن شيءٌ مما أحببته لكن غاب عنهن أغلب ما تمنيت، لذا لم ألتق بامرأة كاملة من وجهة نظري ورغبة قلبي وروحي.

أفرحتها هذه الإجابة، ولم تظن أنها كاملة من وجهة نظره، بل كفاها الشعور باختلافها؛ بملئها ثغراتٍ بكرا في نفس آدم نقصته لأعوام، لكنها عادت لتسأل سؤال المرأة الذي لا تخفت جمرته:

"هل تجدني مختلفة؟"

رد وهو يهم بتقبيلها وتمسيد ظهر كفها النائم في بطن كفه:

"أنت تختلفين يا ليلى في الأهم؛ معك أفكر فيما ينقصني، مع الأخريات ظللت طوال الوقت أفكر فيما ينقصهن. لعل القدر وضعك في طريقي لأكتشف نفسي في مرآتك وأعرف ذاتي عبر لغتي الأصلية.

ارتاحت ليلى لتعبير آدم، لثقته النهائية بها، أدركت أن قدر آدم كان أن يحج في الأزمنة والأمكنة وأن معاشرته للكثيرات لم يكن عبثا، بل ضرورة لاكتساب معارف إنسانية تصوغه على ما هو عليه الآن، لتكون ثمرته الناضجة لها، وليمنحها هو لها طواعية. تشكر الله على هبة تدرك الآن معناها الصحيح والعادل لحكمة الرباط بين الذكر والأنثى! كان آدم يشعر باستقرار نفسي في تلاقي نصف روحه الحائرة مع نصف الروح المتوجعة لليلى لتكون له أيضا تلك الثمرة الناضجة، التي دله حسه الدفين أنها في مكان ما من هذه الأرض، وأنها قد بدأت منذ زمن بعيد في السير نحوه لتجتاز اختبارات إلهية لتصل إلى روحه!

لم تنس ليلى السؤال المتحفز الذي يراودها منذ حديثه عن الحلم؛ فالأحلام – لها مثلما هي له – ليست عبثا، ولا تأتي من فراغ ولا تذهب لفراغ، ينظران للأحلام بتباين جميل. هو لا يفسر الأحلام التي يتلقاها ويعتبرها عمرا إضافيا منحه إياها المنام، وهي تفسر الأحلام بحس المرأة الباحثة عن المستقبل. أفْلَتَ السؤال منها خفيفا حرا:

"كيف حلمت بي؟ ومتى؟"

"كأجمل ما يحلم حبيب بحبيبته! كنا معا عند شجرة، أسندك لتأكلي فاكهة لم تكن محرمة. رفعتك لها وأنا أقرأ جسمك الصاخب بكفيَّ وعينيَّ، أسكب دلالك الفياض على جسمي حتى منتهى النشوة، وأشكّل مرمر جسمك قرينا لجسمي، أحتضنك وأشم فيك رائحة ثمار المانجو، بإ ياها على صدرك تفز نضجا وامتلاء، فأغور في صهدك الحريري الدافئ المرتعش، لينسرب مني ماء الحياة فأسمع صوتك مبحوحا: 'آدم. آااه دم!' فأقوم من سريري بعد صحوي إلى 'إيشاربك' الأزرق المعلق على الحائط منذ ثلاثة أعوام وثلاثة أسابيع وثلاثة أيام بالتمام والكمال، أشم رائحته؛ رائحتك يا ليلى! رائحتك التي بقيت في روحي إلى الأبد!"

"نجحت يا آدم فيما لم أتوقع أن أنجح فيه طوال عمري. نقلتني لأعيش في الحاضر الذي أهملته. الآن لا يهمني القادم. يكفي أنني عشت أياما معك هي بالعمر كله!"

" لكننا سنكون معا.

"صدقني أجمل ما في عمري أننا 'الآن' معا! لقد تذوقت معنى الحياة. أحسست بالحياة تمر بداخلي وتعصف بي أجمل عصف، ولم تعد تمر بي كمتفرجة.

"سأرتب لأكون في القاهرة كل حين من أجلك لأني أريد ولأني أريدك!"

"سأكون أسعد مخلوق لو أكملنا عمرينا معا!"

بهذا الوصال الاستثنائي بين ليلى وآدم، بدأت فيينا تعيد إليها ديون الحياة القديمة عن العلاقات المشوهة التي تحمّلتها، وتدفع في آن لآدم عائد الانتظار الطويل عن العلاقات المبتورة. عاشا فيها أياما لا يمكن وصفها إلا بكونها مزيجا من شهد الحياة وثمار الصبر. مطر صيف هذه المدينة - الذي راق لليلى أن تسير تحته مرارا بلا مظلة فقلدها آدم في تحرر طفولي مبهج - كان يغسل عنها غبار السنوات لتنصع لهما وتشف، موسيقى المدينة نسجت في الروح عشقا أبديا لن يغيب، لوحات الجبال ومزراع الكروم والغابات والورود والأنهار والبحيرات والمتاحف والطرقات والميادين والناس والكائنات، أهدتهما معنى الحياة. كانا يسيران في المدينة مثل ملاكين هبطا توا، ولن تنسى رحلتها معه للغابة ذات عصر، حين سارا مُسيَّريْن وسط أشجار البتولا والصنوبر والصفصاف الحور ليدخلا منه إلى مرج منبسط، كمن يعودان إلى بيتهما الذي يعرفانه، وفي وسط هذا المرج الأخضر النائي عن أي عين، خلعا ملابسهما وتوسداها، ظلا زمنا طويلا عاريين يتأملان السماء والطبيعة وبعض الغزلان والأرانب البرية التي اقتربت والطيور التي حومت، تصرَّفا كأنهما يكرران طقسا أزليا محتوما، حتى وجدا نفسيهما يلبيان نداء الطبيعة داخل الطبيعة، ليحول آدم ليلى في لحظات إلى حواء، ولتعيد هي إليه آدميته الأولى، للمرة الأولى تنتحب ليلى نحيبا مرجفا.

كان صوتها يعلو بالنشيج وآدم يحتضن رجفتها ويشاركها وصولها بمنتهى الوله.

وفي هذا البيت العالي شهدا معا رباطا أبديا ووعدا وعهدا. لم تنس ليلى حياتها هناك و لم ينس آدم حياته هنا. اعتبر آدم ليلى زوجته منذ أنبأته بتحررها من فاروق ومن ياسين وأخبرته بكل التفاصيل. واعتبرت ليلى آدم زوجها منذ عهدها له وتزويجها نفسها له. تغاضى ياسين عن الوداع الأخير عمدا لأنه عرف أنه قد لُفظ من أرضها، بقي له هامش واهن يكفيه لرباط أوهن بالزمن القديم وبمستقبل علاقتهما معا، وعليه وحده أن يحافظ على ما تبقى منه دون التزام منها؛ هامش بمعنى أن يتركها في سلام بعد هذا العمر المرير، بدلا من الاستمرار في طيها تحت إمارته الوهمية وإفساد حياتها التي تدخل فيها مرات بإرث رجولته الأرعن. هي الآن تقرر لنفسها كل شيء، بيدها عصمة حياتها: الطلاق، التحرر، الزواج، استعادة الحياة.

أصرت ليلى أن تعود دون رفقة ياسين إلى مطار فيينا. ودعته هو وفاطمة وعبد الله في البيت!

تلك الرحلة إلى فيينا صارت مصيرية دون أن تتوقع؛ فأن تُلقي عن كاهلها رزح رجلين - في غضون أسابيع قليلة وعلى أرض أخرى - لم يكن ليأتيها حتى كهاجس. صحيح تأخرَتْ على تحررها من فاروق خوفا على حاتم ورانيا، وخشية من إرث معقد من العلاقات الاجتماعية لم تفكر في الخوض في بحره، لكن الآن لا مناص من فك هذا الرباط الوهمي

البائس من أجلهما أيضا؛ من أجل استعادة أمٍّ كانت مغيّبة ومهزومة. هي توقن أنه لا فرق عند فاروق إلا ما سيقوله الناس، ولا فرق عند العائلة إلا كلام الناس، ولا فرق عند ياسين سوى صورته الأنانية لنفسه. يعني كل الفروق المصيرية في حياتها هي من أجل الناس فقط، هي مجرد صورة تكميلية وتجميلية تريح الناس كي يشعروا بالتشابه الكاذب المطَمْئن؛ بأنها جندي في معسكر العائلات الأبدي بالزي الموحد نفسه، مجند يتلقى الأوامر وينفذ مثل سلالة إنسان آلي دون امتعاض وإلا تعرض للجزاء. علت نبرة غضبها لتسمع صوتها يردد:

"اللعنة على كل الناس إن كانوا يهدمون حياتي تحت مسمى الأسرة الوهمي وتبعات العادات والتقاليد!"

آدم اقترب منها لأنه كان لابد له أن يقترب. كل شيء كان يسير على حساب علاقة ستنحني مع ياسين، علاقة صارت - من قبل - مع تغير ياسين الراديكالي تنتقل من بوابة الصداقة إلى نوافذ العشرة. عاشا شبابا جميلا في هذه المدينة فيه كثير من الحماقات والتجارب، عاشا الحياة كما يجب أن تعاش. ارتد فيها ياسين فجأة إلى وضع مناقض لم يكن يتوقعه آدم، واعتبر نفسه قد نجا من دار الكفر إلى دار الإيمان. خسر تدريجيا كل الأصدقاء القدامى والصديقات وبقي آدم كآخر الأصدقاء؛ آدم هو الذي لم يتخل عنه، بقي واضحا كما هو ثابتا في مكانه واثقا من نفسه. لم يعد يهم ياسين خسائره البشرية المتلاحقة ولا كنوز الصداقات القديمة التي فرط فيها بكرم أخرق، مقابل مكاسب غيبية صارمة ومستجدة من شخص

تمرس قديما على إعمال عقله دائما في أمور الشك واليقين. أصبح له زملاء وأصدقاء يتغيرون وفق طقوس متغيرات حياتهم!

وقفا ينظران إلى الأفق البعيد وقت الغروب. إلى البيوت والأسطح، وإلى جدران الشوارع البعيدة التي ترصعت بالأضواء. كأن شمس الغروب قد أدت مهمتها شاهدا لهما وعليهما، تباطأت في النزول في الأفق البعيد وهي تسلم نفسها وديعة لليل. كانا ينظران معا للغسق ويداهما متعاشقتان. انتبها لطفل يحادث طفلة تقف وتشب بقدميها على السطح المقابل، كان الطفلان يضحكان بصوت طفولي خلاب تنقله الريح إليهما. ارتمت ليلى بظهرها في حضنه وضربات قلبه تدب في ظهرها. أغمضت عينيها فأحست بروحها تعانق روحه، ثم تلتئم معها في روح واحدة.

حتما قام آدم وحواء بالطقس نفسه في لقائهما الأول على أرض الله!

حتمية العودة إلى القاهرة من فيينا غزلت شجنا جديدا لمشاعر ليلى، المشاعر التي حملت بها في الزيارة الأولى ثم ولدت على أرض فيينا في تلك الزيارة المصيرية. عودة بنصف روح بعد أن أدركت فيها وجود النصف الآخر. كانت فرحة بالعودة إلى حاتم ورانيا. صورة فاروق انزاحت تماما من إطار الفرح، ثم سقطت. قال لها: "أنت حرة"؛ فصارت حرة فعلا، بإرادتها هي، آدم رافقها في طريق العودة حتى المطار، ورافق قِسْمةَ

روحها العائدة إلى القاهرة، طمأنها أن ما حدث لم يكن وهما، بث فيها الأمان؛ الأمان الذي تحتاجه المرأة وتتمناه. كم كانت ممتنة لهذه المدينة! المدينة التي سجلت معها تاريخا لاستعادة الحياة المسروقة، التي منحتها - في آخر لحظاتها فيها - حضنا عامرا وقبلة من رجل اسمه آدم، دون أن ينظر لها أي شخص استهجانا. تركت نفسها له ليربت على روحها وقلبها وسط دموع تسري في وجه ريان بالبهجة والامتنان. لم تكن دموع الفرح المفاجئ التي خبرتها ولا دموع الحزن العاصف التي عايشتها، بل دموعا أعمق تجلي الشجن والوله المتناهي، دموعا تنبثق من منبع آخر وتسحب معها مشاعر معطلة فيها لم تعرف لها من قبل سبيلا. تمنت منذ هذه اللحظة أن تكون كل دموع عمرها الآتي مثل هذه الدموع، كي تتخفف بها من خزين العمر الحزين. كانت تحتضنه كطفلة يودعها أبوها لغياب طويل. لما تركت آدم صارت تتأخر، تتعطل، تتلكأ، نادى الميكرفون الداخلي على رقم ووجهة رحلتها راجيا سرعة التوجه إلى بوابة المغادرة. لا تسمع ولا يسمع. حتى وصلها اسمها شخصيا بسرعة التوجه لبوابة المغادرة. حينها انفكا من بعضهما. قبّلها ورجع خطوة فذهبت إليه، ثم انصرفت فعاد يجري إليها ليحتضنها؛ كأنهما في رقصة عشق بتلاق وانفصال، لا يريان في المطار أحدا ولا يهمهما بشَر، أبقت أطراف أناملها معلقة بأطرافه حتى النزع الأخير. أسرعت للأمام ورأسها للخلف، عاتبته قدماه على أمره لهما بالثبات، عبرت الحاجز، وقفت في الداخل ورفعت يدها للوداع، أشار لها أن تسرع مخالفا كل مشاعره، فاختفت جسما عن عينيه، وبقي طيفها واقفا أمامه. فك سراح تثبيت قدميه فدار في مكانه كالمذبوح.

اتصلت من داخل الطائرة وطمأنته أن كل الأمور سارت بسلام، وأنها مضطرة لإغلاق الهاتف فورا. قالا الجملة نفسها في الوقت نفسه بهمس من روضة في جنة ما زالت آثارها في الروح:

"أحبك!"

في الطائرة شعرت بأنها لا تريد أن تأكل شيئا، ولا ترغب في القراءة، شعرت فقط برغبتها في تثبيت ألف ساعة وساعة بالتمام قضتها في هذه المدينة حتى هذه اللحظة. طلبت كوبا من الماء. وركنت رأسها على النافذة وسرحت بعينيها في الفضاء. لا حاجة لاستدعاء أي حلم الآن، الواقع أجمل وأروع في استذكاره. الحنين كبير لرانيا وحاتم، والشوق مماثل لآدم الذي ينطلق بسيارته عائدا لبيته منصتا لأغنية أم كلثوم التي استمعا لها مرارا في رحلاتهما. تذكرت ليلى فورا أن هناك محطة للأغنيات القديمة في راديو الطائرة الداخلي، استمعت لآخر كلمات أغنية ليالي الأنس في فيينا، لتليها أغنية (انت الحب) لأم كلثوم. في الفضاء كانت تستمع للأغنية بشجن ودموع وتفكر في حبيب عائد الآن بسيارته لبيته حاملا قلبها معه. على الأرض كان هو ينصت للأغنية نفسها، ويدرك أن في الفضاء روحا منه محلقة حاملة معها قلبه. قالت بصوت هامس من كل روحها ووجدانها ومن بين دموعها:

"شكرا لك يا إلهي يا سميعا يا مجيب دعواتي.. رب احفظه لي واحفظ لي كل من أحب!"

ما إن لمست قدماها أرض مصر حتى شعرت بالحاجة لتخليص نفسها من البكاء المحبوس اشتياقا للمكان، لبست نظارتها الغامقة، تركت مشاعرها تتدفق، تمهلت، حتى وصلت أمام ضابط الجوازات. خرجت. لم يكن فاروق في انتظارها، بل حاتم ورانيا مع جدهما آتين معا من الإسكندرية حسب رغبتها.

كانت أحضانا مماثلة في عمقها وشجنها لحضن آدم، وهي تسقط حقيبة يدها على الأرض باستعجال وتفتح ذراعيها لحضنيْ حاتم ورانيا، لتسد بهما شرخ الغياب الطويل. ثم احتضنت أباها بإحساس طفولي قديم غاب عنها دهرا. أراحها هذا الإحساس. شعرت بشبه امتلاء واكتمال. جلست في السيارة في الخلف محتضنة الاثنين، يسألانها عن الهدايا، فتنكر متعللة بأن الوقت كان ضيقا ولم تتمكن من إحضار أي شيء. ينظران لعينيها بتوجس طفوليٍّ عذب، فتخونها صرامة الكذب وتضحك. شعرت أنها اغتسلت في غيابها لصالح ولديها وأن العلاقة قد دوويت بالمسافة وعولجت بالحب الحقيقي الغامر لقلبها وروحها، أدركت أخيرا أن الجنات هنا على الأرض قبل أن تكون هناك في سموات الغياب. للمرة الأولى منذ سنوات بعيدة تشعر بالحضن الذي يرأب الصدع. تشعر بأنها عادت وأنها أقوى وأن طاقتها تجددت وتفيض، وأن الخواء غادر روحها. بكاء راحة البال يعود إليها في وجهها المبتسم، بينما أبوها يسألها عن عبد الله وياسين وفاطمة. تجيب في اقتضاب وتكرار: "الحمد لله.. بخير!"، تسرح مع زحام الطريق وتلقي فيه نفايات أفكارها؛ ها هي الآن تمحو من رأسها جزءا مما تمنت وتبتسم!

أخرجت تليفونها واتصلت بآدم. سمعت صوته المريح وهو ينطق باسمها:

'ليلى'

نطقت باسمه و لم تزد. تركت السماعة مفتوحة و لم تتحدث، تركته يسمع قلبها والأصوات التي ترافقها والضجيج الذي يغلف المكان. الصمت الذي كان يصلها منه وسط هذا الحشد كانت بحاجة إليه ليشعرها بالسكينة، والضجيج الذي وصله في سكونه هناك كان بحاجة إليه ليشعره بأنه في الحياة. تبادلا الأحاسيس بصمت. قال في سره كلاما كثيرا وصلها وردَّت عليه بالمثل؛ فالأرواح المُحبة لها لغة صامتة تتواصل كاسرة أطول مسافة، وغائرة في أبعد زمن!

فيينا، بيروت، فيينا

(1 نوفمبر 2012 حتى 31 مارس 2013)

المؤلف في سطور

طارق الطيب

- من مواليد القاهرة (عين شمس، تسجيل ميلاد: باب الشعرية) في الثاني من يناير 1959. انتقل في عام 1984 إلى فيينّا حيث أنهى دراسته في فلسفة الاقتصاد وهو يعيش الآن فيها ويعمل إلى جانب الكتابة الأدبية بالتدريس في ثلاث جامعات بها.

  نشر حتى الآن روايتين ومجموعتين قصصيتين وخمس مجموعات شعرية ومسرحية واحدة وكتاب في السيرة الذاتية.

  نشرت ترجمات لكتبه في اللغات التالية على الترتيب: الألمانية، الفرنسية، المقدونية، الصربية، الإنجليزية، الإسبانية، الرومانية،ثم الإيطالية. كما له ترجمات في لغات أخرى لنصوص أدبية في العديد من الانطولوجيات والمجلات والدوريات العالمية.

- شارك في العديد من المهرجانات الأدبية العالمية.
- حصل على العديد من المنح الكبرى والجوائز منها منحة إلياس كانتي (Elias Canetti) الكبرى في فيينّا عام 2005 والجائزة الكبرى للشعر في رومانيا في العام 2007.

تم تعيينه كسفير للنمسا لعام الحوار الثقافي الأوروبي (EJID) في العام 2008.

حصل على وسام الجمهورية النمساوية تقديرا لأعماله في مجال الأدب والتواصل الأدبي داخليا وعالميا، في العام نفسه 2008.

- حاصل على زمالة "برنامج الكتابة العالمي وبرنامج "بين السطور بجامعة أيوا في أميركا، في العام 2008.

صدر له مؤخرا: (بعنا الأرض وفرحنا بالغبار) بيروت 2010، و(... ليس إثما) القاهرة 2011، و(محطات من السيرة الذاتية) القاهرة، دار العين 2012.

عنوان صفحته الشخصية:

www.eltayeb.at

الرحلة ٧٩٧

المتجهة إلى فيينا

للمرة الأولى تطيل النظر في عيني رجل وترى لونهما وعمقهما، فتشعر أن النظرة تروي عطشا بعيدا مزمنا لم تنتبه له، وأنها تريد المزيد. للمرة الأولى يقترب منها رجل فيقشعر جسمها ويرتجف ويزلزلها دون أن يلمسها. يجذبها إليه بسحر غامض فتستجيب بغريزة مسحورة.

للمرة الأولى يشعر هو أنه مسيّر ولأول مرة تشعر هي أنها مخيّرة. في لهفة يخلع كل منهما للآخر ملابسه. كأن كليهما يخلّص أحدهما الآخر من أسر ما.

* * *

أنا امرأة بجسم مهزوم من التاريخ، بقلب مجروح ونصف روح، لم أفهم جسمي، فتعذبْتُ وتشوّهَتْ علاقتي به. لم أشعر أن هناك من أحبّه بل من استعمله بأنانية وقسوة، فاروق أيضا، ظل طوال هذه السنوات يعتبرني مخلوقا ناقصا، فاعتبرته بالمقابل مخلوقا زائدا. أما ما تبقى من روحي فقد حار ما بين جسم لا يستقر فيه وقلب لا يسعه، فبقيت روحي تحوم في فضاء بلا أرض تقف عليها حتى استقرت أخيرا عندك وفيك يا آدم!

لوحة الغلاف: جوستاف كليمت


9 789774 902463

